

الرسول محمد ﷺ

الجزء الأول

الرسالة النبوية

والبشارة بمحمد ﷺ

وإنك لعلى خلق عظيم

إعداد وإشراف

الشيخ صفي الرحمن المباركفوري

شارك في الإعداد

أ . د محمد إبراهيم عبدالرحمن

رحمه الله تعالى

الشيخ مصطفى بن العدوي

الشيخ مهدي بن إبراهيم المبجر

الشيخ عبداللطيف بن هاجس الغامدي

الأستاذ فؤاد محمد عبدالمنعم

مجدي عبدالباقي الشريف

باحث في الإعجاز العلمي للقرآن والسنة

الأستاذ / سيد سليمان الحلواني

الناشر

شركة كندة للإعلام والنشر

وإنك لعلى خلق عظيم

حقوق التوزيع والترجمة

بتفويض من الرواد للإعلام بجدة

ت ٦٧٠٣٣٣٦ فاكس ٦٧٠٣٣٣٦

يطلب من وكلاء التوزيع

مكتبة كنوز المعرفة بجدة

دار الخزامى للنشر والتوزيع - الأردن

دار رحمة بالأسكندرية

دار المحمدي للنشر بجدة

مؤسسة الرسالة بدولة الإمارات

المجلس العلمي للنشر بالهند

المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع بالقاهرة

ت : ٤٩٩١٢٥٤ - ٥١٠٨٠٠٤

ت : ٤٩٠٠٦٠٦ - ٤٩٠٠٨٠٨

WWW.ALislamiya 4 book.com

تطلب النسخة المترجمة من

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد

وتوعية الجاليات بشرق جدة

تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية

رقم الإيداع

٤٤٦٤ / ٢٠٠٦

رقم الإيداع الدولي

I. S. B. N

977-6195-00-8

مقدمة الناشر

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد..

فقد منّ الله تعالى علينا بسيرة الرسول محمد ﷺ، لتكون نوراً للمؤمنين، وهداية للمتقين، ورسالة رحمة للعالمين. وقد وصف ربنا سبحانه نبيه ﷺ– رسول الحق– فقال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾.

والرسالة المحمدية ختم الله بها رسالاته، وأرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة.

وإن من خير ما بذلت فيه الأوقات، وشغلت به الساعاتُ دراسةَ السيرة النبوية العطرة، والأيام المحمدية الخالدة، ومكارم الأخلاق العظيمة، فهي تجعل المسلم وكأنه يعيش تلك الأحداث العظام التي مرت بالمسلمين، وربما تخيل أنه واحد من أولئك الكرام البررة الذين قامت على عواتقهم صروح المجد ونخوة البطولة.

وبدراسة خلق النبي محمد ﷺ يستعيد المسلمون ثقتهم بأنفسهم، ويوقنون بأن الله تعالى معهم وناصرهم، إن هم قاموا بحقيقة العبودية له والانقياد لشريعته: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾.

وأساس الاستقامة في حسن الخلق كما قال النبي محمد ﷺ: «إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ».

هذا وقد شرفنا الله عز وجل بنشر هذا الكتاب الذي قام على إعداده نخبة كريمة من العلماء والباحثين وبإشراف فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري الحائز على جائزة العالم الإسلامي في السيرة النبوية .

ونسأل الله تعالى أن يرحم أستاذنا الدكتور محمد إبراهيم عبدالرحمن من الذين شاركوا في إعداد هذه الموسوعة ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقد توفاه الله قبل صدورها ، لعلها في ميزان حسناته بإذن الله.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل من كل من شارك في إعداد هذه الموسوعة، وأن يجزيهم الجزاء الحسن، وأن ينفع بنشرها وبتوزيعها .

و أتوجه بالشكر والتقدير لكل من: شركة كندة للإعلام والنشر بجدة وصاحبها سعادة الدكتور عبدالله بن مرعي بن محفوظ ، وشركة الرواد للإعلام بجدة وصاحبها سعادة الأستاذ أحمد الزهراني ، شكراً وتقديراً لما حظيتا به من خبرة وتشجيع في العمل على النشر والتوزيع والترجمة .

أسأل الله تعالى أن تصل هذه الموسوعة إلى كل بيت ، وأن يستفيد منها كل إنسان على وجه الأرض.

ربي وربكم الله والحمد لله رب العالمين.

الناشر

عبدالباقي الشريف

مقدمة

الحمد لله العليّ الحميد، ذي العرش المجيد، الفعَّال لما يريد، هو الذي يُبدئ ويُعيد، ولا يَفْنَى ولا يَبيد، قهر الخلائق بقدرته فالملوك له عبيد، ووسِع الكل برحمته فمن حق عليه عذابه فهو الشقي الطريد، وعلا عليهم بعزته فلا يدانيه مَلَكٌ مُقرَّب ولا يُعجزه شيطانٌ مَريد، وعرَّفهم الهدى والضلال فمنهم ضالٌّ شقي ومهتدٍ سعيد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي علمنا التوحيد، وأرشدنا إلى القول السديد، وهدانا ـ بإذن ربه ـ إلى صراط العزيز الحميد، صلى الله عليه وعلى أصحابه ومن سار على نهجهم السديد، وأوى إلى ركنهم الشديد، وبعد :

فمن أشرف منازل العلم وأسعد مقامات البيان الكلام عن المرسلين صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، الذين هم أهدى عباد الله سبيلا، وأقوم خلق الله قيلاً، وأعظم الناس نفعًا للناس وبركةً على الدنيا، فهم حياةُ العالم ونورُه ورحمة الله لعباده.

يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في كلمة جامعة وافية صادقة مبينًا اضطرار الناس إلى ما جاء به الأنبياء وبخاصة خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه، يقول: « والدنيا كلها ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أشرقت عليه شمس الرسالة وأسس بنيانه عليها، ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسل موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت بالكلية خرب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة.

وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك، وأشد من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده.

وكان خاتمهم وسيدهم وأكرمهم على ربه محمد بن عبد الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة»(١). وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال - صلوات الله وسلامه عليه -: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»(٢). وهذا المقت كان لعدم هدايتهم بالرسل، فرفع الله عنهم هذا المقت برسول الله ﷺ، فبعثه رحمة للعالمين ومحجة للسالكين، وحجة على الخلائق أجمعين، وافترض على العباد طاعته ومحبته، وتعزيره وتوقيره، والقيام بأداء حقوقه، وسد إليه جميع الطرق، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، وأخذ العهود والمواثيق بالإيمان به واتباعه على جميع الأنبياء والمرسلين، وأمرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين.

أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً، فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة؛ وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها؛ وتألفت بها القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء، وأوضح بها المحجة البيضاء، وشرح له صدره؛ ووضع عنه وزره، ورفع ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، أرسله على حين فترة من الرسل ودروس من الكتب

(١) أخرجه الحاكم (١/٣٥) موصولا، وهو عند الدارمي (١/٩)، وابن سعد في «الطبقات» (١/١٩٢) مرسلا، والحديث صححه الألباني - رحمه الله - كما في «المشكاة» (٣/١٦١٥)، وانظر «الصحيحة» (٤٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

حين حُرِّف الكلم وبُدِّلت الشرائع. واستند كل قوم إلى أظلم آرائهم. وحكموا بين الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، فهدى الله به الخلائق، وأوضح به الطريق، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وبصَّر به من العمى، وأرشد به من الغي، وجعله قسيم الجنة والنار وفرق ما بين الأبرار والفجار، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته»(٣). أهـ

وإن الدنيا اليوم والعالم كله أعظم ما يكون حاجة إلى ما جاء به محمد ﷺ من الهَدْي العظيم والخُلُق القويم والصراط المستقيم الذي يُرَدُّ به الناس إلى المهيع الحق والصراط السَّوِيِّ الذي انحرفوا عنه بدعوات أرضية وأفكار بشرية ومذاهب فلسفية غير معصومة ولا مأمونة، بل إن التجارب تشهد أنها أضرت أكثر مما نفعت وأفسدت أعظم مما أصلحت؛ لأنها اجتهادات بشرية ليس لها نسب إلى أنوار الوحي وبركات التنزيل، تلك التي لا توهب إلا لخاصة خلق الله المُصْطَفَيْن الأخيار، أعني عباده المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وإن أجمع ما يمكن أن يقال هنا: إن التاريخ بأجمعه لم يشهد جسداً آدميًا اجتمعت فيها خصال وأخلاق وسجايا تربو أو تناظر ما تحلَّى به محمد ﷺ من عظيم الخصال وجميل الآداب، ولنقف على عبارات جامعة في وصف أصحابه له الذين دَنَوْا منه وعاينوا أنبل إنسان نفسًا وأعظم بشر خُلُقًا، فتكلموا بإخلاص وصدق بلا تكلف ولا تنميق، وهاك بعضَ ما وصفوا به إمامهم وأسوتَهم كما ورد في الصِّحَاح من دواوين السنة المشرفة:

* **(رحمته)** : قَدِمَ نَاسٌ من الأَعْرابِ عَلَى رسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: أَتُقَبِّلونَ صِبْيَانَكُم؟ فَقَالُوا: نَعَم. فَقَالُوا: لَكِنَّا والله مَا نُقَبِّلُ. فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «وأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ»(٤). [عائشة رضي الله عنها].

(٣) المجموع (١٩/١٠١-١٠٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٧)، وهو عند البخاري (٥٩٩٨) بنحوه.

* وقبَّلَ النَّبيُّ ﷺ الحسنَ بنَ عليٍّ وعنده الأقرعُ بنُ حابس جالسًا، فقال الأقرعُ: إنَّ لي عشرة من الولدِ ما قبَّلتُ منهم أحداً. فنظر إليه النبيُّ ﷺ ثم قال: «مَنْ لا يَرْحمُ لا يُرحَمُ»(٥). [أبو هريرة رضي الله عنه]

* (حلمه): ما ضَربَ رسولُ اللهِ ﷺ خَادِمًا لَهُ، وَلا امْرَأَةً، وَلا ضَرَبَ بيدِهِ شَيْئًا»(٦). [عائشة رضي الله عنها]

* (رفقه): ما خُيِّر رسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ(٩). [عائشة رضي الله عنها]

* خَدَمْتُ رسُولَ الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، واللهِ مَا قَالَ لي لشيءٍ صنعتُه لِمَ صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيءٍ لم أصنعه لِمَ لم تصنع هذا هكذا(١٠).

[أنس رضي الله عنه]

* (لينه): كَانُوا يَتَحدثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَضْحَكُونَ ويَتَبَسَّم ﷺ(١١). [جابر بن سمرة رضي الله عنهما]

* (حياؤه): كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ في وَجْهِهِ(١٢). [أبو سعيد الخدري رضي الله عنه]

* (تواضعه): جَاءَتِ امْرَأَةٌ كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رسُولَ الله، إنَّ لي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلان! انْظُري أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ». فَخَلا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا(١٣).

(٥) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).
(٦) أخرجه أبو داود (٤٧٨٦)، وابن ماجه (١٩٨٤).
(٧) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٨) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).
(١٠) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).
(١١) أخرجه مسلم (٢٣٢٢).
(١٢) أخرجه البخاري (٦١١٩)، ومسلم (٢٣٢٠).
(١٣) أخرجه مسلم (٢٣٢٦).

* **(شجاعته)** : كان رسول الله ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وكَانَ أجْودَ النَّاسِ، وكان أشْجَعَ النَّاسِ، ولَقَدْ فزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبلَ الصَّوْتِ، فتلقَّاهُمْ رسُولُ اللهِ ﷺ رَاجِعًا، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إلى الصَّوْتِ، وهُوَ عَلَى فَرَسٍ لأَبِي طَلْحَةَ فِي عُنُقِه السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تُرَاعُوا، لم تراعوا»(١٤). [أنس رضي الله عنه]

* كنَّا واللهِ إذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي به ﷺ(١٥). [البراء بن عازب رضي الله عنه]

(جوده) : أن رجلاً سأل النَّبيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ! أَسْلِمُوا، فَوَاللهِ! إِنَّ مُحَمَّداً لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ(١٦).

[أنس رضي الله عنه]

ما سُئِلَ رسُول اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: «لا»(١٧). [جابر بن عبد الله رضي الله عنهما]

* **(صبره)** : أَلَسْتُم في طَعَامٍ وَشَرَابٍ مَا شِئْتُمْ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ - التمر الرديء - مَا يَمْلأُ به بَطْنَهُ(١٨). [النعمان بن بشير رضي الله عنهما]

* إِنْ كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَنَمْكُثُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْقِدُ بِنَارٍ، إِنْ هُو إلا التَّمْرُ والمَاءُ(١٩).

* **(مهابته)** : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ المَهَابَةُ(٢٠).

[زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وعنها]

(١٤) أخرجه البخاري (٣٠٤٠)، ومسلم (٢٣٠٧).
(١٥) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) واللفظ له.
(١٦) أخرجه مسلم (٢٣١٢).
(١٧) أخرجه مسلم (٢٣١١).
(١٨) أخرجه مسلم (٢٩٧٧).
(١٩) أخرجه البخاري (٦٤٥٨)، ومسلم (٢٩٧٢).
(٢٠) أخرجه البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠).

* (مكانته) : والله! لَقَدْ وَفَدتُ عَلَى الملوك، ووَفَدتُ عَلَى قَيصَرَ وكِسْرَى والنَّجاشيِّ، والله إنْ رَأيْتُ مَلكًا قَطُّ يُعظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ محمَّدًا، والله إنْ تَنخَّمَ نُخَامَةً إلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَروا أَمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضوئِه، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْواتَهُم عِنْدَهُ، ومَا يُحِدُّون إِلَيْه النَّظَر تعظيمًا له(٢١).

[عروة بن مسعود رضي الله عنه]

* (نعته) : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَزْهَرَ اللَّون، كَأنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ، إذا مَشَى تَكَفَّأ، وَلا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً ولا حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ الله ﷺ، وَلا شَمِمْتُ مِسْكَةً ولا عَنْبَرَةً أَطْيَبَ مِنْ رائحة رَسُولِ الله ﷺ(٢٢). [أنس رضي الله عنه]

- ويقول العالم الهندي المسلم شبلي النعماني - رحمه الله - في بيان حاجة الإنسانية جمعاء إلى إنسان تجتمع فيه خصال الخير كلها:

«كانت الإنسانية منتظرة للإنسان الكامل(٢٣) الذي ليس بملك فقط أو قائد فقط بل زاهد مُتَّقٍ أيضًا في الوقت نفسه، وزعيم عام وموجود متواضع مطيع لخالقه مشفق على الخلق كريم قنوع فقير، فهذا الإنسان الكامل الجامع لكل موجودية إنسانية ذروةُ البشرية العليا وأكبر موفقياتها.

وكما أن كل شيء في الدنيا فانٍ، فهذا الإنسان الكامل أيضًا ليس بخالدٍ من حيث المادية، فلهذا يجب أن يسجل ما قاله، وأن يُنْقَل من سلف إلى خلف، وأن يثبت كل ناحية من سجاياه، ويُضْبَط كل عمل من أعماله، ويروى بكل صدق وإخلاص، وأن تُصَوَّر كل حالة من حالاته ومواقفه؛ لأن كل واحد من ذلك منبع

(٢١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢٢) أخرجه مسلم (٢٣٣٠).

(٢٣) الأوفق أن يقال: المعصوم؛ لأن الكمال لله، والعصمة لرسوله ﷺ كما هو إطلاق الكتاب والسنة والسلف الصالح، ولعله هنا أراد الكمال النِّسبي، أي: بالنسبة إلى ما يجب أن يكون عليه الإنسان، ومع ذلك فالسلف وصفوه ﷺ.

نور لإرشاد البشر في كل زمان وذخر هداية لإدارة الناس في كل وادٍ من أودية الحياة»(٢٤). أهـ

وما هذا الإنسان المستوفي خصال الخير البشرية إلا محمد رسول الله ﷺ، ولما كانت حاجة الإنسانية جمعاء إلى هذا الإنسان الجامع لخصال الخير على القدر الذي تَبَيَّنَ، فإننا نَزُفُّ إلى العالم كله ـ مسلمين وغير مسلمين ـ أخلاق هذا النبي الكريم التي ضمناها كتابنا هذا الذي سَمَّيْناه:

وإنك لعلى خلق عظيم

الرسول محمد ﷺ

وقد رجونا أن تكون هذه الموسوعة الشاملة في أخلاق نبي الإسلام محمد ﷺ مصدر إشعاع لجميع البشر في كل مكان في هذا الزمان الذي طغت عليه المادة وساد فيه الطمع، وعمَّ فيه الظلم والفساد.

وأردنا أن يكون كتابنا هذا جامعًا في بابه، وافيًا بمقصوده، متوسط الحجم بالنسبة لموضوعه، ليسهل اقتناؤه والانتفاع به، عسى أن يأخذ بيد قارئه إلى جنة الدنيا التي من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقد عهدنا بهذا العمل الشريف إلى زمرة مباركة من العلماء الفضلاء والأساتذة النجباء والآتي ذكرهم، وسنبين عقب هذه الديباجة يحتوى هذا العمل وأقسامه تفصيلا ومن شارك فيه من العلماء والباحثين، ولما كان العمل أعم من أن يخاطب به المسلمون وحدهم فقد هدفنا من بدء العمل أن نصدر الكتاب بعدة لغات ليعم النفع به، وسيكون هذا قريبًا إن شاء الله وشاملا لمعظم اللغات الحية. ولئن كان رسول الله ﷺ ودين الله غنيًّا عن عملنا هذا فإن الدنيا كلها والعالم بأسره لأَشَدُّ ما يكون حاجة إلى ما في هذا الكتاب.

(٢٤) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» (ص٥٦).

فهـذه الرسـالة – بين أيدينا – تعـرّف بالإسلام مـن خلال شخصيـة النبي محمد ﷺ .

وهي مقسمة إلى ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول بعنوان :

(السيرة النبوية والبشارة بمحمد ﷺ)

وقد تناولنا فيها مختصر السيرة النبوية من خلال كتابنا « مختصر الرحيق المختوم » وهو من تأليفنا واختصارنا .

ثم تناولنا جانبًا من البشارات بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل وفي كتب الأولين – الرسول الخاتم – وقدمنا فيها رسالتنا بعنوان « البشارة المحمدية في الديانة الهندوسية » . .

الجزء الثاني بعنوان :

(ما أنا عليه وأصحابي)

تناولنا فيه بحثين جليلين ؛ الأول بعنوان : « مكارم الأخلاق في الإسلام »، قدمنا فيه الصفات العظيمة التي تحلى بها النبي محمد ﷺ وأصحابه، وشارك في هذا البحث الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم عبدالرحمن ، والبحث الآخر كان لفضيلة الشيخ الداعية عبد اللطيف بن هاجس الغامدي بعنوان « كف الأذى »، ويتناول أكثر من ٤٠٠ أذى يجب كفها عن الناس، وقد أوصى بكفها الرسول محمد ﷺ .

والجزء الثالث بعنوان :

(الدين الحق بالأدلة القاطعة)

وتناول عدة أبحاث أولها لفضيلة الشيخ مصطفى بن العدوي ، بعنوان « الرسول محمد ﷺ إمام المتقين وأثر سنته في فهم القرآن الكريم » .

والبحث الثاني بعنوان «العلماء يشهدون»، والثالث بعنوان «ما فرطنا في الكتاب من شيء» وهما للباحث في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة؛ مجدي عبدالباقي شريف.

والبحث الرابع للأستاذ فؤاد عبدالمنعم بعنوان «الإسلام والغرب» والذي تناول الغرب في ثلاثة صور؛ الذين افتروا، والذين أنصفوا، والذين أسلموا.

وأخيراً ختمنا كتابنا ببيان منهاج النبوة في الدعوة إلى الله لفضيلة الشيخ مهدي بن إبراهيم المبجر.

نسأل الله أن ينفعنا بها، وينفع إخواننا من المسلمين، وينفع دعوة الناس إلى الحق المبين، وأن يتقبل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

صفي الرحمن المباركفوري



الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول

الفصل الأول
سيرة النبي
محمد صلى الله عليه وسلم

العالم قبل الإسلام

في القرن السادس الميلادي كانت الدنيا غارقة في ظلمات من الجهل والضلال والبوار، وكان للعرب قبل الإسلام الحظ الأوفر والنصيب الأوفى من تلك الجاهلية؛ فمن الناحية الدينية كان عامتهم مشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ من دُون اللَّه مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عندَ اللَّه﴾ [يونس: ١٨] ﴿وَاتَّخَذُوا من دُونه آلهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] بل تمادوا في هذا الغيّ إلى أنهم كانوا يعبدون الحجر، فإذا وجدوا حجراً هو خير منه ألقوا ذلك الحجر، وأخذوا الآخر، فإذا لم يجدوا حجراً جمعوا حثوة من تراب، ثم جاءوا بالشاة فحلبوها عليه، ثم طافوا به(١).

وكانوا بجانب ذلك يحملون أنواعًا من الأوهام والخرافات، من ذلك أنهم كانوا يستقسمون بالأزلام، والزلم: القدح الذي لا ريش له، فكانوا يختارون من الأقداح ثلاثة أسهم، يكتبون على واحد منها (نعم) وعلى الثاني (لا) ويتركون الثالث غفلا، فإذا أرادوا عملاً من نحو السفر والنكاح وأمثالهما استقسموا بها، فإن خرج (نعم) عملوا به، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، وإن طلع غفل أعادوا الضرب حتى يخرج واحد من الأولين، وكانت لهم أزلام فيها المياه والعقول والديات والأنساب وغير ذلك.

وكانت للكهنة والعرافين والمنجمين فيهم جولة وصولة، فقد كانوا يتحاكمون إليهم في أمور دينهم، وفي كثير من أمور دنياهم، ويستسلمون لهم أيّما استسلام، وقد كان هؤلاء الكهنة والعرافون والمنجمون يتعاطون الأخبار عن

(١) روى ذلك البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي، انظر الحديث رقم (٤٣٧٧).

الكوائن في المستقبل، ويدّعون معرفة الأسرار، ومنهم من يزعم أن له تابعًا من الجنّ يلقي إليه الأخبار، والمنجم كان يدّعي معرفة حوادث المستقبل بحساب سير النجوم.

وكانت فيهم الطِّيَرَة - بكسر ففتح - وهي التشاؤم بالشيء، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا، وعدوه حسنًا، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك، وتشاءموا، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم.

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور، والحيوانات، والدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، وهي أنهم كانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة، أي بومة تطير في الفلوات، وتقول: صدى صدى، أو اسقوني اسقوني. فإذا أخذ بثأره سكن واستراح.

كانت العرب بجانب هذه الأوهام والخرافات قائمين ببعض ما ورثوه من دين أبيهم إبراهيم عليه السلام؛ مثل تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة وإهداء البدن، ولكنهم كانوا قد أحدثوا في ذلك بدعًا، وخلطوه بأنواع من الخرافات.

وكان لليهودية والنصرانية أيضًا دور في سكان جزيرة العرب، فقد وجدت من اليهود عدة قبائل في المدينة المنورة، وخيبر، وتيماء، ووادي القرى، وفدك وغيرها، وقد دانت طائفة من أهل اليمن باليهودية؛ وهم الذين حرقوا نصارى نجران في الأخدود إذ لم يعتنقوا ديانتهم.

أما النصرانية فكان لها أهل وأتباع في نجران، وكانوا يتألفون من مائة ألف مقاتل كلهم على هذا الدين، وقد انتشرت النصرانية في عامة مناطق اليمن أيضًا

بواسطة الأحباش، وكانت العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيئ وغيرهما من العرب المجاورين للرومان أيضًا اعتنقوا النصرانية واختاروها دينًا لهم.

وكانت هذه هي أكبر ديانات العرب قبل الإسلام، ووجد شيء من المجوسية والصابئة أيضًا، وقد أصاب هذه الديانات الانحلالُ والبوار، فالمشركون الذين كانوا يدّعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر شريعة إبراهيم ونواهيها، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق، وكثرت فيهم المعاصي، ونشأ فيهم على توالي الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليد تجري مجرى الخرافات الدينية، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيراً بالغًا جداً.

أما اليهودية فقد انقلبت رياء وتحكّمًا، وصار رؤساؤها أربابًا من دون الله، يتحكمون في الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همّهم الحظوة بالمال والرياسة، وإن ضاع الدين، وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التي حض الله عليها، وأمر كل فرد بتقديسها.

وأما النصرانية فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي، لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها.

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.

أما من الناحية السياسة فقد كانت اليمن تحت احتلال الأحباش ثم الفرس، وكانت الحيرة وما حولها من شرق العرب تابعة للفرس منذ أمد بعيد، وأما مشارف الشام وما يجاورها فكان يحكمها آل غسان، وكانوا تابعين للرومان، وأما بقية العرب فكانت مقسمة بين القبائل، وكان يحكم كل قبيلة فيها رئيس مستقل، له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لأي دكتاتور قومي، حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله فيما غضب.

أما أحوال هذه المناطق وسكانها فالأقطار الثلاثة التي كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية في تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه. فقد كان الناس بين سادة وعبيد، أو حكام ومحكومين، فالسادة ـ ولا سيما الأجانب ـ كان لهم كل الغنم، والعبيد عليهم كل الغرم، وبعبارة أوضح أن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات، والحكومات كانت تستخدمها في ملذاتها وشهواتها، ورغائبها وجورها وعدوانها؛ أما الناس فكانوا في عمايتهم يتخبطون، والظلم ينحط عليهم من كل جانب، وما في استطاعتهم التذمر والشكوى، بل كانوا يسامون الخسف والجور والعذاب ألوانًا صامتين، فقد كان الحكم استبداديًّا، والحقوق ضائعة مُهْدَرةً.

وأما القبائل المجاورة لهذه الأقطار فكانوا مذبذبين تتقاذفهم الأهواء والأغراض، مرة يدخلون في أهل العراق، ومرة يدخلون في أهل الشام.

وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم:

وما أنا إلا من غزية إن غـوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم، أو مرجع يرجعون إليه، ويعتمدون عليه وقت الشدائد.

وأما من الناحية الاجتماعية؛ فبينما كانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم كانت في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين المرأة والرجل لا نستطيع أن نعبر عنها إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة، روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها:

أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء؛ فنكاحٌ منها نكاحُ الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان

الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه. ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح [يسمى] نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرت ليالي بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان. فتسمي من أحبت منهم باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل، ونكاح [رابع]: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطه به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالحق هدم نكاح [أهل] الجاهلية كله إلا نكاح [أهل الإسلام] اليوم(١).

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب في حروب القبائل يسبي نساء المقهور فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم.

وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط، لانستطيع أن نخص منها وسطًا دون وسط، أو صنفًا دون صنف، إلا أفراداً من الرجال والنساء ممن كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقوع في هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالاً من الإماء، والطامة الكبرى هي الإماء، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن

(١) صحيح البخاري ح٥١٢٧، وسنن أبي داود: كتاب النكاح، باب وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية. وما بين المعقوفين من سنن أبي داود.

تحس بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل، فقال: يا رسول الله إن فلانًا ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: «**لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش وللعاهر الحجر**»(١).

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى؛ فمنهم من يقول:

إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الأنعام:١٥١]، ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [النحل:٥٨ - ٥٩]، ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:٣١]، ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ**﴾ [التكوير:٨-٩].

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيراً ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعبس وذبيان، وبكر وتغلب وغيرها.

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تمامًا. وكانت قواهم متفانية في الحروب، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين

(١) أبو داود: باب الولد للفراش. ومسند أحمد ٢/٢٠٧.

الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها، وأحيانًا كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعونًا لهم على حياتهم وحصول معايشهم.

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية، فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصولة، والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانا، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجُل همتها ملء الخزائن من رعيتها أو جر الحروب على مناوئيها.

أما الحالة الاقتصادية، فتبعت الحالة الاجتماعية، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معايش العرب؛ فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذاك مفقوداً في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذي المجاز ومجنة وغيرها.

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام، نعم كان في داخل الجزيرة شيء من الزراعة والحرث واقتناء الأنعام وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب، وكان الفقر والجوع والعري عامًّا في المجتمع.

هذا، وكانوا يتمتعون بجنب كل ما مضى ببعض الأخلاق الفاضلة التي يقل وجودها في البشر مثل الجود والكرم، والوفاء بالعهد، وعزة النفس والمضي في العزائم، والإباء عن قبول الخسف والضيم، والحلم والأناة والتؤدة والصدق والأمانة، والبعد عن لوثات الحضارة ومكائد الحاضرين من الخداع والكذب والغدر إلا أنهم لم يكونوا يعرفون سبلاً عزيزة يصرفون هذه الأخلاق فيها.

والحاصل أنهم كانوا يعبدون الأصنام، غارقين في الأوهام، متمسكين بالخرافات، يرزحون تحت نير الظلم والعدوان، متحاربين متناحرين، متبعثرين متفانين يأكلون الميتة ويشربون الخمور، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويسيئون الجوار، ويأكل منهم القوي الضعيف، وتعمهم التعاسة والبوار، ولا يدرون طريق السعادة والفلاح مع تمتعهم ببعض الأخلاق الفاضلة، فكانوا في أقصى حاجة إلى من يأخذ بأيديهم إلى هذا السبيل، فبعث الله محمداً ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاوة إلى السعادة، فقام بذلك حتى قوّم خط التأريخ وغير مجرى الحياة، وليست الصفحات القادمة إلا صورة مصغرة جداً مما بذل من الجهود وما لاقى من العناء، وما حصل عليه من النتائج المحمودة المشرفة.

وما توفيقي إلا بالله وهو حسبي ونعم الوكيل.

* * *

نسب النبي ﷺ وأسرته

نسب النبي ﷺ :

هو أفضل خلق الله وأكرمهم عليه فهو من نسل نبي الله إسماعيل بن نبي الله إبراهيم فهو ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وعدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بالاتفاق، ولكن لم يعرف بالضبط عدد مَن بين عدنان وإسماعيل عليه السلام ولا أسماؤهم.

وفهر بن مالك ـ وقيل: النضر بن كنانة ـ هو الملقب بقريش: ونسبة إليه تعرف ذريته بقبيلة قريش، وهي قبيلة مشهود لها بالشرف، ورفعة الشأن، والمجد الأصيل، وقداسة المكان بين سائر العرب.

وكانت هذه القبيلة متفرقة في أطراف مكة حتى جاء قصي بن كلاب، فتولى الكعبة، وجمع قريشًا فأسكنها في مكة، ومعنى تولى الكعبة أنه كانت إليه حجابتها وسدانتها، فكان بيده مفتاح الكعبة يفتحها لمن شاء، ومتى شاء، وقد أنشأ قصي أيضًا السقاية والرفادة؛ والسقاية: ماء عذب من نبيذ التمر أو العسل أو الزبيب ونحوه، كان يعده في حياض من الأديم يشربه الحجاج، والرفادة: طعام كان يصنع لهم في الموسم. وقد بنى قصي بشمالي الكعبة بيتًا عرف بدار الندوة، وهي دار شورى قريش، ومركز تحركاتهم الاجتماعية، فكان لا يعقد ولا يتم أمر إلا في هذه الدار، وكان بيده اللواء والقيادة فلا تعقد راية حرب إلا بيده. وكان كريمًا وافر العقل، صاحب كلمة نافذة في قومه.

الأسرة النبوية:

١ ـ هاشم ـ تعرف أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية؛ نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف، وكان هاشم هو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف بن قصي، وكان موسرا ذا شرف كبير، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وكان اسمه عمراً فما سمي هاشماً إلا لهشمه الخبز، وهو أول من سن الرحلتين لقريش؛ رحلة الشتاء والصيف، وفيه يقول الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف(١)

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجراً، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وأقام عندها، ثم خرج إلى الشام ـ وهي عند أهلها حملت بعبد المطلب ـ فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧م، وسمته شيبة؛ لشيبة كانت في رأسه(٢) وجعلت تربيه في بيت أبيها في يثرب، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة.

٢ ـ عبد المطلب ـ ولما صار شيبة ـ عبد المطلب ـ وصيفاً أو فوق ذلك ابن سبع سنين أو ثمان سنين سمع به المطلب فرحل في طلبه، فلما رآه فاضت عيناه، وضمه، وأردفه على راحلته، فامتنع حتى تأذن له أمه، فسألها المطلب أن ترسله معه، فامتنعت فقال: إنما يمضى إلى ملك أبيه، وإلى حرم الله. فأذنت له، فقدم به مكة مردفه على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب. فقال: ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم. فأقام عنده حتى ترعرع، ثم إن المطلب هلك بردان من أرض اليمن، وكان هو الوارث لمناصب هاشم، فولى بعده عبد المطلب، فأقام لقومه ما كان آباؤه

(١) ابن هشام ١/١٥٧ مع الروض الأنف، وفيه الإيلاف يدل الأصياف.

(٢) ابن هشام ١/١٣٧.

يقيمون، وشرف في قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم(٣).

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان؛ حفر بئر زمزم، ووقعة الفيل، و**خلاصة الأول** أنه أمر في المنام بحفر زمزم، ووصف له موضعها، فقام يحفر، فوجد فيه الأشياء التي دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء، أي السيوف والدروع والغزالين من الذهب، فضرب الأسياف بابًا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين صفائح من ذهب، وأقام سقاية زمزم للحجاج.

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريشٌ عبدَ المطلب، وقالوا له: أشركنا. قال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خصصت به، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بني سعد هذيم، وكانت بأشراف الشام، فلما كانوا في الطريق، ونفد الماء سقى الله عبد المطلب مطراً، ولم ينزل عليهم قطرة، فعرفوا تخصيص عبد المطلب بزمزم ورجعوا، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة(٤).

وخلاصة الثاني أن أبرهة بن الصباح الحبشي، النائب العام عن النجاشي على اليمن، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، وسمع بذلك رجل من بني كنانة؛ فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعذرة، ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش عرمرم - عدده ستون ألف جندي - إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه فيلا من أكبر الفيلة، وكان في الجيش تسعة فيلة أو ثلاثة عشر فيلا، وواصل سيره حتى بلغ المغمس، وهناك عبأ جيشه، وهيأ فيله، وتهيأ لدخول مكة، فلما كان في وادي محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى

(١) ابن هشام ١/١٣٧، ١٣٨ وتعيين السنين من تاريخ الطبري ٢/٢٤٧.
(٢) ابن هشام ١/١٤٢-١٤٧.

الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبينا هم كذلك، إذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص لا تصيب منهم أحداً إلا صارت تتقطع أعضاؤه وهلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض، فتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل منهل، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره على قلبه ثم هلك.

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب، وتحرزوا في رءوس الجبال، خوفًا على أنفسهم من معرة الجيش، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين(١).

وكانت هذه الوقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يومًا أو بخمسة وخمسين يوماً ـ عند الأكثر ـ وهو يطابق أواخر أو أوائل مارس سنة ٥٧١م، وكانت تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته؛ لأنا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله استولوا على هذه القبلة مرتين في حين كان أهلها مسلمين، كما وقع لبختنصر سنة ٥٨٧ق. م، والرومان سنة ٧٠م، ولكن لم يتم استيلاء نصارى الحبشة على الكعبة، وهم المسلمون إذ ذاك، وأهل الكعبة كانوا مشركين وهذا يعني أن الله اصطفى هذا البيت للتقديس. ولا يأتي هذا التقديس إلا بقيام نبي من أهله.

٣ ـ عبد الله والد رسول الله ﷺ أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، فقيل: إنه أقرع بينهم أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد

(١) ابن هشام ١/٤٣ إلى ٥٦ وتفسير سورة الفيل من كتب التفاسير.

الله، وكان أحب الناس إليه، اللهم هو أو مائة من الإبل. ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل(١). وقيل: إنه كتب أسماءهم في القداح، وأعطاها قيم هبل، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب، وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش، ولا سيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبو طالب، فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل حتى يرضى ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها. فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل، فوقعت القرعة على عبد الله، فلم يزل يزيد من الإبل عشراً عشراً ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت مائة فوقعت عليها، فنحرت ثم تركت، لا يرد عنها إنسان ولا سبع، وكانت الدية في قريش وفي العرب عشراً من الإبل، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أنا ابن الذبيحين**». يعني إسماعيل، وأباه عبد الله(٢).

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، وأبوها سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فزوجه بها، فبنى بها عبد الله في مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمراً، فمات بها، وقيل: بل خرج تاجراً إلى الشام، فأقبل في عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها، ودفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين. وقيل: بل توفي بعد مولده بشهرين أو أكثر(٣). ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي، قالت:

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٣٩.

(٢) ابن هشام ١/ ١٥١ إلى ١٥٥، تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٠-٢٤٣.

(٣) ابن هشام ١/ ١٥٦، ١٥٨، تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٦ والروض الأنف ١/ ١٨٤.

عفا جانب البطحاء مني ابن هاشم ... وجاور لحداً خارجًا في الغماغم

دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما تركت في الناس مثل ابن هاشم

عشية راحوا يحملون سريره ... تعاوره أصحابه في التزاحم

فإن تَكُ غالته المنايا وريبها ... فقد كان معطاء كثير التراحمُ(١)

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن، وهي حاضنة رسول الله ﷺ(٢).

* * *

(١) طبقات ابن سعد ١/١٠٠.

(٢) صحيح مسلم ح١٧٧١ (٣/١٣٩٢)، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤.

المولد وأربعون عاماً قبل النبوة

المولد:

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل[١]، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان ويوافق ذلك العشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري رحمه الله[٢].

وروي ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام. وروى أحمد والدارمي وغيرهما قريبًا من ذلك[٣].

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له[٤]، واختار له اسم محمد ـ وهذا الاسم لم يكن معروفًا في العرب ـ وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون[٥].

وأول من أرضعته من المراضع ـ وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع[٦] ـ ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي[٧].

---

(١) انظر نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام ص٢٨ – ٣٥ لمحمود باشا الفلكي ط: بيروت.

(٢) ٢٠ إبريل حسب التقويم الميلادي القديم و٢٢ أبريل حسب التقويم الجديد، وللتفصيل انظر: رحمة للعالمين ١/٣٨، ٣٩، ٢/٣٦٠، ٣٦١.

(٣) مسند أحمد ٤/١٢٧، ١٢٨، ١٨٥، ٥/٢٦٢، سنن الدارمي ١/٩، وابن سعد ١/١٠٢.

(٤) ابن هشام ١/١٥٩، ١٦٠، تاريخ الطبري ٢/١٥٦، ١٥٧، وابن سعد ١/١٠٣.

(٥) يقال: إنه ولد مختونًا، (تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤) وقال ابن القيم: ليس فيه حديث ثابت. (انظر زاد المعاد ١/١٨).

(٦) إتحاف الورى ١/٥٧.

(٧) صحيح البخاري ح٢٦٤٥، ٥١٠٠، ٥١٠١، ٥١٠٦، ٥١٠٧، ٥٣٧٢، وتاريخ الطبري ٢/١٥٨ وفي سنده مقال، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/١٥٧.

في بني سعد :

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعاداً لهم عن أمراض الحواضر، لتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر - وهي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث - وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة، من نفس القبيلة.

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة عبد الله بن الحارث، وأنسية بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث وهي الشيماء - لقب غلب على اسمها - وكانت تحضن رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ.

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعاً في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليمة، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من وجهين؛ من جهة ثويبة ومن جهة السعدية(١).

ورأت حليمة من بركته ﷺ ما قضت منه العجب، وملخص ما روي في ذلك:

أن حليمة لما جاءت إلى مكة كانت الأيام أيام جدب وقحط، وكانت معها أتان كانت أبطأ دابة في الركب مشيا، لأجل الضعف والهزال، وكانت معها ناقة لا تدر بقطرة من لبن، وكان لها ولد صغير يبكي ويصرخ طول الليل لأجل الجوع، لا ينام ولا يترك أبويه ينامان.

فلما جاءت حليمة بالنبي ﷺ إلى رحلها، ووضعته في حجرها أقبل عليه ثدياها بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه ابنها الصغيرحتى روي، ثم ناما.

(١) زاد المعاد ١/ ٩١.

وقام زوجها إلى الناقة فوجدها حافلا باللبن، فحلب منها ما انتهيا بشربه ريًّا وشبعًا، ثم باتا بخير ليلة.

ولما خرجا راجعين إلى بادية بني سعد ركبت حليمة تلك الأتان، وحملت معها النبي ﷺ فأسرعت الأتان، حتى قطعت بالركب، ولم يستطع لحوقها شيء من الحمر.

ولما قدما في ديارهما ـ ديار بني سعد وكانت أجدب أرض الله ـ كانت غنمهما تروح عليهما شباعا ممتلئة الخواصر بالعلف، وممتلئة الضروع باللبن، فكانا يحلبان ويشربان، وما يحلب إنسان قطرة لبن.

فلم يزالا يعرفان من الله الزيادة والخير حتى اكتملت مدة الرضاعة، ومضت سنتان ففطمته حليمة، وقد اشتد وقوي في هذه الفترة.

وكانت حليمة تأتي بالنبي ﷺ إلى أمه وأسرته كل ستة أشهر، ثم ترجع به إلى باديتها في بنى سعد، فلما اكتملت مدة الرضاعة وفطمته جاءت به إلى أمه. قالت حليمة: ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة. قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا(١).

شق الصدر:

وهكذا رجع رسول الله ﷺ إلى بني سعد، حتى إذا كان بعده بأشهر على قول ابن إسحاق(٢) وفي السنة الرابعة من مولده على قول المحققين(٣) وقع حادث شق

(١) ابن هشام ١/١٦٢ـ١٦٤، تاريخ الطبري ٢/١٥٨، ١٥٩، ابن حبان (الإحسان) ٨/٨٢ـ٨٤ وابن سعد ١/١١١ كلهم من طريق ابن إسحاق مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٦٤، ١٦٥، تاريخ الطبري ٢/١٦٠.

(٣) انظر ابن سعد ١/١١٢ ومروج الذهب للمسعودي ٢/٢٨١، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/١٦١، ١٦٢، وعنده على قول ابن عباس كان في السنة الخامسة ١/١٦٢ وقول ابن إسحاق شبه متناقض لأن رعي الغنم لا يتصور من صبي لم يكمل من عمره إلا سنتين. ولا يزال في بداية الثالثة.

صدره، روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه - أي جمعه وضم بعضه إلى بعض - ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظِئْرَه(١) - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون - أي متغير اللون - قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره(٢).

إلى أمه الحنون:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة حتى ردته إلى أمه، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين.

ورأت آمنة أن تزور قبر زوجها بيثرب، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ نحو خمسمائة كيلو مترٍ ومعها ولدها اليتيم - محمد ﷺ - وخادمتها أم أيمن، وقيمها عبد المطلب، فمكثت شهراً ثم قفلت، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض في أوائل الطريق، ثم اشتد حتى ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة(٣).

إلى جده العطوف:

وعاد به عبد المطلب إلى مكة، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم الذي أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة، بل يؤثره على أولاده، قال ابن هشام: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان

---

(١) الظئر هي المرضعة، وربما يطلق على زوجها أيضاً.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء ١/١٤٧ ح٢٦١.

(٣) لينظر: ابن هشام ١/١٦٨ وتلقيح الفهوم ص٧.

رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأنًا، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع(١).

ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفي جده عبد المطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه(٢).

إلى عمه الشفيق:

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده، وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله، وستأتي نبذ من ذلك في مواضعها.

يُستَسْقَى الغمام بوجهه:

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب! أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام، كأنه شمس دجن، تجلت عنه سحابة قتماء، حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبعه الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل(٣)

---

(١) ابن هشام ١/١٦٨.

(٢) ابن هشام ١/١٦٩ وتلقيح الفهوم ص٧.

(٣) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١٥، ١٦، وأورد الهيثمي في مجمع الزوائد عن الطبراني مثل هذه القصة في كتاب علامات النبوة ٨/٢٢٢.

بحيرا الراهب :

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة - قيل وشهرين وعشرة أيام(١) - ارتحل به أبو طالب تاجراً إلى الشام، حتى وصل إلى بصري - وهي معدودة من الشام، وقصبة لحوران، وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان - وكان في هذا البلد راهب عرف ببحيرا، واسمه - فيما يقال - جرجيس فلما نزل الركب خرج إليهم، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك، فجعل يتخلّلهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أبو طالب وأشياخ قريش: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا. ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب أن يرده. ولا يقدم به إلى الشام؛ خوفاً عليه من الروم واليهود، فبعثه مع بعض غلمانه إلى مكة(٢).

حرب الفجار :

وفي السنة العشرين من عمره ﷺ وقعت في سوق عكاظ حرب بين قريش ومعهم كنانة، وبين قيس عيلان، تعرف بحرب الفجار(٣)، وسببها أن أحد

---

(١) قاله ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧.

(٢) ينظر جامع الترمذي ٥/ ٥٥٠، ٥٥١ ح٣٦٢٠ وتاريخ الطبري ٢/ ٢٧٨، ٢٨٩، والمصنف لابن أبي شيبة ١١/ ٤٨٩ ح١١٧٨٢، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٤، ٢٥، ولأبي نعيم ١/ ١٧٠ وإسناده ثابت قوي، ووقع في آخره أن أبا بكر بعث معه ﷺ بلالاً. وهو من الغلط الواضح، فإن بلالاً إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً، وإن كان موجوداً فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر. قاله ابن القيم في زاد المعاد ١/ ١٧، وقد روي في القصة تفاصيل أخرى: رواها ابن سعد في الطبقات (١/ ١٢٠) بأسانيد واهية، وذكرها ابن إسحاق بدون إسناد، حكاها عنه ابن هشام ١/ ١٨٠-١٨٣، والطبري ٢/ ٢٧٧، والبيهقي وأبو نعيم.

(٣) والفجارات (بكسر الفاء) بين هذين الفريقين أربعة، الثلاثة الأول منها كان فيها خصام واشتجار طفيف ثم اصطلحوا بدون قتال، فالأول سببه مماطلة دين كان لقيسي على كناني، والثاني سببه =

بني كنانة واسمه البراض، اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب ابن أمية لمكانته فيهم سنًا وشرفًا، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس، ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد. فاصطلحوا على ذلك، ووضعوا الحرب، وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر. وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان ينبل على عمومته، أي يجهز لهم النبل للرمي(١).

حلف الفضول:

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام، تداعت إليه قبائل من قريش؛ بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة ابن كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي، لسنه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُرَدَّ عليه مَظْلِمَتُه، وشهد هذا الحلفَ رسولُ الله ﷺ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت.

= تفاخر كناني في سوق عكاظ، والثالث سببه تعرض فتيان مكة لامرأة جميلة من قيس، أما الرابع فهو فجار البراض الذي ذكرناه في الكتاب، ولينظر للتفصيل «المنمق في أخبار قريش» ص١٦٠-١٦٤ والكامل لابن الأثير ١/٤٦٧، وهو جعل الثلاثة الأول واحدًا.

(١) ابن هشام ١/١٨٤-١٨٧، والمنمق في أخبار قريش ص١٦٤-١٨٥ والكامل لابن الأثير ١/٤٦٨-٤٧٢، قالوا: كانت في شوال، ولا يصح، لأن شهر شوال ليس بالشهر الحرام. وعكاظ خارج عن الحرم، فما هي الحرمة التي انتهكت؟ على أن سوق عكاظ كان يقام من بداية ذي القعدة.

وهذا الحلف روحه تنافي الحمية التي كانت العصبية تثيرها، ويقال في سبب هذا الحلف: إن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزومًا وجمحًا وسهمًا وعديًا فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، ونادى بأشعار يصف فيها ظُلامته، رافعًا صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول فعقدوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي(١).

حياة الكدح:

ولم يكن له ﷺ عمل معين في أول شبابه إلا أن الروايات توالت أنه كان يرعى غنمًا، رعاها في بني سعد(٢)، وفي مكة لأهلها على قراريط(٣)، ويبدو أنه انتقل إلى عمل التجارة حين شب، فقد ورد أنه كان يتجر مع السائب بن أبي السائب المخزومي فكان خير شريك له لا يداري ولا يماري، وجاءه يوم الفتح فرحب به وقال: مرحبًا بأخي وشريكي(٤).

وفي الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجرًا إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها، قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة.

---

(١) طبقات ابن سعد ١/١٢٦-١٢٨ نسب قريش للزبيري ص٢٩١.

(٢) ابن هشام ١/١٦٦.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الإجارات، باب رعي الغنم على قراريط ح٢٢٦٢.

(٤) سنن أبي داود ٢/٦١١، وابن ماجه ح٢٢٨٧ (٢/٧٦٨) ومسند أحمد ٣/٤٢٥.

فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام(١).

زواجه بخديجة رضي الله عنها:

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة ـ وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك ـ فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منة، وهذه ذهبت إليه ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة، فرضي بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة، وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين(٢)، وأصدقها عشرين بكرة، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلاً، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم؛ ولدت له أولاً القاسم ـ وبه كان يكنى ـ ثم زينب ورقية، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر، ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته ﷺ سوى فاطمة رضي الله عنها، فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به(٣).

---

(١) ابن هشام ١/١٨٧، ١٨٨.

(٢) وقد حدد المسعودي خروجه ﷺ إلى الشام بأربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام بعد الفجار، وزواجه بخديجة بشهرين وأربعة وعشرين يومًا بعد الخروج إلى الشام. انظر مروج الذهب ٢/٢٧٨.

(٣) ابن هشام ١/١٨٩-١٩١، وصحيح البخاري ـ فتح الباري ٧/١٠٥ ـ وتلقيح فهوم أهل الأثر ص٧.

بناء الكعبة وقضية التحكيم:

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة، وذلك لأن الكعبة كانت رضمًا فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل عليه السلام، ولم يكن لها سقف، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها، وكانت مع ذلك قد تعرضت - باعتبارها أثرًا قديمًا - للعوادي التي هدمت بنيانها، وصدعت جدارنها، وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكةَ سيلٌ عَرِمٌ، انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها؛ حرصًا على مكانتها، واتفقوا على أن لا يُدْخِلوا في بنائها إلا طيبًا، فلا يُدخلوا فيها مهر بغي ولا بيع ربًا ولا مظلمةَ أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي، فأخذ المعول وقال: اللهم لا نريد إلا خيرًا. ثم هدم ناحية الركنين، ولما لم يصبه شيء تبعه الناس في الهدم في اليوم الثاني، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ في البناء فجزأوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بنّاءٌ رومي اسمه باقوم، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يُحكِّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر طلب رداء، فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده، فوضعه في مكانه، وهذا حل حصيف رضي به القوم.

وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوا من ستة أذرع، وهي التي تسمى بالحِجْر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض، لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمس عشرة ذراعًا سقفوه على ستة أعمدة.

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبًا ارتفاعه ١٥ مترًا، وطول ضلعه الذي فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠م والحجر موضوع على ارتفاع ١,٥٠م من أرضية المطاف، والضلع الذي فيه الباب والمقابل له ١٢م، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها، متوسط ارتفاعها ٠,٢٥م ومتوسط عرضها ٠,٣٠م وتسمى بالشاذروان، وهي من أصل البيت لكن قريشًا تركتها(١).

السيرة الإجمالية قبل النبوة:

كان النبي ﷺ قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب والنظر السديد، ونال حظًا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدامة الفكرة واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حسنًا شارك فيه(٢) وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيدًا ولا احتفالاً، بل كان من أول نشأته نافرًا من هذه المعبودات

---

(١) انظر تفصيل بناء الكعبة ابن هشام ٢/ ١٩٢ إلى ١٩٧، وتاريخ الطبري ٢/ ٢٨٩ وما بعده وصحيح البخاري: باب فضل مكة وبنيانها ١/ ٢١٥ح ٥٨٢، وخبر التحكيم أيضًا في مسند أبي داود الطيالسي، وانظر أيضًا محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/ ٦٤، ٦٥.

(٢) فمثلا كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ أيضًا يصومه في الجاهلية. انظر صحيح البخاري ح٢٠٠٢، مع فتح الباري ٤/ ٢٨٧.

الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى[1]. وكان تحيط به العناية الربانية.

روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة. فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: إزاري، إزاري. فشد عليه إزاره. وفي رواية: فما رُئِيَتْ له عورة بعد ذلك[2].

وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة، فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأعزهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عريكة، وأعفهم نفسًا، وأكرمهم خيرًا، وأبرّهم عملاً، وأوفاهم عهداً، وآمنهم أمانة حتى سماه قومه «الأمين» لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق[3].

* * *

(1) انظر لذلك ابن هشام 1/128، وتاريخ الطبري 2/161، وتهذيب تاريخ دمشق 1/373، 376.

(2) صحيح البخاري ح1582، وفتح الباري 3/513 ح3829 فتح الباري 7/180، وانظر أيضًا فتح الباري 3/517، ومسند أحمد 3/295، 310، 333، 380.

(3) صحيح البخاري ح3.

في ظلال النبوة والرسالة

في غار حراء:

لما قاربت سنه ﷺ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور على مبعدة نحو ميلين من مكة ـ وهو غار لطيف طوله أربع أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد ـ فيقيم فيه شهر رمضان(١). ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة، وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه.

جبريل ينزل بالوحي:

ولما تكامل له أربعون سنة ـ وهي رأس الكمال، وقيل: ولها تبعث الرسل ـ بدأت طلائع النبوة تلوح وتلمع، فمن ذلك أن حجراً بمكة كان يسلم عليه، ومنها أنه كان يرى الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر ـ ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ـ فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن(٢).

---

(١) يقال: إن عبد المطلب أول من تحنث بحراء، فكان إذا دخل شهر رمضان صعد وأطعم المساكين جميع الشهر (الكامل لابن الأثير ١٠/٥٥٣).

(٢) قال ابن حجر: وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول، بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة في رمضان (فتح الباري ١/٢٧).

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلاً، وقد وافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و١٢ يومًا، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وعشرين يومًا(١).

ولنستمع إلى عائشة الصديّقة رضي الله تعالى عنها تروي لنا قصة هذه الوقعة التي كانت نقطة بداية النبوة، وأخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال حتى غيرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ، قالت عائشة رضي الله عنها:

أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء،

(١) اختلف أهل السير اختلافًا كبيرًا في أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة، وإنزال الوحي، فذهبت طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه رمضان، وقيل: هو شهر رجب، وإنما رجحنا أنه شهر رمضان لقوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١] ومعلوم أن ليلة القدر في رمضان، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣] ولأن جواره ﷺ بحراء كان في رمضان، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف.

ثم اختلفت الروايات واختلف القائلون ببدء نزول الوحي في رمضان في تحديد ذلك اليوم، فقيل: هو اليوم السابع، وقيل السابع عشر، وقيل الثامن عشر، وذهب ابن إسحاق وغيره إلى أنه اليوم السابع عشر، وإنما رجحنا أنه اليوم الحادي والعشرون لأن أهل السير كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين، ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: فيه ولدت وفيه أنزل علي، وفي لفظ: ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل علي فيه. (صحيح مسلم ١/٣٦٨، أحمد ٥/٢٩٧-٢٩٩ البيهقي ٤/٤٨٦، ٣٠٠، الحاكم ٢/٢-٦) ويوم الاثنين في رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع، والرابع عشر، والحادي والعشرين، والثامن والعشرين، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا في وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان وأنها تنتقل فيما بين هذه الليالي، فإذا قارنّا بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١] وبين رواية أبي قتادة أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين وبين حساب التقويم العلمي في وقوع أيام الاثنين في رمضان من تلك السنة تعين لنا أن مبعثه ﷺ كان في اليوم الحادي والعشرين من رمضان ليلاً.

فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾** [العلق: ١-٣][(١)]، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: ما لي؟ وأخبرها الخبر، لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[(٢)]. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ـ وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ـ فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أوَ مخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي[(٣)].

(١) نزلت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥].

(٢) الكل: الثقل:، ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك، وكسب المعدوم هو إعطاء الفقير تبرعاً، والنوائب: الحوادث.

(٣) صحيح البخاري ح٣ وقد أخرجه البخاري مع اختلاف يسير في اللفظ في كتابي التفسير وتعبير الرؤيا ح٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ح٢٥٢.

فترة الوحي:

أما مدة فترة الوحي فاختلفوا فيها على عدة أقوال، والصحيح أنها كانت أيامًا، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك[1]، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنوات أو سنتين ونصفًا فليس بصحيح.

وقد بقي رسول الله ﷺ في أيام الفترة كئيبًا محزوناً تعتريه الحيرة والدهشة، فقد روى البخاري في كتاب التعبير ما نصه:

وفتر الوحي فترة حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزنًا عدا[2] منه مراراً كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًّا. فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك[3].

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية:

قال ابن حجر: وكان ذلك - أي انقطاع الوحي أيامًا - ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العَوْد[4]، فلما حصل له ذلك وأخذ يرتقب مجيء الوحي أكرمه الله بالوحي مرة ثانية، قال ﷺ: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري هبطت، فلما استبطنت الوادي فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعبًا حتى هويت إلى الأرض،

(١) طبقات ابن سعد ١/١٩٦.

(٢) بالعين المهملة من العَدْو، وهو الذهاب بسرعة، وفي بعض النسخ «غدا» بالغين المعجمة.

(٣) صحيح البخاري ح٦٩٨٢.

(٤) فتح الباري ١/٢٧.

فأتيت خديجة فقلت: «زملوني زملوني، دثروني وصبوا علي ماءًا باردًا». قال: فدثروني وصبوا عليّ ماءًا باردًا، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥] وذلك قبل أن تفرض الصلاة، ثم حمي الوحي وتتابع(١).

وهذه الآيات هي مبدأ رسالته ﷺ، وهي متأخرة عن النبوة بمقدار فترة الوحي.

ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

قام رسول الله ﷺ بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر، بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وحيث إن قومه كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، ولا حجة لهم إلا أنهم ألفوا آباءهم على ذلك، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزة والأنفة، ولا سبيل لهم في حل المشاكل إلا السيف، وكانوا مع ذلك متصدرين للزعامة الدينية في جزيرة العرب، ومحتلين مركزها الرئيسي، ضامنين حفظ كيانها، فقد كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية، لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم.

الرعيل الأول:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به من أهل بيته وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الحق والخير، ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح، فأجابه من هؤلاء الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره - جمْع عُرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين، وفي مقدمتهم

(١) صحيح البخاري: تفسير سورة المدثر، باب ١ - وما بعده ٨/٥٤٤ - ٥٤٧ ونحوه في صحيح مسلم: كتاب الإيمان ح٢٥٧ (١/١٤٤).

زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي[١] وابن عمه علي بن أبي طالب ـ وكان صبيًا يعيش في كفالة الرسول ﷺ ـ وصديقه الحميم أبو بكر الصديق، أسلم هؤلاء في أول يوم للدعوة.

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلاً مألوفًا محببًا سهلاً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه؛ لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعوته عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمي، فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام.

ثم تلا هؤلاء أمين هذه الأمة[٢] أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وامرأته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي، وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد العدوي، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت التميمي، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وخالد بن سعيد بن العاص الأموي وامرأته أمينة بنت خلف، ثم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص، وحاطب بن الحارث الجمحي، وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه خطاب بن الحارث، وامرأته فكيهة بنت يسار، وأخوه معمر بن الحارث، والمطلب بن أزهر الزهري، وامرأته رملة بنت

---

(١) كان قد أسر ورق، فملكته خديجة، ووهبته لرسول الله ﷺ، وجاءه أبوه وعمه ليذهبا به إلى قومه وعشيرته، فاختار عليهما رسول الله ﷺ، فتبناه حسب قواعد العرب، وكان لذلك يقال: زيد بن محمد، حتى جاء الإسلام فأبطل التبني. قتل شهيداً يوم مؤتة في جمادى الأولى سنة ٨ هـ وهو أمير جيش المسلمين.

(٢) انظر لتسميته بهذا اللقب صحيح البخاري مناقب أبي عبيدة بن الجراح ١ / ٥٣٠.

أبي عوف، ونعيم بن عبد الله بن النحام العدوي، وهؤلاء كلهم قرشيون من بطون وأفخاذ شتى من قريش.

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام من غير قريش عبد الله بن مسعود الهذلي، ومسعود بن ربيعة القاري، وعبد الله بن جحش الأسدي وأخوه أبو أحمد بن جحش، وبلال بن رباح الحبشي، وصهيب بن سنان الرومي، وعمار بن ياسر العنسي، وأبوه ياسر، وأمه سمية، وعامر بن فهيرة.

وممن سبق إلى الإسلام من النساء غير من تقدم ذكرهن أم أيمن بركة الحبشية، وأم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب، وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما(١).

هؤلاء معروفون بالسابقين الأولين، ويظهر بعد التتبع والاستقراء أن عدد الموصوفين بالسبق إلى الإسلام وصل إلى مئة وثلاثين رجلاً وامرأة، ولكن لا يعرف بالضبط أنهم كلهم أسلموا قبل الجهر بالدعوة أو تأخر إسلام بعضهم إلى الجهر بها.

الصلاة:

ومن أوائل ما نزل من الأحكام الأمر بالصلاة، قال ابن حجر: كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعًا، وكذلك أصحابه، ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا؟ فقيل إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها. انتهى. وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن لهيعة موصولاً عن زيد بن حارثة، أن رسول الله ﷺ في أول ما أوحي إليه أتاه جبريل، فعلمه الوضوء، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه. وقد روى ابن ماجه بمعناه. وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس: وكان ذلك من أول الفريضة(٢).

(١) انظر للتفصيل سيرة ابن هشام ١/٢٤٥ ـ ٢٦٢ وفي تسميته بعض من سمى نظر.

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص٨٨.

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعليًّا يصليان مرة فكلمهما في ذلك، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات(١).

تلك هي العبادة التي أمر بها المؤمنون، ولا تعرف لهم عبادات وأوامر ونواه أخرى غير ما يتعلق بالصلاة، وإنما كان الوحي يبين لهم جوانب شتى من التوحيد، ويرغبهم في تزكية النفوس، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنة والنار كأنهما رأي عين، ويعظهم بمواعظ بليغة تشرح الصدور وتغذي الأرواح، وتحدو بهم إلى جو آخر غير الذي كان فيه المجتمع البشري آنذاك.

وهكذا مرت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، ولم يجهر بها النبي ﷺ في المجامع والنوادي، إلا أنها عرفت لدى قريش، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به الناس، وقد تنكر له بعضهم أحيانًا، واعتدوا على بعض المؤمنين، إلا أنهم لم يهتموا به كثيراً حيث لم يتعرض رسول الله ﷺ لدينهم، ولم يتكلم في آلهتهم.

* * *

(١) ابن هشام ١ /٢٤٧ والخبر أيضاً في مسند أبي داود الطيالسي ص٢٦.

الدعوة جهاراً

ولما تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون، وتتحمل عبء تبليغ الرسالة، وتمكينها من مقامها، نزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنة الدعوة، ومجابهة الباطل بالحسنى، وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

الدعوة في الأقربين:

دعا رسول الله ﷺ عشيرته بني هاشم بعد نزول هذه الآية، فجاءوا ومعهم نفر من بني عبد المطلب بن عبد مناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلاً، فلما أراد أن يتكلم رسول الله ﷺ بادره أبو لهب وقال: هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئت به. فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس.

ثم دعاهم ثانية وقال: «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له». ثم قال: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً». فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد

تصديقًا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب: هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم. فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا(١).

على جبل الصفا:

وبعد ما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته، وهو يبلغ عن ربه صعد النبي ﷺ ذات يوم على الصفا فعلا أعلاها حجرًا، ثم هتف: «يا صباحاه». وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم. ثم جعل ينادي بطون قريش، ويدعوهم قبائل قبائل: «يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب».

فلما سمعوا قالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فأسرع الناس إليه، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش.

فلما اجتمعوا قال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟».

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله - أي يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم

(١) الكامل لابن الأثير ١/٥٨٤، ٥٨٥.

العدو - فخشي أن يسبقوه، فجعل ينادي: يا صباحاه». ثم دعاهم إلى الحق، وأنذرهم من عذاب الله، فخصّ وعمّ فقال: «يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا. يا بني كعب بن مرة! أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني قصي! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا. يا معشر بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا. يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم! أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم، لا أملك لكم من الله شيئًا. يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئًا. يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئًا. يا فاطمة بنت محمد رسول الله! سليني ما شئت من مالي، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنك من الله شيئًا. غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها» أي سأصلها حسب حقها.

ولما تم هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أي رد فعل سوى أن أبا لهب واجه النبي ﷺ بالسوء، وقال: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾** [المسد: ١](١).

(١) صحيح البخاري ح٢٧٥٣، ٣٥٢٥، ٣٥٢٦، ٣٥٢٧، ٤٧٧١ (الفتح ٥/٤٤٩، ٦/٦٣٧، ٨/٣٦٠) صحيح مسلم ١/١١٤، جامع الترمذي: تفسير سورة الشعراء ح٣١٨٤، ٣١٨٥، ٣١٨٦، (٥/٣١٦، ٣١٧) وغيرهم، وقد جمعت حروفهم وألفتها تاليفًا مسلسلا.

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤] فقام رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونواديهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويقول لهم ما قالته الرسل لأقوامهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم، فكان يصلي بفناء الكعبة نهاراً جهاراً وعلى رءوس الأشهاد.

وقد نالت دعوته مزيداً من القبول، ودخل الناس في دين الله واحداً بعد واحد. وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباغض وتباعد وعناد، واشمأزت قريش من كل ذلك. وساءهم ما كانوا يبصرون.

المجلس الاستشاري لكف الحجاج عن استماع الدعوة:

وخلال هذه الأيام أهم قريشًا أمر آخر، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أيام أو أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأيًا واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا. قالوا: فأنت فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما

نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه، لأن تقولوا: ساحر. جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك(١).

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له، قالوا: أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه. فقال لهم: أمهلوني حتى أفكر في ذلك. فظل الوليد يفكر ويفكر حتى أبدى لهم رأيه الذي ذكر آنفًا.

وفي الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر «من ١١ إلى ٢٦» وفي خلالها صور كيفية تفكيره، فقال: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥].

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا في تنفيذه، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا للموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره(٢).

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس في منازلهم وفي عكاظ ومجنة وذي المجاز يدعوهم إلى الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب(٣).

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٧١ وأخرجه أيضًا البيهقي وأبو نعيم في الدلائل وغيرهما.

(٢) ابن هشام ١/ ٢٧١.

(٣) روى فعله هذا الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٤٩٢، ٣/ ٣٤١ وانظر أيضًا البداية والنهاية ٥/ ٧٥ وكنز العمال ١٢/ ٤٤٩، ٤٥٠.

أساليب شتى للكفار والمجرمين لمجابهة الدعوة:

ولما فرغت قريش من الحج فكرت في أساليب تقضي بها على هذه الدعوة في مهدها، وتتلخص هذه الأساليب فيما يلي:

١ - السخرية والتحقير والاستهزاء والتكذيب والتضحيك:

قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم هزيلة، وشتائم سفيهة، فكانوا ينادونه بالجنون: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] ويصفونه بالسحر والكذب: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١] وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه: ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] وكانوا كما قص الله علينا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٣].

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء وزادوا من الطعن والتضحيك شيئًا فشيئًا حتى أثر ذلك في نفس رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] ثم ثبته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٨، ٩٩] وقد أخبره من قبل أنه يكفيه هؤلاء المستهزئين حيث قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٥، ٩٦] وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالا عليهم فقال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

٢ ـ إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة:

وقد أكثروا من ذلك وتفننوا فيه بحيث لا يبقى لعامة الناس مجال للتدبر في دعوته والتفكير فيها، فكانوا يقولون عن القرآن: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ [الأنبياء: ٥] يراها محمد بالليل ويتلوها بالنهار. ويقولون: بل افتراه من عند نفسه. ويقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] أي اشترك هو وزملاؤه في اختلاقه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥].

وأحيانًا قالوا: إن له جنًّا أو شيطانًا يتنزل عليه كما ينزل الجن والشياطين على الكهان. قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] أي إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطخ بالذنوب، وما جربتم عليّ كذبًا، وما وجدتم فيّ فسقًا، فكيف تجعلون القرآن من تنزيل الشيطان؟

وقالوا عن النبي ﷺ: إنه مصاب بنوع من الجنون، فهو يتخيل المعاني، ثم يصوغها في كلمات بديعة رائعة كما يصوغ الشعراء، فهو شاعر وكلامه شعر، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦] فهذه ثلاث خصائص يتصف بها الشعراء ليست واحدة منها في النبي ﷺ فالذين اتبعوه هداة مهتدون، متقون صالحون في دينهم وخلقهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وليست عليهم مسحة من الغواية في أي شأن من شئونهم، ثم النبي ﷺ لا يهيم في كل

واد كما يهيم الشعراء، بل هو يدعو إلى رب واحد، ودين واحد، وصراط واحد، وهو لا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول، فأين هو من الشعر والشعراء؟ وأين الشعر والشعراء منه؟

وهكذا أبدوا شبهات حول موضوع التوحيد ورسالة النبي ﷺ والبعث بعد الموت، وقد رد القرآن على كل ما أثاروه من الشبهات ردًا مفحمًا يقنع كل ذي عقل ولب، ولكنهم كانوا مشاغبين مستكبرين يريدون عُلواً في الأرض وفرض رأيهم على الخلق، فبقوا في طغيانهم يعمهون.

٣ ـ الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن، ومعارضته بأساطير الأولين:

كان المشركون ـ بجانب إثارة هذه الشبهات ـ يَحُولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق يمكن، فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون إذا رأوا أن النبي ﷺ يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلي ويتلو القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] حتى إن النبي ﷺ لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم في مجامعهم ونواديهم إلا في أواخر السنة الخامسة من النبوة، وذلك أيضًا عن طريق المفاجأة دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة.

وكان النضر بن الحارث، أحد شياطين قريش قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر، ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني(١).

---

(١) ملخصًا من ابن هشام ١/ ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٥٨.

وفي رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قينة، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦](١).

الاضطهادات:

أعمل المشركون الأساليب التي ذكرناها شيئًا فشيئًا لإحباط الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة، فلما رأوا أن هذه الأساليب لم تُجْدِ نفعًا قرروا القيام بتعذيب المسلمين وفتنتهم عن دينهم، فأخذ كل رئيس يعذب من دان من قبيلته بالإسلام، وانقض كل سيد على من اختار طريق الإيمان من عبيده وتبعهم في ذلك الأذناب والأوباش، فجروا على المسلمين ـ ولا سيما الضعفاء منهم ـ ويلات تقشعر منها الجلود، وأخذوهم بنقمات تتفطر لسماعها القلوب.

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنَّبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به(٢).

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخن من تحته(٣).

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه منعته الطعام والشراب، وأخرجته من بيتها، وكان من أنعم الناس عيشًا، فتخشف جلده تخشف الحية(٤).

وكان صهيب بن سنان الرومي يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول(٥).

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يضع في عنقه حبلاً، ثم يسلمه إلى الصبيان، يطوفون به في جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في

(١) الدر المنثور: تفسير سورة لقمان: الآية: ٦ (٥/٣٠٧).

(٢) ابن هشام ١/٣٢٠.

(٣) رحمة للعالمين ١/٥٧.

(٤) أسد الغابة ٤/٤٠٦، وتلقيح فهوم الأثر ص٦٠.

(٥) الإصابة ج٣، ٤/٢٥٥، ابن سعد ٣/٢٤٨.

عنقه، وهو يقول: أحد أحد. وكان أمية يشده شداً ثم يضربه بالعصا، ويلجئه إلى الجلوس في حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع. وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك: أحد أحد. ويقول: لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها. ومر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به فاشتراه بغلام أسود. وقيل: بسبع أواق أو بخمس من الفضة، وأعتقه(١).

وكان عمار بن ياسر - رضي الله عنهما - مولى لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون - وعلى رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها. ومر بهم النبي ﷺ وهم يعذبون، فقال: «صبراً آل ياسر! فإن موعدكم الجنة»، فمات ياسر في العذاب، وطعن أبو جهل سمية - أم عمار - في قبلها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام، وهي سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت عجوزاً كبيرة ضعيفة، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى، وبغطه في الماء حتى كان يفقد وعيه. وقالوا له: لا نتركك حتى تسب محمداً، أو تقول في اللات والعزى خيراً. فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء باكياً معتذراً إلى النبي ﷺ. فأنزل الله: **﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾** [النحل: ١٠٦] الآية(٢).

---

(١) ابن هشام ١/٣١٧، ٣١٨، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٦١ تفسير ابن كثير: سورة النحل: الآية: ١٠٦ (٢/٦٤٨).

(٢) ابن هشام ١/٣١٩، ٣٢٠، طبقات ابن سعد ٣/٢٤٨، ٢٤٩ وروى الجزء الأخير العوفي عن ابن عباس، تفسير ابن كثير (المذكور). ولينظر الدر المنثور تفسير الآية: ١٠٦ سورة النحل.

وكـان أبو فكيـهـة ـ واسـمـه أفلح ـ مـولى لبنـي عبـد الدار، وكـان من الأزد. فكانوا يخـرجونه في نصف النهـار في حـر شـديد، وفي رجليـه قـيـد من حـديد، فـيجـردونه من الثيـاب، ويبطحـونه في الرمـضـاء، ثـم يضـعـون على ظهـره صخـرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشـة الـهجـرة الثانيـة، وكـانوا مرة قـد ربطوا رجله بحبل، ثـم جـروه وألقـوه في الرمـضـاء وخنقـوه حتى ظنوا أنه قد مـات، فـمـر به أبو بكر فـاشـتـراه وأعتقه لله(١).

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، وكـان حداداً، فلما أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأسه ليكفر بمحمد ﷺ، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وكـان المشركـون أيضًا يعذبونه فيلوون عنقه، ويجذبون شعره، وقد ألقوه على النار، ثم سحبوه عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهره(٢).

وكانت زنيرة أَمَةً رومية قد أسلمت فعذبت في الله، وأصيبت في بصرها حتى عميت، فقيل لها: أصابتك اللات والعزي؟ فقالت: لا والله ما أصابتني، وهذا من الله، وإن شاء كشفه. فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا بعض سحر محمد(٣).

وأسلمت أم عبـيس، جارية لبني زهرة، فكان يعذبهـا المشركـون، وبخاصـة مـولاها الأسـود بن عـبـد يغـوث. وكـان من أشـد أعـداء رسـول الله ﷺ، ومن المستهزئين به(٤).

(١) أسد الغابة ٥/٢٤٨، والإصابة ٧، ٨/١٥٢ وغيرهما.

(٢) أسد الغابة ١/٥٩١، وتلقيح الفهوم ص٦٠ وغيرهما.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/٢٥٦، وابن هشام ١/٣١٨.

(٤) الإصابة ٧، ٨/٢٥٨.

وأسلمت جارية عمرو بن مؤمل من بني عدي، فكان عمر بن الخطاب يعذبها، وهو يومئذ على الشرك، فكان يضربها حتى يفتر، ثم يدعها ويقول: والله ما أدعك إلا سآمة. فتقول: كذلك يفعل بك ربك(١). وممن أسلمن وعذبن من الجواري النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار(٢)، وممن عذب من العبيد عامر بن فهيرة، كان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول(٣).

واشترى أبو بكر رضي الله عنه هؤلاء الإماء والعبيد رضي الله عنهم وعنهن أجمعين، فأعتقهم جميعًا، وقد عاتبه في ذلك أبوه أبو قحافة وقال: أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أعتقت رجالاً جلدًا لمنعوك. قال: إني أريد وجه الله. فأنزل الله قرآنًا مدح فيه أبا بكر، وذم أعداءه، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٦] وهو أمية بن خلف، ومن كان على شاكلته: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١] وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه(٤).

وأوذي أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضًا؛ فقد أخذه نوفل بن خويلد العدوي، وأخذ معه طلحة بن عبيد الله فشدهما في حبل واحد، ليمنعهما عن الصلاة وعن الدين فلم يجيباه، فلم يروعاه إلا وهما مطلقان يصليان، ولذلك سميا بالقرينين. وقيل: إنما فعل ذلك عثمان بن عبيد الله أخو طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه(٥).

(١) ابن هشام ١/٣١٩، طبقات ابن سعد ٨/٢٥٦.
(٢) ابن هشام ١/٣١٨، ٣١٩.
(٣) ابن سعد ٣/٢٤٨.
(٤) ابن هشام ١/٣١٨، ٣١٩، طبقات ابن سعد ٨/٢٥٦، وكتب التفسير: الآية المذكورة.
(٥) أسد الغابة ٢/٤٦٨.

والحاصل أنهم لم يعلموا بأحد دخل في الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال.

موقف المشركين من رسول الله ﷺ:

وأما بالنسبة لرسول الله ﷺ فإنه كان رجلاً شهمًا وقورًا ذا شخصية فذة، تتعاظمه نفوس الأعداء والأصدقاء ومع ذلك كان في منعة أبي طالب، وكان من الصعب أن يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته، إن هذا الوضع أقلق قريشًا ودعاهم إلى تفكير سليم يخرجهم من المأزق دون أن يقعوا في محذور لا تحمد عقباه، وقد هداهم ذلك إلى أن يختاروا سبيل المفاوضات مع أبي طالب. ولكن مع نوع من أسلوب التحدي حتى يذعن لما يقولون.

وفد قريش إلى أبي طالب:

قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقًا، وردهم ردًّا جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه(١) ولكن لم تصبر قريش طويلاً حين رأته ﷺ ماضيًا في عمله ودعوته إلى الله. بل أكثرت ذكره وتذامرت فيه. حتى قررت مراجعة أبي طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق.

قريش يهددون أبا طالب:

وجاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على

(١) ابن هشام ١/ ٢٦٥.

هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

عظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخي! إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذلُه، وأنه ضعُف عن نصرته، فقال: «يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته». ثم استعبر وبكى وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبداً[1] وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسَّد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر وقر بذاك منك عيونا[2]

وأنشد ذلك في أبيات.

قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى:

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في عمله عرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم في ذلك، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين أبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل. فقال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه. هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال المطعم بن عدي بن

(١) ابن هشام ١/١٦٥، ١٦٦.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/١٨٨.

نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال: والله ما أنصفتموني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك(١).

ولما فشلت قريش في هذه المفاوضات قررت أن تختار سبيل الاعتداء على ذات الرسول ﷺ.

اعتداءات قريش على رسول الله ﷺ:

واخترقت قريش ما كانت تتعاظمه وتحترمه منذ ظهرت الدعوة على الساحة، فقد صعب على غطرستها وكبريائها أن تصبر طويلاً، فمدت يد الاعتداء إلى رسول الله ﷺ، مع ما كانت تأتيه من السخرية والاستهزاء والتشويه والتلبيس والتشويش وغير ذلك، وكان من الطبيعي أن يكون أبو لهب في مقدمتهم وعلى رأسهم، فإنه كان أحد رءوس بني هاشم، فلم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون، وكان عدوًا لدودًا للإسلام وأهله، وقد وقف موقف العداء من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول، واعتدى عليه قبل أن تفكر فيه قريش، وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلس بني هاشم، وما فعل على الصفا.

وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما(٢).

ولما مات عبد الله ـ الابن الثاني لرسول الله ﷺ ـ استبشر أبو لهب، وذهب إلى المشركين يبشرهم بأن محمدًا صار أبترَ(٣).

---

(١) ابن هشام ١/٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) روى ذلك الطبراني عن قتادة وتفيد رواية ابن إسحاق أن رجال قريش أيضًا سعوا في ذلك. لينظر ابن هشام ١/٦٥٢.

(٣) روى ذلك عن عطاء. تفسير ابن كثير: سورة الكوثر ٤/٥٩٥.

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه(١).

وكانت أمرأة أبي لهب - أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان - لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حرباً شعواء على النبي ﷺ، ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب.

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فهر (أي بمقدار ملء الكف) من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة. ثم قالت:

مذمما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني(٢).

وروى أبو بكر البزار هذه القصة. وفيها أنها لما وقفت على أبي بكر قالت: (أبا بكر هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمصدق)(٣).

---

(١) كنز العمال ١٢/٤٤٩.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٣٥-٣٣٦ وكانت قريش يسمونه ﷺ مذمما، حقداً وغيظاً، وصرف الله بهذا شتمهم عنه، التاريخ للبخاري ١/١١، وصحيح البخاري مع الفتح ٧/١٦٢، ومسند أحمد ٢/٢٤٤، ٣٤٠، ٣٦٩.

(٣) وروى هذه القصة الحاكم في المستدرك ٢/٣٦١ وابن أبي شيبة في المصنف ١١/٤٩٨ ح١١٨١٧ وأبو يعلي في المسند ٤/٢٤٦ ح٢٣٥٨، وإسماعيل الأصبهاني في دلائل النبوة ص٧١ ح٥٤، والطبراني وابن أبي حاتم وغيرهم. وفي السياق شيء خفيف من الاختلاف.

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره، كان بيته ملصقًا ببيته، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو في بيته.

قال ابن إسحاق: كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي - وكانوا جيرانه - لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص[1] فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: يا بني عبد مناف! أي جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق[2].

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه، فقد روى البخاري عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط)[3] فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغني شيئًا، لو كانت لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض (أي يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطرًا) ورسول الله ﷺ ساجد، لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: اللّهم عليك بقريش! ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وقال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: اللّهم عليك بأبي جهل،

(١) والد مروان الخليفة الأموي.

(٢) ابن هشام ١/٤١٦.

(٣) صرح بذلك في صحيح البخاري نفسه ١/٥٤٣.

وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة ابن أبي معيط ـ وعد السابع فلم يحفظه ـ فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدّ رسولُ الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر(١).

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه. وفيه نزل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] قال ابن هشام الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به. واللمزة: الذي يعيب الناس سرًّا، ويؤذيهم(٢).

أما أخوه أُبَيّ بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين. وجلس عقبة مرة إلي النبي ﷺ وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبيًّا أنبه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل. وأبي بن خلف نفسه فت عظمًا رميمًا ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ(٣).

وكان الأخنس بن شريق الثقفي ممن ينال من رسول الله ﷺ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٣].

وكان أبو جهل يجيء أحيانًا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذي رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يذهب مختالاً بما فعل، فخوراً بما ارتكب من الشر، كأنما فعل شيئًا يذكر، وفيه نزل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١] إلخ. وكان يمنع النبي ﷺ من الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم، ومرة مر به وهو يصلي عند

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب: إذا ألقي على المصلي قذر أو جيفة ١/٣٧ ح٢٤٠، ٥٢٠، ٢٩٣٤، ٣١٨٥، ٣٨٥٤، ٣٨٦٠.

(٢) ابن هشام ١/٣٥٦، ٣٥٧.

(٣) ابن هشام ١/٣٦١، ٣٦٢.

المقام فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره. فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا. فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨](١) وفي رواية أن النبي ﷺ أخذ بخناقه وهزه، وهو يقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥] فقال عدو الله أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا، وإني لأعز من مشى بين جبليها(٢).

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم! فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، فَهَمّ ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً(٣).

هذه صورة مصغرة جداً لما كان يتلقاه رسول الله ﷺ والمسلمون من الظلم والخسف والجور وكان من مقتضيات هذه الظروف المتأزمة أن يختار رسول الله ﷺ موقفًا حازمًا ينقذ به المسلمين عما دهمهم من البلاء، ويخفف وطأته بقدر المستطاع. وقد اتخذ رسول الله ﷺ خطوتين حكيمتين كان لهما أثرهما في تسيير الدعوة وتحقيق الهدف. وهما:

١ ـ اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركزاً للدعوة ومقرا للتربية.

٢ ـ أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة.

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير، وروى نحوه الترمذي: التفسير من سورة اقرأ، الآيتان: ١٧ ـ ١٨ ح٣٣٤٩ (٥/٤١٤) وغيره.

(٢) لينظر تفسير ابن كثير ٤/٤٧٧، والدر المنثور ٦/٤٧٨ وغيرهما.

(٣) صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ح٣٨ (٤/٢١٥٤).

دار الأرقم:

كانت هذه الدار في أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها رسول الله ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سرًّا، فيتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وليؤدي المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله، وهم في أمن وسلام، وليدخل من يدخل في الإسلام ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة.

ومما لم يكن يشك فيه أن رسول الله ﷺ لو اجتمع بالمسلمين علنا لحاول المشركون بكل ما عندهم من القسوة والغلظة أن يحولوا بينه وبين ما يريد من تزكية نفوسهم ومن تعليمهم الكتاب والحكمة، وربما أفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل قد وقع ذلك فعلاً. فقد ذكر ابن إسحاق أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب، فيصلون فيها سرًّا، فرآهم نفر من كفار قريش، فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه، وكان أول دم هريق في الإسلام(١).

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة السريةُ والاختفاءُ، فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهراني المشركين، لا يصرفه عن ذلك شيء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرًّا؛ نظرًا لصالحهم وصالح الإسلام.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت بداية الاعتداءات في أواسط السنة الرابعة من النبوة أو أواخرها، بداية ضعيفة، ثم لم تزل تشتد يومًا فيومًا وشهراً فشهراً، حتى تفاقمت في أواسط السنة

(١) ابن هشام (١/ ٢٦٣).

الخامسة، ونبا بهم المقام في مكة، وأخذوا يفكرون في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الظروف نزلت سورة الزمر تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة **﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [الزمر: ١٠].

وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشيَّ مَلِكَ الحبشة مَلِكٌ عادل، لا يُظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة؛ فراراً بدينهم من الفتن(١).

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة. كان مكونًا من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد قال النبي ﷺ فيهما: «إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام»(٢).

كان رحيل هؤلاء تسللاً في ظلمة الليل؛ حتى لا تفطن لهم قريش. خرجوا إلى البحر ويمموا ميناء شعيبة، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت في آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار(٣).

سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين:

وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم، وفيه جمع كبير من قريش، فيهم ساداتهم وكبراؤهم، فقام فيهم، وفاجأهم بتلاوة سورة النجم، ولم يكن أولئك الكفار سمعوا كلام الله من قبل؛ لأنهم كانوا مستمرين على ما تَوَاصَوْا

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقي ٩/٩.
(٢) زاد المعاد ١/٢٤.
(٣) زاد المعاد ١/٢٤.

به، من قولهم ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلام إلهي خلاب، وكان أروع كلام سمعوه قط، أخذت مشاعرهم، ونسوا ما كانوا فيه، فما من أحد إلا وهو مصغ إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب، ثم قرأ ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢] ثم سجد، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجداً. وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين(١).

وسقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون جهدهم في محوه وإفنائه، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير، وأنه قال عنهم ما كانوا يرددونه هم دائمًا من قولهم: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) جاءوا بهذا الإفك المبين، ليعتذروا عن سجودهم مع النبي ﷺ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون الكذب، ويطيلون الدس والافتراء.

وبلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة، ولكن في صورة تختلف تمامًا عن صورته الحقيقة، بلغهم أن قريشًا أسلمت، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار، وعرفوا جلية الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيًا، أو في جوار رجل من قريش(٢).

(١) روى البخاري قصة السجود مختصراً عن ابن مسعود وابن عباس، انظر باب سجدة النجم، وباب سجود المسلمين والمشركين ١/١٤٦، وباب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/٥٤٣.
(٢) ابن هشام ١/٣٦٤، زاد المعاد ١/٢٤، ٢/٢٤.

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائرهم، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار، ولم ير رسولُ الله ﷺ بداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

واستعد المسلمون للهجرة مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع، ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا.

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً - إن كان فيهم عمار، فإنه يشك فيه - وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة(١).

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة:

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم. فاختاروا رجلين جلدين لبيبين، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يُسلما - وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوّداهما بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم، حضرا إلى النجاشي، وقدما له الهدايا، ثم كلماه، فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردهم إليهم. فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

(١) انظر زاد المعاد ١/ ٢٤.

وقالت البطارقة: صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم.

ولكن رأى النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعًا فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنًا ما كان. فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

قال جعفر بن أبي طالب ـ وكان هو المتكلم عن المسلمين ـ: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا؛ فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء، فقال له جعفر: نعم! فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١] فبكى

والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاخفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن ربيعة: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا. ولكن أصر عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح، ففزعوا ولكن أجمعوا على الصدق، كائناً ما كان، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن نخرتم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي - والسيوم: الآمنون بلسان الحبشة - من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دَبْراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم - والدبر: الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التي تروي هذه القصة: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار(١).

(١) ابن هشام ملخصاً ١/ ٣٣٤ - ٣٣٨.

الشدة في التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله ﷺ :

ولما أخفق المشركون في مكيدتهم، وفشلوا في استرداد المهاجرين استشاطوا غضبًا، وانقضوا على بقية المسلمين، ومدوا أيديهم إلى رسول الله ﷺ بالسوء. بل أرادوا القضاء عليه ليستأصلوا جذور الفتنة التي أقضت مضاجعهم، حسب زعمهم.

أما بالنسبة للمسلمين فإن الباقين منهم في مكة كانوا قليلين جدًّا، وكانوا إما ذوي شرف ومنعة، وإما محتمين بجوار أحد، ومع ذلك كانوا يخفون إسلامهم، ويبتعدون عن أعين الطغاة بقدر الإمكان. ولكنهم مع هذه الحيطة والحذر لم يسلموا كل السلامة من الأذى والخسف والجور.

وأما رسول الله ﷺ فقد كان يصلي ويعبد الله أمام أعين الطغاة، ويدعو إلى الله سرًّا وجهرًا منذ أمره الله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] وبذلك كان يمكن للمشركين أن يتعرضوا له إذا أرادوا. ولم يكن في الظاهر ما يحول بينهم وبين ما يريدون إلا ما كان له ﷺ من الحشمة والوقار، وما كان لأبي طالب من الذمة والاحترام، وما كانوا يخافونه من مغبة سوء تصرفاتهم، ومن اجتماع بني هاشم عليهم. إلا أن كل ذلك لم يعد له أثره المطلوب في نفوسهم، إذ بدءوا يستخفون به منذ شعروا بانهيار كيانهم الوثني وزعامتهم الدينية أمام دعوته ﷺ.

ومما روت لنا كتب السنة والسيرة، من الأحداث التي تشهد القرائن بأنها وقعت في هذه الفترة، أن عتبة بن أبي لهب أتى يومًا رسول الله ﷺ فقال: أنا أكفر بـ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ١] وبالذي ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] ثم تسلط عليه بالأذى، وشق قميصه، وتفل في وجهه ﷺ، إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ وقال: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك» وقد

استجيب دعاؤه ﷺ، فقد خرج عتبة إثر ذلك في نفر من قريش، فلما نزلوا بالزرقاء من الشام طاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتبة يقول: يا ويل أمي، هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ، قتلني وهو بمكة، وأنا بالشام، ثم جعلوه بينهم، وناموا من حوله، ولكن جاء الأسد وتخطاهم إليه، فضغم رأسه(١).

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان(٢).

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حضرتهم وقد اجتمعوا في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها. فوقف ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد، ويقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً.

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، وقام أبو بكر دونه، وهو يبكي ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾؟ ثم انصرفوا

(١) الاستيعاب والإصابة ودلائل النبوة، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١٣٥.

(٢) المرجع الأخير ص١١٣.

عنه، قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط[1]. انتهى ملخصًا.

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط؛ فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديداً. فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي ﷺ، وقال: **﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾**؟[2].

وفي حديث أسماء: فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا، وعليه غدائر أربع، فخرج وهو يقول: **﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾**؟ فلهوا عنه وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا لا نمس شيئًا من غدائره إلا رجع معنا[3].

إسلام حمزة رضي الله عنه:

خلال هذه الأيام العصيبة أسلم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكان إسلامه في أواخر السنة السادسة من النبوة، والأغلب أنه في شهر ذي الحجة.

وسبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه ونال منه، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فشجه حتى نزف منه الدم، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش عند الكعبة، فجلس معهم، وكانت مولاة عبد الله بن جدعان في مسكن لها على الصفا ترى ذلك، وأقبل حمزة من القنص متوشحًا قوسه، فأخبرته المولاة بما رأت من أبي جهل، فغضب

(١) ابن هشام ١/٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) صحيح البخاري: باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/٥٤٤.

(٣) مختصر السيرة: للشيخ عبد الله ص١١٣.

حمزة - وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة - فخرج يسعى. لم يقف لأحد، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد قام على رأسه، وقال له: يا مصفر استه، تشتم ابن أخي وأنا على دينه؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم - حي أبي جهل - وثار بنو هاشم - حي حمزة - فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني سببت ابن أخيه سبًّا قبيحاً(١).

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبى أن يهان مولاه، ثم شرح الله صدره، فاستمسك بالعروة الوثقى، واعتز به المسلمون أيّما اعتزاز.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وخلال هذه الفترة العصيبة أسلم أيضاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان إسلامه في ذي الحجة سنة ست من النبوة(٢). بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضي الله عنه. وكان النبي ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه. فقد أخرج الترمذي عن ابن عمر، وصححه، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود وأنس أن النبي ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه(٣).

وبعد إدارة النظر في الروايات يبدو أن نزول الإسلام في قلبه كان تدريجيًّا.

وخلاصة هذه الروايات، مع الجمع بينها: أنه - رضي الله عنه - التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل في ستر الكعبة، والنبي ﷺ قائم يصلي، وقد استفتح سورة الحاقة فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال: فقلت - أي في نفسي - هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ

(١) ابن هشام ملخصاً ١/٢٩١، ٢٩٢.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص١١.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، مناقب عمر بن الخطاب ح٣٦٨١ (٥/٥٧٦).

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] قال: قلت: كاهن. قال: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٢، ٤٣] إلى آخر السورة. قال: فوقع الإسلام في قلبي(١).

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه، ولكنه بقي مجداً في عمله ضد الإسلام.

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد القضاء على النبي ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوي(٢)، أو رجل من بني زهرة(٣)، أو رجل من بني مخزوم(٤) فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً. قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمداً؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذي كنت عليه. قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت، معه صحيفة فيها سورة طه يُقْرِئهما إياها ـ وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن ـ فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت، وسترت فاطمة ـ أخت عمر ـ الصحيفة. وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما قال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ فقالا: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبوتما. فقال له ختنه: يا عمر أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٦، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد. لكن في آخره ما يخالف ذلك. انظر ابن هشام ١/٣٤٦-٣٤٨، ويقرب من هذا أيضاً ما أورده ابن الجوزي عن جابر، وفي آخره أيضاً ما يخالف هذه الرواية، انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص٩-١٠.

(٢) وهذا على رواية ابن إسحاق، انظر ابن هشام ١/٣٤٤.

(٣) روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه. انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص١٠.

(٤) روى عن ذلك ابن عباس. انظر مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١٠٢.

فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأً شديداً. فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها ـ وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها ـ فقالت، وهي غضبى: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

فلما يئس عمر، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحيى، وقال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه، فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فقال: أسماء طيبة طاهرة. ثم قرأ ﴿طه﴾ [طه: ١] حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! دلوني على محمد.

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم انطلق حتى أتى الدار، فضرب الباب، فقام رجل ينظر من خلل الباب، فرآه متوشحًا السيف، فأخبر رسول الله ﷺ، واستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر، فقال: وعمر، افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًّا قتلناه بسيفه، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه، فخرج إلى عمر حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، ثم جبذه جبذة شديدة فقال: أما أنت منتهيًا يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة؟ اللهم! هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. وأسلم، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد(١).

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص٧، ١٠، ١١، ابن هشام ١/٣٤٣-٣٤٦.

كـان عـمـر رضي الله عنه ذا شكيـمـة لا يرام، وقـد أثار إسـلامـه ضـجـة بين المشركين، وشعوراً لهم بالذلة والهوان، وكسا المسلمين عزة وشرفًا وسروراً.

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال: لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إليّ، وقال: أهلاً وسهلاً، ما جاء بك؟ قال جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به(١).

وذكر ابن الجوزي أن عمر رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال، فيضربونه ويضربهم، فجئت - أي حين أسلمت - إلي خالي - وهو العاصي ابن هاشم - فأعلمته فدخل البيت، قال: وذهبت إلى رجل من كبراء قريش - لعله أبو جهل - فأعلمته فدخل البيت(٢).

وفي رواية لابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أي أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحي. فخرج إليه وأنا معه، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل إني قد أسلمت، قال: فو الله ما رد عليه كلمة حتى قام عامداً إلى المسجد فنادى [بأعلى صوته] أن يا قريش إن ابن الخطاب قد صبأ. فقال عمر: - وهو خلفه - كذب، ولكني قد أسلمت [وآمنت بالله وصدقت رسوله]، فثاروا إليه فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، وطلح أي أعيا عمر، فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا(٣).

---

(١) ابن هشام ١/٣٤٩-٣٥٠.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٨.

(٣) ابن حبان [الإحسان] ٩/١٦ وابن هشام ١/٣٤٨، ٣٤٩ وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٨، ونحوه في المعجم الأوسط للطبراني ٢/١٧٢٥ ح١٣١٥.

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته، يريدون قتله. روى البخاري عن عبد الله ابن عمر قال: بينما هو - أي عمر - في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو، وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير، وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال له: ما لك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت، قال لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص، فلقي الناس قد سال بهم الوادي، فقال أين تريدون؟ فقالوا: هذا ابن الخطاب الذي قد صبأ، قال: لا سبيل إليه، فكر الناس[1] وفي لفظ في رواية ابن إسحاق: والله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه[2].

هذا بالنسبة إلى المشركين، أما بالنسبة إلى المسلمين فروى مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب، لأي شيء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام - ثم قص عليه قصة إسلامه وقال في آخره - قلت: أي حين أسلمت - يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى! والذي نفسي بيده، إنكم على الحق إن متم وإن حييتم، قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجنا في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرتْ إليّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله ﷺ (الفاروق) يومئذ[3].

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر[4].

(١) صحيح البخاري، باب إسلام عمر بن الخطاب ١/٥٤٥.

(٢) ابن هشام ١/٣٤٩.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٦، ٧.

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٠٣.

وعن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به(١).

وعن عبد الله بن مسعود قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر(٢).

تمثل قريش بين يدي الرسول ﷺ:

وبعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أفاق المشركون، وغيروا تفكيرهم في معاملتهم مع النبي ﷺ والمؤمنين. واختاروا أسلوب المساومات وتقديم الرغائب والمغريات.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً، قال يومًا، وهو في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من السطة(٣) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص١٣.

(٢) صحيح البخاري. باب إسلام عمر بن الخطاب ١/٥٤٥.

(٣) هي المنزلة الرفيعة المهيبة.

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ١: ٥] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها، يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم(١).

(١) ابن هشام ١/٢٩٣-٢٩٤، وجزء منه في المعجم الصغير للطبراني ١/٢٦٥.

وفي روايات أخرى أن عتبة استمع حتى إذا بلغ الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] قال: حسبك حسبك، ووضع يده على فم رسول الله ﷺ، وناشده بالرحم أن يكف، وذلك مخافة أن يقع النذير، ثم قام إلى القوم فقال ما قال(١).

رؤساء قريش يفاوضون رسول الله ﷺ

وكأن رجاء قريش لم ينقطع بما أجاب به النبي ﷺ عتبة على اقتراحاته؛ لأنه لم يكن صريحًا في الرفض أو القبول، بل تلا عليه النبي ﷺ آيات لم يفهمها عتبة، فتشاور رؤساء قريش فيما بينهم، ثم اجتمعوا يومًا عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس، وأرسلوا إلى النبي ﷺ يدعونه، فجاء مسرعًا يرجو خيرًا، فلما جلس إليهم قالوا له مثل ما قال عتبة، وعرضوا عليه نفس المطالب التي عرضها عتبة. ولكنه ﷺ قال لهم: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا. فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». أو كما قال.

فانتقلوا إلى نقطة أخرى، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يسير عنهم الجبال، ويبسط لهم البلاد، ويفجر فيها الأنهار، ويحيي لهم الموتى ـ ولا سيما قصي بن كلاب ـ فإن صدقوه يؤمنون به. فأجاب بنفس ما سبق من الجواب.

فانتقلوا إلى نقطة ثالثة وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعث له ملكًا يصدقه ويراجعونه فيه، وأن يجعل له جنات وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة. فأجابهم بنفس الجواب.

---

(١) ابن كثير ٤/ ٩٥، ٩٦، تفسير الآية المذكورة.

فانتقلوا إلى نقطة رابعة، وطلبوا منه العذاب: أن يسقط عليهم السماء كسفًا، كما يقول ويتوعد، فقال: «ذلك إلى الله،إن شاء فعل». فقالوا: أما علم ربك أنّا سنجلس معك، ونسألك ونطلب منك، حتى يعلمك ما تراجعنا به؛ وما هو صانع بنا إذا لم نقبل؟

وأخيراً هددوه أشد التهديد، وقالوا: أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. فقام رسول الله ﷺ عنهم. وانصرف إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته وما طمع من قومه(١).

عزم أبي جهل على قتل رسول الله ﷺ:

ولما انصرف رسول الله ﷺ عنهم خاطبهم أبو جهل في كبريائه وقال: (يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم)، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلي وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه، مرعوبًا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما

(١) ملخص مما رواه ابن إسحاق (ابن هشام ١/٢٩٥-٢٩٨) وابن المنذر وابن أبي حاتم (الدر المنثور ٤/٣٦٥، ٣٦٦).

دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه»(١).

مساومات وتنازلات:

ولما فشلت قريش في مفاوضتهم المبنية على الإغراء والترغيب، والتهديد والترهيب، وخاب أبو جهل فيما أبداه رأوا أن يلتقوا به في منتصف الطريق. فيتركوا بعض ما هم عليه، ويطالبوا النبي ﷺ بترك بعض ما هو عليه.

روى ابن إسحاق بسنده، قال: اعترض رسولَ الله ﷺ ـ وهو يطوف بالكعبة ـ الأسودُ بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليدُ بن المغيرة وأميةُ بن خلف والعاصُ ابن وائل السهمي ـ وكانوا ذوي أسنان في قومهم ـ فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ [الكافرون: ١، ٢] السورة كلها(٢).

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن عباس أن قريشاً قالت: لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك. فأنزل الله ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾ [الكافرون: ١] السورة كلها(٣).

وأخرج ابن جرير وغيره عنه أن قريشاً قالوا لرسول الله ﷺ تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فأنزل الله ﴿**قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ**﴾ [الزمر: ٦٤](٤).

---

(١) ابن هشام ١/٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) ابن هشام ١/٣٦٢.

(٣) الدر المنثور ٦/٦٩٢.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري: سورة الكافرون.

حيرة قريش وتفكيرهم الجاد واتصالهم باليهود:

أغلقت أمام المشركين السبل بعد فشلهم في هذه المفاوضات والمساومات والتنازلات، وتحيروا، فماذا يفعلون، حتى قام أحد شياطينهم: النضر بن الحارث، فنصحهم قائلاً: يا معشر قريش! والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد؛ قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر. لا والله ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن. لا والله ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر. لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

فلما نصحهم النضر بن الحارث بذلك كلفوه مع آخر أو آخرين ليذهب إلى يهود المدينة، فأتاهم فقال أحبارهم: سلوه عن ثلاث، فإن أخبر فهو نبي مرسل، وإلا فهو متقول. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؟ فإن لهم حديثًا عجبًا، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هي؟ فلما قدم مكة قال: جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. وأخبرهم بما قاله اليهود، فسألت قريش رسول الله ﷺ عن الأمور الثلاثة، فنزلت بعد أيام سورة الكهف، فيها قصة أولئك الفتية. وهم أصحاب الكهف، وقصة الرجل الطواف، وهو ذو القرنين، ونزل الجواب عن الروح في سورة الإسراء. وتبين لقريش أنه ﷺ على حق وصدق، ولكن أبى الظالمون إلا كفوراً[١].

هذه نبذة خفيفة مما واجه به المشركون دعوة رسول الله ﷺ، وقد مارسوا كل ذلك جنبًا إلى جنب ولكنهم عادوا خائبين. ولم يبق أمامهم إلا السيف، والسيف

(١) ابن هشام ١/٢٩٩-٣٠١.

لا يزيد الفرقة إلا شدة، ولا ينتج إلا عن تناحر يستأصل الشأفة، فتحيروا ماذا يفعلون؟

موقف أبي طالب وعشيرته:

أما أبو طالب فإنه لما واجه مطالبة قريش بتسليم النبي ﷺ لهم ليقتلوه، ثم رأى في تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله وإخفار ذمته ـ مثل ما فعله عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وعمر بن الخطاب ـ جمع بني هاشم وبني المطلب، ودعاهم إلى القيام بحفظ النبي ﷺ فأجابوه إلى ذلك كلهم ـ مسلمهم وكافرهم ـ حمية للجوار العربي، وتعاقدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة. إلا ما كان من أخيه أبي لهب، فإنه فارقهم، وكان مع قريش[١].

* * *

(١) ابن هشام ١/٢٦٩.

المقاطعة العامة

ميثاق الظلم والعدوان:

زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل، ووجدوا بني هاشم وبني المطلب مصممين على حفظ نبي الله ﷺ والقيام دونه، كائنًا ما كان، فاجتمعوا في خيف بني كنانة من وادي المحصب فتحالفوا على بنى هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق (أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل) قال ابن القيم: يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نضر بن الحارث، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده(١).

تم هذا الميثاق، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب - وحبسوا في شعب أبي طالب، وذلك فيما يقال: ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. وقد قيل غير ذلك.

ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب:

واشتد الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم

---

(١) انظر صحيح البخاري (الفتح ٣/٥٢٩ ح١٥٨٩، ١٥٩٠، ٣٨٨٢، ٤٢٨٤، ٤٢٨٥، ٧٤٧٩، وزاد المعاد ٢/٤٦.

يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سراً وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا شراءها.

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحًا إلى عمته خديجة - رضي الله عنها - وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البختري، ومكنه من حمل القمح إلى عمته.

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون في أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام، وقد أسلفنا ما كان يأتي به أبو لهب.

نقض صحيفة الميثاق:

مر عامان أو ثلاثة أعوام والأمر على ذلك، وفي المحرم(١) سنة عشر من النبوة نقضت الصحيفة وفك الحصار، وذلك أن قريشًا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهًا لها.

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي - وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفيًا بالليل بالطعام - فإنه ذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومي - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - وقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل

(١) الدليل على هذا أن أبا طالب مات بعد نقض الصحيفة بستة أشهر، والصحيح في موت أبي طالب أنه في شهر رجب. ومن يقول: إنه مات في رمضان فهو يقول إنه مات بعد نقض الصحيفة بثمانية أشهر وأيام.

الطعام، وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث تعلم. فقال: ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، قال: قد وجدت رجلاً. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير: ابغنا رجلاً ثالثًا.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فذكره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم، فقال المطعم: ويحك، ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو؟ قال: أنا. قال: ابغنا ثالثًا. قال قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعًا.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال لمطعم، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم ابن عدي، وأنا معك، قال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم، فاجتمعوا عند الحجون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة:

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد -: كذبت، والله لا تشق.

فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب. ما رضينا كتابتها حيث كتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به.

قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، تُشُووِر فيه بغير هذا المكان.

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد. إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله ﷺ على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش، فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذبًا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت.

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم). وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله.

ثم نقض الصحيفة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم كما أخبر الله عنهم ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢] أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفراً إلى كفرهم(١).

* * *

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخاري: باب نزول النبي ﷺ بمكة ١/٢١٦، وباب تقاسم المشركين على النبي ﷺ ١/٨٤٥، وزاد المعاد ٢/٤٦، وابن هشام ١/٣٥٠، ٣٥١، ٣٧٤، ٣٧٧، وغيرها.

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب، وجعل يعمل على شاكلته، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين، والصد عن سبيل الله، وأما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات، وإذا هو يلاحقه المرض ويشتد به، وخاف المشركون سوء سمعتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه، فقاموا بالمفاوضة في آخر وفادتهم إلى أبي طالب.

قال ابن إسحاق وغيره: لما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشًا ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ على ابن أخيه، وليعطه منا، والله ما نأمن أن يبتزونا[1] أمرنا، وفي لفظ: فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون إليه شيء فتعيرنا به العرب، يقولون تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه.

مشوا إلى أبي طالب فكلموه، وهم أشراف قومه؛ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، في رجال من أشرافهم - وهم خمسة وعشرون تقريبًا - فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه فقال: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف

(١) ابتزه أمره: سلبه إياه وغلبه عليه.

قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذي قالوا له وعرضوا عليه من عدم تعرض كل فريق للآخر. فقال لهم رسول الله ﷺ: «كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم» فلما قال ذلك توقفوا وتحيروا، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة؟ ثم قال أبو جهل: ما هي؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها، قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ماتعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا.

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿**صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ**﴾ [ص: ١-٧](١).

* * *

(١) ابن هشام ١/٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، وينظر أيضًا الترمذي ح٣٢٣٢ (٥/٣٤١). ومسند أبي يعلي ح٢٥٨٣ (٤/٤٥٦) وابن جرير في تفسيره.

عام الحزن

وفاة أبي طالب :

ألح المرض بأبي طالب، فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر[١]. وقيل: توفي في رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام.

وفي الصحيح عن المسيب: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: (أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، فنزلت: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾** [التوبة:١١٣] ونزلت: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾** [القصص: ٥٦][٢].

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحياطة والمنع، فقد كان الحصن الذي احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقي على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح. ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[٣].

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١١١.

(٢) صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ١/٥٤٨ ح٣٨٨٤.

(٣) صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ١/٥٤٨ ح٣٨٨٣، ٦٢٠٨، ٦٥٧٢.

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ ـ وذكر عنده عمه ـ فقال: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه)(١).

خديجة إلى رحمة الله:

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام ـ على اختلاف القولين ـ توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها، وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره(٢).

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه، وتؤازره في أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول الله ﷺ: «آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرم ولد غيرها»(٣).

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله هذه خديجة، قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب(٤).

تراكم الأحزان:

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله ﷺ، وكاشفه قومه بالنكال والأذى، فازداد غمًّا على

(١) صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ١/٥٤٨ ح٣٨٨٣، ٦٢٠٨، ٦٥٧٢.

(٢) نص على موتها في رمضان من تلك السنة ابن الجوزي في التلقيح ص٧.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٦/١١٨.

(٤) صحيح البخاري: باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ١/٥٣٩ ح١٧٩٢، ٣٨١٦، ٣٨١٧، ٣٨١٨، ٣٨١٩، ٣٨٢٠، ٥٢٢٩، ٦٠٠٤، ٧٤٨٤، ٧٤٩٧.

غم، حتى يئس منهم، وخرج إلى الطائف، فلم ير من يؤوي ولم ير ناصراً، بل آذوه أشد الأذى. ونالوا منه ما لم ينله قومه.

قال ابن إسحاق: لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابًا، ودخل بيته، والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك. قال: ويقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب[1].

ولأجل توالي مثل هذه الآلام في هذا العام سمي بعام الحزن، وعرف به في السيرة والتاريخ.

الزواج بسودة رضي الله عنها:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١٠ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ، سودة بنت زمعة، كانت ممن أسلم قديمًا، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران بن عمرو، وكان قد أسلم وهاجر معها، فمات بأرض الحبشة، أو بعد الرجوع إلى مكة، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة، وكانت قد وهبت نوبتها لعائشة رضي الله عنها أخيراً[2].

* * *

(١) ابن هشام ١/٤١٦.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٠.

الرسول ﷺ في الطائف

في شوال سنة عشر من النبوة (في أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩م) خرج النبي ﷺ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سارها ماشيًا على قدميه جيئة وذهابًا، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها.

فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة (أي يمزقها) إن كان الله أرسلك وقال الآخر: أما وجد الله أحداً غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك. فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني.

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سماطين (أي صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، وأتى رسول الله ﷺ إلى حبلة من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار. فلما جلس إليه واطمأن،

دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنًا مما لقى من الشدة، وأسفًا على أنه لم يؤمن به أحد، قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تلكني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا يقال له عداس، وقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرجل. فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلاً: (باسم الله)، ثم أكل. فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: أنا نصراني، من أهل (نِينَوى). فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: (ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبي)، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها. فقال ابنا ربيعة أحدهما للأخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه(١).

ورجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبًا محزونًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة.

---

(١) ملخصًا من ابن هشام ١/٤١٩ - ٤٢١.

وقد روى البخاري تفصيل القصة - بسنده - عن عروة بن الزبير، أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أي لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله، وهو قعيقعان - قال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئًا(١).

وفي هذا الجواب يتجلى ما كان عليه النبي ﷺ من الخلق العظيم. ومن الرحمة على الخلق أجمعين.

وأفاق رسول الله ﷺ، واطمأن قلبه لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمده الله عليه من فوق سبع سماوات، ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة، وأقام فيه أيامًا.

وخلال إقامته ﷺ هناك بعث الله إليه نفرًا من الجن(٢) ذكرهم الله في موضعين من القرآن: في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾

---

(١) صحيح البخاري. كتاب بدء الخلق ح٣٢٣١، ٧٣٨٩ فتح الباري ٦/ ٣٦٠ ومسلم: باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ٢/ ١٠٩.

(٢) لينظر صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ١/ ١٩٥. ح٧٧٣، ٤٩٢١.

قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩، ٣١].

وفي سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢] إلى تمام الآية الخامسة عشرة.

وحقًّا كان هذا نصراً آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون وقد بشرت الآيات بنجاح دعوة النبي ﷺ: ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٢]. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٠-١٥].

أمام هذه النصرة والبشارة انقشعت سحابة الكآبة والحزن، وصمم ﷺ على العود إلى مكة، لإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد.

وحينئذ قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني قريشًا، فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدى، فقال المطعم: نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمداً، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن

فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته.

وقيل: إن أبا جهل سأل مطعمًا: أمجير أنت أم متابع ـ مسلم ـ؟ قال: بل مجير قال: قد أجرنا من أجرت[١].

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع، فقال في أسارى بدر: لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له[٢].

* * *

(١) ابن هشام ١/ ٣٨١ مختصرًا، وزاد المعاد ٢/ ٤٦، ٤٧.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٥٧٣.

عرض الإسلام على القبائل

في ذي القعدة سنة عشر من النبوة ـ في أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩م ـ عاد رسول الله ﷺ إلى مكة؛ وقد اقترب موسم الحج، فأتى على القبائل قبيلة قبيلة، يعرض عليهم الإسلام، ويدعوهم إليه، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة للنبوة. وقد بدأ يطلب منهم من هذه السنة ـ العاشرة ـ أن يؤووه وينصروه ويمنعوه حتى يبلغ ما بعثه الله به.

القبائل التي عرض عليها الإسلام:

قال الزهري: وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم، وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد(١).

وكان عرض الإسلام على هذه القبائل ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة.

المؤمنون من غير أهل مكة:

أما الأفراد فقد أسلم منهم من يأتي:

١ ـ سويد بن صامت ـ كان شاعراً لبيباً، من سكان يثرب، يسميه قومه الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجًّا أو معتمراً، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال: لعل الذي معك مثل الذي معي. فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي

(١) ابن سعد ١/٢١٦.

معك؟ قال: حكمة لقمان. قال: اعرضها علي. فعرضها، فقال له رسول الله ﷺ: إن هذا لكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ، هو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فأسلم، وقال: إن هذا لقول حسن. فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل في وقعة بين الأوس والخزرج قبل يوم بعاث[1]. والأغلب أنه أسلم في أوائل السنة الحادية عشرة من النبوة.

٢ ـ إياس بن معاذ ـ كان غلامًا حدثًا من سكان يثرب، قدم في وفد من الأوس، جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وذلك قبيل حرب بعاث في أوائل سنة ١١ من النبوة، إذ كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين القبيلتين ـ وكان الأوس أقل عددًا من الخزرج ـ فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم، فجلس إليهم، وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع ـ رجل من الوفد ـ حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس، وقال: دعنا عنك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش.

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك، وكان يهلل ويكبر، ويحمد ويسبح عند موته، فلا يشكون أنه مات مسلمًا[2].

٣ ـ أبو ذر الغفاري ـ وكان من سكان نواحي يثرب، ولعله لما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبي ﷺ بسويد بن صامت وإياس بن معاذ وقع في أذن أبي ذر أيضًا، وصار سببًا لإسلامه.

---

(١) ابن هشام ١/٤٢٥ ـ ٤٢٧، والاستيعاب ٢/٦٧٧، وأسد الغابة ٢/٣٣٧.

(٢) ابن هشام ١/٤٢٧، ٤٢٨، ومسند أحمد ٥/٤٢٧.

روى البخاري عن ابن عباس قال: قال أبو ذر: كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل وكلمه، وأتني بخبره، فانطلق، فلقيه، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر، فقلت له: لم تشفني من الخبر، فأخذت جرابًا وعصا، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد. قال: فمر بي عليّ. فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت: نعم. فقال: فانطلق إلى المنزل، فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أسأله ولا أخبره. فلما أصبحت غدوت إلي المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء. قال: فمر بي علي فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قال: قلت لا. قال: فانطلق معي، قال: فقال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟ قال: قلت له: إن كتمت عليّ أخبرتك، قال: فإني أفعل، قال: قلت له: بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي يكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه. فقال له: أما إنك قد رشدت. هـذا وجهي إليـه، ادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحداً أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامض أنت. فمضى ومضيت معه حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض عليّ الإسلام، فعرضه، فأسلمت مكاني، فقال لي: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجئت إلى المسجد، وقريش فيه، فقلت: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكب عليّ ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار؟ ومتجركم وممركم على غفار. فأقلعوا عني. فلما أن أصبحت الغد، رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا

الصابئ، فصنع بي ما صنع بالأمس، فأدركني العباس، فأكب عليّ وقال مثل مقالته بالأمس(١).

٤ ـ طفيل بن عمرو الدوسي ـ كان رجلاً شريفًا ، شاعرًا لبيبًا، رئيس قبيلة دوس، وكانت لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن، قدم مكة في عام ١١ من النبوة، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجل تحية وأكرم تقدير، وقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئًا.

يقول طفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا، ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفًا؛ فرقًا من أن يبلغني شيء من قوله، قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا هو قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريبًا منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني رجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته، فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فعرضت عليه قصة مقدمي، وتخويف الناس إياي، وسد الأذن بالكرسف، ثم سماع بعض كلامه، وقلت له: اعرض علي أمرك، فعرض علي الإسلام، وتلا علي القرآن. فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، وقلت له: إني مطاع في قومي، وراجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية، فدعا.

---

(١) صحيح البخاري: باب قصة زمزم ١/٤٩٩، ٥٠٠، وباب إسلام أبي ذر ١/٥٤٤، ٥٤٥، ح٣٥٢٢.

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نوراً في وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم في غير وجهي. أخشى أن يقولوا: هذه مثلة، فتحول النور إلى سوطه، فدعا أباه وزوجته إلي الإسلام فأسلما، وأبطأ عليه قومه في الإسلام، لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق(١). ومعه سبعون أو ثمانون بيتًا من قومه، وقد أبلى في الإسلام بلاءً حسنًا، وقتل شهيداً يوم اليمامة(٢).

٥ - ضماد الأزدي - كان من أزد شنوءة من اليمن، وكان يرقي من هذا الريح، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، فلقيه، فقال: يا محمد، إني أرقي من هذا الريح، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد...». فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه(٣).

ست نسمات طيبة من أهل يثرب:

وفي موسم الحج من سنة ١١ من النبوة - يوليو سنة ٦٢٠م - وجدت الدعوة الإسلامية بذوراً صالحة، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات، اتقى المسلمون في ظلالها الوارفة لفحات الظلم والعدوان حتى تغير مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ.

---

(١) بل وبعد الحديبية، فقد قدم المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر، انظر ابن هشام ١/ ٣٨٥.

(٢) ابن هشام ١/ ٣٨٢ - ٣٨٥.

(٣) رواه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة ح٤٦ (٨٦٨).

وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين.

فخرج ليلة ومعه أبو بكر وعلي، فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة، وكلمهم في الإسلام. وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام(١).

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون. فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب، كلهم من الخزرج وهم:

(١) أسعد بن زرارة	(من بني النجار)
(٢) عوف بن الحارث بن رفاعة، ابن عفراء	(من بني النجار)
(٣) رافع بن مالك بن العجلان	(من بني زريق)
(٤) قطبة بن عامر بن حديدة	(من بني سلمة)
(٥) عقبة بن عامر بن نابي	(من بني حرام بن كعب)
(٦) جابر بن عبد الله بن رئاب	(من بني عبيد بن غنم)

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة، إذا كان بينهم شيء، أن نبيًّا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان، سيخرج فنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم(٢).

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: من مُوَالِي اليهود؟ أي حلفائهم، قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا

(١) انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٥٠ - ١٥٢.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٠، وابن هشام ١/ ٤٢٩، ٥٤١.

عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته، وأسلموا.

وكانوا من عقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب الأهلية التي مضت قريبًا، والتي لا يزال لهيبها مستعراً، فأملوا أن تكون دعوته سببًا لوضع الحرب، فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر رسول الله ﷺ(١).

استطراد - زواج رسول الله ﷺ بعائشة:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها، وهي بنت ست سنين وبنى بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين(٢).

* * *

(١) ابن هشام ١/٤٢٨ - ٤٣٠.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٠، صحيح البخاري ١/٥٥١٠ ح٣٨٩٤، ٣٨٩٦، ٥١٣٣، ٥١٣٤، ٥١٥٦، ٥١٥٨، ٥١٦٠ وصحيح مسلم.

الإسراء والمعراج

وبينما النبي ﷺ يمر بهذه المرحلة، وأخذت الدعوة تشق طريقًا بين النجاح والاضطهاد، وبدأت نجوم الأمل تتلمح في آفاق بعيدة، وقع حادث الإسراء والمعراج.

واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى:

(١) فقيل: كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة، واختاره الطبري.

(٢) وقيل: كان بعد المبعث بخمس سنين، رجح ذلك النووي والقرطبي.

(٣) وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة.

(٤) وقيل: قبل الهجرة بستة عشر شهراً، أي في رمضان سنة ١٢ من النبوة.

(٥) وقيل: قبل الهجرة بسنة وشهرين، أي في المحرم سنة ١٣ من النبوة.

(٦) وقيل: قبل الهجرة بسنة، أي في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة(١).

ورُدَّت الأقوال الثلاثة الأول بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أنْ تفرض الصلوات الخمس. ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء. أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحداً منها، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جداً.

وروى أئمة الحديث تفاصيل هذه الوقعة. وفيما يلي نسردها بإيجاز: قال ابن القيم: أسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت

(١) وفيه اختلاف أكثر من هذا، انظر فتح الباري ٧/٢٤٢، ٢٤٣ ط٢: سلفية شرح باب المعراج، زاد المعاد ٢/٤٩.

المقدس، راكبًا على البراق، بصحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إمامًا، وربط البراق بحلقة باب المسجد.

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له، فرأى هنالك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرحب به ورد عليه السلام، وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره.

ثم عرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، فلقيهما وسلم عليهما، فردا عليه، ورحبا به، وأقرا بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقي فيها موسى بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلامًا بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي.

ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم عليه السلام، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم رفع إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، ثم غشيها فراش من ذهب، ونور وألوان، فتغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها. ثم رفع له البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم

سبعون ألف ملك ثم لا يعودون. ثم أدخل الجنة، فإذا فيها جبال اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك. وعرج به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام.

ثم عرج به إلى الجبّار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مرّ على موسى فقال له: بم أمرك ربك؟ قال: بخمسين صلاة. قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل، كأنه يستشيره في ذلك، فأشار: أن نعم، إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى، وهو في مكانه ـ هذا لفظ البخاري في بعض الطرق ـ فوضع عنه عشراً، ثم أنزل حتى مر بموسى فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، حتى جعلها خمسًا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربي، ولكني أرضى وأسلم، فلما بعد نادى مناد: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي ـ انتهى[1].

وقد جاء في بعض الطرق أن صدره ﷺ شق في هذه المرة أيضًا، وقد رأى النبي ﷺ في هذه الرحلة أموراً عديدة:

عرض عليه اللبن والخمر، فاختار اللبن، فقيل: هديت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

ورأى أربعة أنهار يخرجن من أصل سدرة المنتهى: نهران ظاهران ونهران باطنان، فالظاهران هما: النيل والفرات، عنصرهما. والباطنان: نهران في الجنة. ولعل رؤية النيل والفرات كانت إشارة إلى تمكن الإسلام من هذين القطرين. والله أعلم.

---

(١) زاد المعاد ٢/٤٧، ٤٨، مع زيادات ثبتت في الروايات الصحيحة. وانظر صحيح البخاري ١/٥٠، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٨١، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٢/٦٨٤، صحيح مسلم ١/٩١-٩٦.

ورأى مالكًا خازن النار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بشر ولا بشاشة، وكذلك رأى الجنة والنار.

ورأى أكلة أموال اليتامى ظلمًا لهم مشافر كمشافر الإبل، يقذفون في أفواههم قطعًا من نار كالأفهار، فتخرج من أدبارهم.

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لا يقدرون لأجلها أن يتحولوا عن أماكنهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطؤونهم.

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون الطيب السمين.

ورأى النساء اللاتي يُدخِلن على الرجال من ليس من أولادهم، رآهن معلقات بثُديِّهن.

ورأى عيرًا من أهل مكة في الإياب والذهاب، وقد دلهم على بعير نَدَّ لهم، وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون، ثم ترك الإناء مغطى، وقد صار ذلك دليلاً على صدق دعواه في صباح ليلة الإسراء(١).

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهم عليه، سألوه أن يصف لهم بيت المقدس، فجلاه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئًا، وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، فكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وأبى الظالمون إلا كفورًا(٢).

---

(١) المصادر السابقة وابن هشام ١/٣٩٧، ٤٠٢ - ٤٠٦.

(٢) زاد المعاد ١/٤٨، وانظر أيضًا صحيح البخاري ٢/٦٨٤، وصحيح مسلم ٩٦١، وابن هشام ١/٤٠٢، ٤٠٣.

يقال: سُمي أبو بكر الصديق رضي الله عنه صديقًا؛ لتصديقه هذه الوقعة حين كذبها الناس(١).

وأوجز وأعظم ما ورد في تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى: **﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾** [الإسراء: ١] وهذه سنة الله في الأنبياء، قال: **﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾** [الأنعام: ٧٥] وقال لموسى: **﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾** [طه: ٢٣].

* * *

(١) نفس المصدر الأخير ١/٣٩٩.

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا في موسم الحج سنة ١١ من النبوة، ووعدوا رسول الله ﷺ بإبلاغ رسالته في قومهم.

وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالى - موسم الحج سنة ١٢ من النبوة، يوليو سنة ٦٢١م - اثنا عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله ﷺ في العام السابق - والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رئاب - وسبعة سواهم. وهم:

(١) معاذ بن الحارث، ابن عفراء من بني النجار (من الخزرج)

(٢) ذكوان بن عبد القيس من بني زريق (من الخزرج)

(٣) عبادة بن الصامت من بني غنم (من الخزرج)

(٤) يزيد بن ثعلبة من حلفاء بني غنم (من الخزرج)

(٥) العباس بن عبادة بن نضلة من بني سليم (من الخزرج)

(٦) أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل (من الأوس)

(٧) عويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف (من الأوس)

الأخيران من الأوس، والبقية كلهم من الخزرج[١].

التقى هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى، فبايعوه بيعة النساء، أي وفق بيعتهن التى نزلت بعد الحديبية.

---

(١) ابن هشام ١/٤٣١ - ٤٣٣.

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «تعالوا، بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه». قال: فبايعته ـ وفي نسخة فبايعناه ـ على ذلك(١).

سفير الإسلام في المدينة:

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير في يثرب، ينشر الإسلام، ويفقههم في الدين، واختاروا لذلك مصعب بن عمير العبدري رضي الله عنه.

النجاح المغتبط:

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة، وأخذا يبثان الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس، وكان مصعب يعرف بالمقرئ.

ومن أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يومًا يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخلا في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين ـ وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك ـ فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

---

(١) صحيح البخاري: باب بعد باب حلاوة الإيمان ١/٧، باب وفود الأنصار ١/٥٥٠، ٥٥١، واللفظ من هذا الباب، وباب قوله تعالى: (إذا جاءك المؤمنات) ٢/٧٢٧، باب الحدود كفارة ٢/١٠٠٣ ح١٨، ٣٨٩٢، ٣٨٩٣، ٣٩٩٩، ٤٨٩٤، ٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٧٠٥٥، ٧١٩٩، ٧٢١٣، ٧٤٦٨.

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. وجاء أسيد فوقف عليهما متشتماً، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتَسَهُّلِه، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. فقام واغتسل وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين، ثم قال: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن ـ سعد بن معاذ ـ ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه، وهم جلوس في ناديهم. فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ـ وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ـ ليخفروك. فقام سعد مغضباً للذي ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟

وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله سيد مَنْ وراء منه قومه، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أوتقعد فتسمع؟ فإن

رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال: قد أنصفت، ثم ركز حربته فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتَسَهُّلِه، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. ففعل ذلك.

ثم أخذ حربته فأقبل إلى نادي قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذى ذهب به.

فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، إلا رجل واحد ـ وهو الأصيرم ـ تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النبي ﷺ: «عمل قليلاً وأجر كثيراً».

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل. كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر ـ وكانوا يطيعونه ـ فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

وقبل حلول موسم الحج ـ من السنة الثالثة عشرة عاد مصعب إلى مكة يحمل بشائر الفوز ويقص ما في قبائل يثرب من مواهب الخير ومن القوة والمنعة(١).

* * *

(١) ابن هشام ١/٤٣٥ـ٤٣٨ و٢/٩٠ وزاد المعاد ٢/٥١.

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة - يونيو سنة ٦٢٢م - حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق - حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذى عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل.

وقد وصف كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه هذا الاجتماع التاريخي فقال: «خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله ابن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا - فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا. ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيبًا.

قال كعب: «فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطاة مستخفين، حتى

اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان من نسائنا؛ نسيبة بنت كعب ـ أم عمارة ـ من بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو ـ أم منيع ـ من بني سلمة».

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه عمه: العباس بن عبد المطلب ـ وهو يومئذ على دين قومه ـ إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وكان أول متكلم(١).

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسئولية:

تكلم العباس ليشرح لهم ـ بكل صراحة ـ خطورة المسئولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف. فقال:

«يا معشر الخزرج ـ وكان العرب يسمون الأنصار خزرجًا، خزرجها وأوسها كليهما ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده. وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه؛ فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده».

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت(٢).

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم صميم، وشجاعة مؤمنة، وإخلاص كامل في تحمل هذه المسئولية العظيمة، وتحمل عواقبها الخطيرة.

وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه، ثم تمت البيعة.

---

(١) ابن هشام ١/٤٤٠، ٤٤١.

(٢) ابن هشام ١/٤٤١، ٤٤٢.

بنود البيعة :

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلاً. قال جابر: قلنا: يا رسول الله عَلامَ نبايعك؟ قال:

(١) على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

(٢) وعلى النفقة في العسر واليسر.

(٣) وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٤) وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم.

(٥) وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة(١).

وفي رواية كعب - التي رواها ابن إسحاق - البند الأخير فقط من هذه البنود، ففيه «قال كعب: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيًّا، لنمنعنك مما نمنع أُزُرَنا منه، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر.

قال: فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ٣ / ٣٢٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٩ / ٩، وصححه الحاكم وابن حبان، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت، وفيه بند زائد، وهو - أن لا ننازع الأمر أهله - انظر ابن هشام ١ / ٤٥٤.

(٢) ابن هشام ١ / ٤٤٢.

التأكيد من خطورة البيعة:

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا في مواسم سنتي ١١و ١٢ من النبوة، قام أحدهما تلو الآخر، ليؤكدا للقوم خطورة المسئولية، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية، ويتأكدا من ذلك.

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نضلة: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: «الجنة» قالوا ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه(١).

وفي رواية جابر (قال): فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو أصغر السبعين - فقال: رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله(٢).

---

(١) ابن هشام ١/٤٤٦.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث جابر ٣/٣٢٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٩/٩.

عقد البيعة :

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة، قال جابر - بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة -: فقالوا يا أسعد، أمط عنا يدك. فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها(١)، وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل، وتأكد منه - وكان هو الداعية الكبير مع مصعب ابن عمير - فكان هو السابق إلى هذه البيعة. قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده(٢). وبعد ذلك بدأت البيعة العامة، قال جابر: فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة(٣).

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولا؛ ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط(٤).

اثنا عشر نقيبًا :

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ أن يختاروا اثنى عشر زعيمًا يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسئولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: أخرجوا إليّ منكم اثنى يشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فتم اختيارهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهاك أسماءهم:

---

(١) نفس المصدرين.

(٢) قال ابن إسحاق: وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان، وقال كعب بن مالك: بل البراء بن معرور (ابن هشام ١/٤٤٧) قلت: لعلهم حسبوا ما دار بينهما وبين الرسول ﷺ من الحوار بيعة، وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذ ذاك هو أسعد بن زرارة. والله أعلم.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٣٢٢.

(٤) انظر صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء ٢/١٣١.

نقباء الخزرج:

(١) أسعد بن زرارة بن عدس.

(٢) سعد بن الربيع بن عمرو.

(٣) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة.

(٤) رافع بن مالك بن العجلان.

(٥) البراء بن معرور بن صخر.

(٦) عبد الله بن عمرو بن حرام.

(٧) عبادة بن الصامت بن قيس.

(٨) سعد بن عبادة بن دليم.

(٩) المنذر بن عمرو بن خنيس.

نقباء الأوس:

(١) أسيد بن حضير بن سماك.

(٢) سعد بن خيثمة بن الحارث.

(٣) رفاعة بن عبد المنذر بن زبير[١].

ولما تم اختيار هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقًا آخر بصفتهم رؤساء مسئولين.

قال لهم: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم[٢].

(١) زبير بالباء الموحدة، وقيل: بالنون. وقد قيل بدل رفاعة، أبو الهيثم بن التيهان.

(٢) ابن هشام ١ /٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦.

شيطان يكتشف المعاهدة:

ولما تم إبرام المعاهدة، وكان القوم على وشك الانفضاض، اكتشفها أحد الشياطين، وصاح بأنفذ صوت سمع قط: «يا أهل الأخاشب - المنازل - هل لكم في محمد والصباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم».

فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب العقبة، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك». ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم(١).

استعداد الأنصار لضرب قريش:

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عبادة بن نضلة: «والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا».

فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا(٢).

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب:

وفي الصباح توجه وفد من زعماء مكة إلى مخيم أهل يثرب، ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة، قال الوفد:

«يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»(٣).

وانبعث المشركون من أهل المدينة يحلفون بالله: ما كان من شيء، وما علمناه، حتى أتوا عبد الله بن أبي ابن سلول، فجعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا، وما

(١) ابن هشام ١/٤٤٧، وزاد المعاد ٢/٥١.
(٢) ابن هشام ١/٤٤٨.
(٣) نفس المصدر ١/٤٤٨.

كان قومي ليفتاتوا علي بمثل هذا. لو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني.

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض، ثم لاذوا بالصمت، فلم يتحدث أحد منهم بنفي أو إثبات. ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين، فرجعوا خائبين.

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين:

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر، لكنهم لم يزالوا يتنطسونه - يكثرون البحث عنه ويدققون النظر فيه - حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح، والبيعة قد تمت فعلاً. وذلك بعد ما نفر الحجيج إلى أوطانهم، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربيين، ولكن بعد فوات الأوان، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد ابن عبادة والمنذر بن عمرو فطاردوهما، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فألقوا القبض عليه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة، فجاء المطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم؛ إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه، فإذا هو قد طلع عليهم، فوصل القوم جميعاً إلى المدينة(١).

هذه هي بيعة العقبة الثانية - التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى - وكانت تمهيداً لهجرة رسول الله ﷺ والمؤمنين.

* * *

(١) زاد المعاد ٢/٥١، ٥٢، ابن هشام ١/٤٤٨ - ٤٥٠.

طلائع الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية، ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة - وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته - أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن.

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص فحسب، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان.

وبدأ المسلمون يهاجرون، وهم يعرفون كل ذلك، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم، لما كانوا يحسون من الخطر، وهاك نماذج من ذلك:

(١) **كان من أول المهاجرين أبو سلمة** - هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق - وزوجته وابنه، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فأخذوا منه زوجته، وغضب آل أبي سلمة لرجلهم، فقالوا لا نترك ابننا معها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا، وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده، وذهبوا به. وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة.

وكانت أم سلمة رضي الله عنها بعد ذهاب زوجها، وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تمسي، ومضى على ذلك نحو سنة، فرق لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت، فاسترجعت ابنها من عصبته، وخرجت تريد المدينة -

رحلة تبلغ حوالي خمس مئة كيلو متر تمر بين شواهق الجبال ومهالك الأودية - وليس معها أحد من خلق الله. حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة، فلما نظر إلى قباء قال: زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة(١).

(٢) **وهاجر صهيب بن سنان الرومي**: بعد رسول الله ﷺ، فلما أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني قد جعلت لكم مالي، فلبغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»(٢).

(٣) **وتواعد عمر بن الخطاب**، وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص ابن وائل موضعًا اسمه التناضب فوق سرف، يصبحون عنده، ثم يهاجرون إلى المدينة، فاجتمع عمر وعياش، وحبس عنهما هشام.

ولما قدما المدينة، ونزلا بقباء، قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش - وأم الثلاثة واحدة، وهي أسماء بنت مخربة - فقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل بشمس حتى تراك، فرق لها. فقال له عمر: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، فأبى عياش إلا الخروج معهما ليبر قسم أمه، فقال له عمر: أما إذا قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

---

(١) ابن هشام ١/٤٦٨ - ٤٧٠.

(٢) نفس المصدر ١/٤٧٧.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا ابن أمي والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة نهاراً موثقًا، وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا(١).

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك ولكن على رغم ذلك خرج الناس أرسالاً يتبع بعضهم بعضا. وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي - أقاما بأمره لهما - وإلا من احتبسه المشركون كرهًا، وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج، وأعد أبو بكر جهازه(٢).

روى البخارى عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ للمسلمين: إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي. فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر(٣).

* * *

(١) بقي هشام وعياش في قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ﷺ قال يومًا: من لي بعياش وهشام؟ فقال الوليد بن الوليد: أنا لك يا رسول الله بهما، فقدم الوليد مكة مستخفيًا، ولقي امرأة تحمل إليهما طعامًا فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور الجدار، وقطع قيديهما وحملهما على بعيره حتى قدم المدينة (انظر ابن هشام ١ / ٤٧٤ - ٤٧٦) وكان قدوم عمر المدينة في عشرين من الصحابة (صحيح البخاري ١ / ٥٥٨) ح٣٩٢٥.

(٢) زاد المعاد ٢ / ٥٢.

(٣) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ١ / ٥٥٣ ح٢٢٩٧، ٣٩٠٥، ٥٨٠٧.

في دار الندوة برلمان قريش

كان المشركون يعرفون ما في رسول الله ﷺ من غاية قوة التأثير، وما في أصحابه من العزيمة والفداء، وما في قبائل الأوس والخزرج من القوة والمنعة، وما للمدينة من الموقع الاستراتيجي بالنسبة لتجارتهم إلى الشام، فأخذوا يبحثون عن أنجح وسيلة لدفع الخطر الذي كان يكمن في تمركز المسلمين بالمدينة.

وفي يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م(١) - أي بعد شهرين ونصف تقريباً من بيعة العقبة الكبرى - عقد برلمان مكة (دار الندوة) في أوائل النهار(٢) أخطر اجتماع له في تاريخه، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء على هذا الخطر الداهم، وكانت الوجوه البارزة في هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش:

(١) أبو جهل بن هشام، عن قبيلة بني مخزوم.

(٢، ٣، ٤) جبير بن مطعم، وطعيمة بن عدي، والحارث بن عامر، عن بني نوفل بن عبد مناف.

(٥، ٦، ٧) شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، عن بني عبد شمس ابن عبد مناف.

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات العلمية التي سجلها العلامة محمد سليمان المنصورفوري في رحمة للعالمين ١/ ٩٥، ٩٧، ١٠٢، ٢/ ٤٧١.

(٢) يدل على انعقاد هذا الاجتماع في أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق أن جبريل أخبر النبي ﷺ بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن في الهجرة. ثم ما رواه البخاري من حديث عائشة أن النبي ﷺ جاء أبا بكر في نحر الظهيرة وقال له: - قد أذن لي في الخروج - وسيأتي.

(٨) النضر بن الحارث، عن بني عبد الدار.

(٩، ١٠، ١١) أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، عن بني أسد بن عبد العزى.

(١٢، ١٣) نبيه ومنبه ابنا الحجاج، عن بني سهم.

(١٤) أمية بن خلف، عن بني جمح.

ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بتلة[١]، ووقف على الباب، فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا. قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم.

النقاش البرلماني والإجماع على قرار غاشم بقتل النبي ﷺ

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول، ودار النقاش طويلاً. قال أبو الأسود: نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا، ولا نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب، ثم يسير بهم إليكم ـ بعد أن يتابعوه ـ حتى يطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيًا غير هذا. قال أبو البختري: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله ـ زهيرًا والنابغة ـ ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

---

(١) البتلة: الكساء الغليظ.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوا على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين قدم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه، تقدم به كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام. قال أبو جهل: «والله إن لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًّا جَلْدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه. فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم».

قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره[1].

ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع، ورجع النواب إلى بيوتهم وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فورًا.

* * *

(١) انظر ابن هشام ١ / ٤٨٠ - ٤٨٢.

هجرة النبي ﷺ

بين تدبير قريش وتدبير الله سبحانه وتعالى

من طبيعة مثل هذا الاجتماع السري للغاية، وأن لا يبدو على السطح الظاهر أي حركة تخالف اليوميات، وتغاير العادات المستمرة، حتى لا يشم أحد رائحة التآمر والخطر، ولا يدور في خلد أحد أن هناك غموضاً ينبئ عن الشر، وكان هذا مكراً من قريش، ولكنهم ماكروا بذلك الله سبحانه وتعالى، فخيبهم من حيث لا يشعرون. فقد نزل جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ بوحي من ربه تبارك وتعالى، فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة، وبين له خطة الرد على قريش فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه(١).

وذهب النبي ﷺ في الهاجرة ـ حين يستريح الناس في بيوتهم ـ إلى أبى بكر رضى الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة، قالت عائشة رضى الله عنها: بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ متقنعاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخْرِج مَنْ عندك. فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله. قال: فإني قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: نعم(٢).

(١) ابن هشام ١/٤٨٢، زاد المعاد ٢/٥٢.

(٢) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ١/٥٥٣ وانظر للهجرة ح٤٧٦، ٢١٣٨، ٢٢٦٣، ٢٢٦٤، ٢٢٩٧، ٣٩٠٥، ٤٠٩٣، ٥٨٠٧، ٦٠٧٩ من صحيح البخاري.

ثم أبرم معه خطة الهجرة، ورجع إلى بيته ينتظر مجيء الليل. وقد استمر في أعماله اليومية حسب المعتاد حتى لم يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة، أو لأي أمر آخر؛ اتقاء مما قررته قريش.

تطويق منزل الرسول ﷺ :

أما أكابر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد سرًّا لتنفيذ الخطة المرسومة التي أبرمها برلمان مكة «دار الندوة» صباحًا، واختير لذلك أحد عشر رئيسًا من هؤلاء الأكابر، وهم:

(١) أبو جهل بن هشام.

(٢) الحكم بن أبي العاص.

(٣) عقبة بن أبي معيط.

(٤) النضر بن الحارث.

(٥) أمية بن خلف.

(٦) زمعة بن الأسود.

(٧) طعيمة بن عدي.

(٨) أبو لهب.

(٩) أبي بن خلف.

(١٠) نبيه بن الحجاج.

(١١) أخوه منبه بن الحجاج[١].

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام في أوائل الليل بعد صلاة العشاء، ويخرج بعد نصف الليل إلى المسجد الحرام، يصلي فيه قيام الليل، فأمر عليًّا رضي الله عنه تلك الليلة أن يضطجع على فراشه، ويتسجى ببرده الحضرمي الأخضر، وأخبره أنه لا يصيبه مكروه.

---

(١) زاد المعاد ٢/٥٢.

فلما كانت عتمة من الليل، وساد الهدوء، ونام عامة الناس جاء المذكورون إلى بيته ﷺ سرًّا، واجتمعوا على بابه يرصدونه، وهم يظنونه نائمًا حتى إذا قام وخرج يثبوا عليه، وينفذوا ما قرروا فيه.

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنيئة، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء، وقال مخاطبًا لأصحابه المطوقين في سخرية واستهزاء: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها(١).

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل في وقت خروجه ﷺ من البيت، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر، ولكن الله غالب على أمره، بيده ملكوت السماوات والأرض، يفعل ما يشاء، وهو يجير ولا يجار عليه، فقد فعل ما خاطب به الرسول ﷺ فيما بعد: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** [الأنفال: ٣٠].

الرسول ﷺ يغادر بيته:

وقد فشلت قريش في خطتهم فشلاً ذريعًا مع غاية التيقظ والتنبه: إذ خرج رسول الله ﷺ من البيت، واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رءوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾** [يس: ٩]. فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ومضى إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً حتى لحقا بغار ثور في اتجاه اليمن(٢).

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٨٢، ٤٨٣.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٨٣، زاد المعاد ٢/ ٥٢.

وبقي المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم ببابه فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً. قال: خبتم وخسرتم، قد والله مر بكم، وذر على رءوسكم التراب، وانطلق لحاجته، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم.

ولكنهم تطلعوا من صير الباب فرأوا عليًّا، فقالوا والله إن هذا لمحمد نائمًا، عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، وقام علي عن الفراش، فسقط في أيديهم، وسألوه عن رسول الله ﷺ، فقال: لا علم لي به(١).

من الدار إلى الغار:

غادر رسول الله ﷺ بيته في ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة الموافق ١٢/١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م(٢). وأتى إلى دار رفيقه - وأمنّ الناس عليه في صحبته وماله - أبي بكر رضي الله عنه. ثم غادرا منزل الأخير من باب خلفي، ليخرجا من مكة على عجل، وقبل أن يطلع الفجر.

ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشًا ستجد في الطلب، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيس المتجه شمالاً، فسلك الطريق الذي يضاده تمامًا، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور، وهو جبل شامخ، وعر الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله ﷺ، وقيل: بل كان يمشي في الطريق على أطراف قدميه كي يخفي أثره فحفيت قدماه،

---

(١) نفس المصدرين السابقين.

(٢) رحمة للعالمين ١/٩٥ - ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشرة من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر محرم، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذي أكرم الله فيه نبيه ﷺ بالنبوة، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشرة قطعًا. وعامة من يكتب في السيرة ربما يختار هذا، وربما يختار ذاك، فكثيراً ما يتخبط في ترتيب الوقائع، ويقع في أغلاط، ونظراً إلى تلك اخترنا بداية السنين من شهر محرم.

وأيًا ما كان فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل، وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار في قمة الجبل عرف في التاريخ بغار ثور(١).

إذ هما في الغار:

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل فكسحه، ووجد في جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدّه به، وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل، فدخل رسول الله ﷺ، ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: مالك يا أبا بكر؟ قال: لدغت، فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ، فذهب ما يجده(٢).

وكمنا في الغار ثلاث ليال، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد(٣). وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما. قالت عائشة: وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. و(كان) يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينعق بها عامر ابن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث(٤). وكان عامر ابن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليعفي عليه(٥).

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١٦٧.

(٢) رواه رزين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه ثم انتقض عليه (أي رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته. انظر مشكاة المصابيح، باب مناقب أبي بكر ٢/٥٥٦.

(٣) انظر فتح الباري ٧/٣٣٦.

(٤) صحيح البخاري ١/٥٥٣، ٥٥٤.

(٥) ابن هشام ١/٤٨٦.

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة، فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليًّا، وسحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة، علهم يظفرون بخبرهما(١).

ولما لم يحصلوا من علي على جدوى جاءوا إلى بيت أبي بكر، وقرعوا بابه، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر، فقالوا لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدرى والله أين أبي. فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشًا خبيثًا ـ فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها(٢).

وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (في جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة. كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين، كائنًا ما كان(٣).

وحينئذ جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب، وانتشروا في الجبال والوديان، والوهاد والهضاب، لكن من دون جدوى وبغير عائدة.

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره، روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبى الله! لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: اسكت يا أبا بكر، اثنان، الله ثالثهما، وفي لفظ: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما(٤).

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٣٧٤.

(٢) ابن هشام ١/٤٨٧.

(٣) انظر صحيح البخاري ١/٥٥٤.

(٤) صحيح البخاري ١/٥١٦، ٥٥٨، ونحوه عند أحمد ١/٤ ولفظه: قلت للنبي ﷺ وهو في الغار، وقال مرة: ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا فقال: يا أبا بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما. ولم يكن فزع أبي بكر مخافة على نفسه، بل سببه الوحيد هو ما روي أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد =

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة.

في الطريق إلى المدينة:

وحين خمدت نار الطلب، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى، تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة.

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي، وكان هاديًا خريتًا ـ ماهراً بالطريق ـ وكان على دين كفار قريش، وأمناه على ذلك، وسلما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، فلما كانت ليلة الاثنين ـ غرة ربيع الأول سنة ١هـ/١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢م ـ جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين، وكان قد قال أبو بكر للنبي ﷺ عند مشاورته في البيت: بأبي أنت يا رسول الله خذ إحدى راحلتي هاتين، وقرب إليه أفضلهما، فقال رسول الله ﷺ بالثمن. وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاماً، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها عصام، فشقت نطاقها باثنين، فعلقت السفرة بواحد، وانطلقت بالآخر فسميت ذات النطاقين(١).

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، وارتحل معهما عامر بن فهيرة، وأخذ بهما الدليل ـ عبد الله بن أريقط ـ على طريق السواحل.

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غربًا نحو الساحل، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس، اتجه شمالاً على مقربة من شاطىء البحر الأحمر، وسلك طريقًا لم يكن يسلكه أحد إلا نادراً.

= حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة، فعندها قال له رسول الله ﷺ: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٦٨.

(١) صحيح البخاري ١/٥٥٣، ٥٥٥، وابن هشام ١/٤٨٦.

وقد ذكر ابن إسحاق المواضع التي مر بها رسول الله ﷺ في هذا الطريق قال: لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أُسفل من عسفان، ثم سلك بهما على أسفل أمج، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الخرار، ثم سلك بهما ثنية المرة، ثم سلك بهما لقفا، ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح، ثم سلك بهما مرجح مجاح، ثم تبطن بهما مرجح ذي الغضوين، ثم بطن ذي كشر، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم، من بطن أعداء مدلجة تعهن، ثم على العبابيد، ثم أجاز بهما الفاجة، ثم هبط بهما العرج. ثم سلك بهما ثنية العائر - عن يمين ركوبة - حتى هبط بهما بطن رئم، ثم قدم بهما على قباء(١). وهاك بعض ما وقع في الطريق:

(١) روى البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: أسرينا ليلتنا من الغد حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق، لا يمر فيه أحد، فرفعت لنا صخرة طويلة، لها ظل لم تأت عليها الشمس، فنزلنا عنده، وسويت للنبي ﷺ مكاناً بيدي؛ ينام عليه، وبسطت عليه فروة، وقلت: نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك، فنام وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل الذي أردنا، فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل المدينة أو مكة، قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب؟ قال: نعم فأخذ شاة، فقلت: انفض الضرع من التراب والشعر والقذى، فحلب في قعب كثبة من لبن، ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ، يرتوي منها، يشرب ويتوضأ، فأتيت النبي ﷺ، فكرهت أن أوقظه فوافقته حين استيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٩١، ٤٩٢.

أسفله، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قال: ألم يأن للرحيل؟ قلت: بلى، قال: فارتحلنا(١).

(٢)وكان من دأب أبي بكر رضي الله عنه أنه كان ردفًا للنبي ﷺ، وكان شيخًا يعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني الطريق، فيحسب الحاسب أنه يعني به الطريق، وإنما يعني سبيل الخير(٢).

(٣) وفي اليوم الثاني أو الثالث مر بخيمتي أم معبد الخزاعية، وكان موقعهما بالمشلل من ناحية قديد على بعد نحو ١٣٠ كيلو مترًا من مكة، وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقي من مر بها، فسألاها: هل عندها شيء؟ فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى والشاء عازب، وكانت سنة شهباء.

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك. فقال: أتاذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم - بأبي وأمي - إن رأيت بها حلبًا فاحلبها.

فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، فتفاجت عليه ودرت، فدعا بإناء لها يربض الرهط، فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها، فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب وحلب فيه ثانيًا، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها فارتحلوا.

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافًا يتساوكن هزلاً، فلما رأى اللبن عجب، فقال: من أين لك هذا؟ والشاة عازب، ولا حلوبة في البيت؟

(١) صحيح البخاري ١/ ٥١٠.

(٢) روى ذلك البخاري عن أنس ١/ ٥٥٦.

فقالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال: إني والله أراه صاحب قريش الذي تطلبه، صفيه لي يا أم معبد، فوصفته بصفاته الكريمة وصفًا بديعًا كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه ـ وسننقله في بيان صفاته ﷺ في أواخر الكتاب ـ فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونه ولا يرون القائل:

جزى الله رب العرش خير جزائه — رفيقين حلاَّ خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به — وأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصيٍّ ما زوى الله عنكم — به من فعال لا يحاذى وسؤدد
ليهْن بني كعب مكان فتاتهم — ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها — فإنكمُ إن تسألوا الشاة تشهد

قالت أسماء: ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه حتى خرج من أعلاها. قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة(١).

(٤) وتبعهما في الصريق سراقة بن مالك. قال سراقة: بينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا، ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني رأيت آنفًا أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه. قال سراقة فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن

(١) زاد المعاد ٢/٥٣، ٥٤، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٩، ١٠، وصححه، ووافقه الذهبي. ورواه البغوي في شرح السنة ١٣/٢٦٤.

تخرج فرسي، وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي، فركبتها، فعرفتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره! فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ ـ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات ـ ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتي جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني، ولم يسألاني إلا أن قال: أَخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب لي في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ(١).

وفي رواية عن أبي بكر قال: ارتحلنا، والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقة بن مالك بن جعشم، على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠](٢).

ورجع سراقة فوجد الناس في الطلب فجعل يقول: قد استبرأت لكم الخبر، قد كفيتم ما هاهنا. وكان أول النهار جاهداً عليهما، وآخره حارساً لهما(٣).

---

(١) صحيح البخاري ١/٥٥٤ ـ وكان مقر بني مدلج بالقرب من رابغ، وتبعهما سراقة حينما كانا مصعدين من قديد ـ زاد المعاد ٢/٥٣ ـ فالأغلب أنه تبعهما في اليوم الثالث من رحيلهما.

(٢) صحيح البخاري ١/٥١٦.

(٣) زاد المعاد ٢/٥٣.

(٥) وفي الطريق لقي النبي ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي ومعه نحو ثمانين بيتًا فأسلم وأسلموا، وصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة فصلوا خلفه، وأقام بريدة بأرض قومه حتى قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد، وعن عبد الله بن بريدة أن النبي ﷺ كان يتفاءل ولا يتطير، فركب بريدة في سبعين راكبًا من أهل بيته من بني سهم، فلقي النبي ﷺ، فقال له: ممن أنت؟ قال: من أسلم، فقال: لأبي بكر: سلمنا، ثم قال من بني من؟ قال: من بني سهم. قال: خرج سهمك(١).

(٦) ومر رسول الله ﷺ بأبي أوس تميم بن حجر أو بأبي تميم أوس بن حجر الأسلمي، بقحداوات بين الجحفة وهرشى - بالعرج - وكان قد أبطأ عليه بعض ظهره، فكان هو وأبو بكر على جمل واحد، فحملهما أوس على فحل من إبله، وبعث معهما غلامًا له اسمه مسعود، وقال: اسلك بهما حيث تعلم من محارم الطريق ولا تفارقهما، فسلك بهما الطريق حتى أدخلهما المدينة، ثم رد رسول الله ﷺ مسعوداً إلى سيده، وأمره أن يأمر أوسًا أن يسم إبله في أعناقها قيد الفرس، وهو حلقتان، ومد بينهما مداً، فهي سمتهم. ولما أتى المشركون يوم أحد أرسل أوس غلامه مسعود بن هنيدة من العرج على قدميه إلى رسول الله ﷺ يخبر بهم. ذكره ابن ماكولا عن الطبري، وقد أسلم بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة، وكان يسكن العرج(٢).

(٧) وفي الطريق - في بطن ريم - لقي رسول الله ﷺ الزبير، وهو في ركب من المسلمين، كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بياضًا(٣).

---

(١) أسد الغابة ١/٢٠٩.

(٢) نفس المصدر ١/١٧٣، وابن هشام ١/٤٩١.

(٣) روى ذلك البخاري عن عروة بن الزبير ١/٥٥٤.

النزول بقباء:

وفي يوم الاثنين، ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة ـ وهي السنة الأولى من الهجرة ـ الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م نزل رسول الله ﷺ بقباء(١).

قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة. فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح(٢). وتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة.

قال ابن القيم: وسمعت الوجبة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه: «﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]»(٣).

قال عروة بن الزبير: فتلقوا رسول الله ﷺ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول. فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي ـ وفي نسخة: يجيء ـ أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله

---

(١) رحمة للعالمين ١/١٠٢ ـ وفي هذا اليوم تم عمره ﷺ ثلاثة وخمسين عامًا كاملاً لا وكس ولا شطط، وتم على نبوته ثلاثة عشر عامًا كاملاً عند من يقول: إنه أكرم بالنبوة في ٩ ربيع الأول سنة ٤١ من عام الفيل، وأما من يقول: إنه أكرم بالنبوة في رمضان سنة ٤١ عام الفيل فعنده يتم على نبوته ـ في ذلك اليوم ـ اثنا عشر عامًا وخمسة أشهر و١٨ يومًا أو ٢٢ يومًا.

(٢) صحيح البخاري ١/٥٥٥.

(٣) زاد المعاد ٢/٥٤.

ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك(١).

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، وكان يومًا مشهوداً لم تشهد المدينة مثله في تاريخها، وقد رأى اليهود صدق بشارة حبقوق النبي: إن الله جاء من التيمان، والقدوس من جبال فاران(٢).

ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدوم، وقيل: بل على سعد بن خيثمة، والأول أثبت.

ومكث علي بن أبى طالب رضي الله عنه بمكة ثلاثًا حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس، ثم هاجر ماشيًا على قدميه حتى لحقهما بقباء، ونزل على كلثوم بن الهدم(٣).

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام: الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس(٤). وأسس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة، فلما كان اليوم الخامس - يوم الجمعة - ركب بأمر الله له، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار - أخواله - فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة وهم حوله(٥)، وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذى في بطن الوادي، وكانوا مئة رجل(٦).

---

(١) صحيح البخاري ١/٥٥٥.

(٢) صحيفة حبقوق (٣:٣).

(٣) ابن هشام ١/٤٩٣، زاد المعاد ٢/٥٤.

(٤) هذا ما رواه ابن إسحاق (ابن هشام ١/٤٩٤)، وفي صحيح البخاري أنه قام بقباء أربعًا وعشرين ليلة (١/٦١) وبضع عشرة ليلة (١/٥٥٥) وأربع عشرة ليلة ١/٥٦٠) وهذا الأخير هو الذي اختاره ابن القيم، وقد صرح هو نفسه أن نزوله (بقباء كان يوم الاثنين وخروجه يوم الجمعة (زاد المعاد ٢/٥٤-٥٥) ومعلوم أن فصل ما بينهما لا يزيد على عشرة أيام سوى يومي الدخول والخروج، ومعهما لا يزيد على اثني عشر يومًا إذا كانا من أسبوعين.

(٥) صحيح البخاري ١/٥٥٥، ٥٦٠.

(٦) ابن هشام ١/٤٩٤، زاد المعاد ٢/٥٥.

الدخول في المدينة

ثم سار النبي ﷺ بعد الجمعة حتى دخل المدينة ـ ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ، ويعبر عنها بالمدينة مختصراً وكان يوماً مشهوداً أغر، فقد ارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، وتغنت بنات الأنصار بغاية الفرح والسرور(١).

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

والأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه. فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفّتْ ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار ـ أخواله ﷺ ـ وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله، يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: المرء مع رحله، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، فكانت عنده(٢).

(١) رجح ابن القيم أن هذه الأبيات أنشدت عند مرجعه ﷺ من تبوك، ووهم من يقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد ٣ / ١٠) لكن ابن القيم لم يأت على هذا التوهيم بدليل يشفي، وقد استنبط العلامة المنصور فوري من إشارات وتصريحات صحف أنبياء بني إسرائيل أن هذا حصل عند مقدمه ﷺ المدينة، وهو استنباط قوي، ولا يستبعد أن تكون هذه الأبيات أنشدت في الموقعين.

(٢) ابن هشام ١ / ٤٩٤ ـ ٤٩٦، زاد المعاد ٢ / ٥٥.

وفي رواية أنس عند البخاري، قال نبي الله ﷺ : أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب : أنا يا رسول الله، هذه داري، وهذا بابي . قال : فانطلق فَهَيِّئْ لنا مقيلاً، قال : قوما على بركة الله(١) .

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبي العاص، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر(٢) .

قالت عائشة : وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، فكان بطحان يجري نجلاً، أي ماءً آجنًا .

وقالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، فدخلت عليهما فقلت : يا أباه كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردنْ يومًا مياه مجنة وهل يَبدُوَن لي شامة وطفيل

قالت عائشة : فجئت رسول الله ﷺ ، فأخبرته، فقال : اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء . ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك في صاعها ومدها، وانقل حُمّاها فاجعلها بالجحفة(٣) .

---

(١) صحيح البخاري ١/٥٥٦ .
(٢) زاد المعاد ٢/٥٥ .
(٣) صحيح البخاري مع الفتح ٤/١١٩ ح١٨٨٩، وأيضًا ٣٩٢٦، ٥٦٥٤، ٥٦٧٧، ٣٦٧٢ .

وقـد استـجـاب الله دعـاءه ﷺ، فـأري في المنام أن امـرأة سـوداء ثائـرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت بالمهيعة، وهي الجحفة. وكان ذلك عبارة عن نقل وباء المدينة إلى الجحفة، وبذلك استراح المهاجرون عما كانوا يعانونه من شدة مناخ المدينة.

* * *

الحياة في المدينة

تقدم أن رسول الله ﷺ نزل بالمدينة في بني النجار يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢م)، في موضع المسجد النبوي، ثم انتقل إلى بيت أبي أيوب رضي الله عنه.

بناء المسجد النبوي

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو بناء المسجد النبوي، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته ﷺ. فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان يقول:

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في العمل، حتى إن أحدهم ليقول:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وكانت في ذلك المكان قبور للمشركين، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غرقد، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل والشجرة فقطعت، وصفت في قبلة المسجد، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وجعلت عضادتاه من حجارة، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين، وجعل سقفه من جريد النخل، وعمده الجذوع، وفرشت أرضه بالرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مئة ذراع، والجانبان مثل ذلك أو دونه، وكان أساسه قريباً من ثلاث أذرع.

وبنى بجانبه بيوتًا بالحجر واللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، وهي حجرات أزواجه ﷺ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب(١).

ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقي وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات، وبرلمانًا لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية.

وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

وفي أوائل الهجرة شرع الأذان، تلك النغمة العلوية التي تدوي في الآفاق، وتهز أرجاء الوجود، وتعلن كل يوم خمس مرات بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتنفي كل كبرياء في الكون، وكل دين في الوجود، إلا كبرياء الله، والدين الذي جاء به عبده محمد رسول الله. وقد تشرف برؤيته ـ أي الأذان ـ في المنام أحد الصحابة الأخيار عبد الله بن زيد بن عبد ربه رضي الله عنه، فأقره النبي ﷺ، وقد وافقت رؤياه رؤيا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والقصة بكاملها مروية في كتب السنة والسيرة(٢).

المؤاخاة بين المسلمين

ثم إن النبي ﷺ بجانب قيامه ببناء المسجد، مركز التجمع والتألف، قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، إلى حين وقعة بدر، فلما

(١) صحيح البخاري ١/٧١، ٥٥٥، ٥٦٠، زاد المعاد ٢/٥٦.

(٢) رواه الترمذي: الصلاة، بدء الأذان ح١٨٩ (١/٣٥٨، ٣٥٩) وأبو داود وأحمد وغيرهم.

أنزل الله عز وجل ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦] رد التوارث، دون عقد الأخوة.

وقد قيل: إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية.... والثبت الأول، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة فيها بينهم، بخلاف المهاجرين مع الأنصار(١) اهـ.

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، وتسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلا للإسلام.

وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير في هذه الأخوة، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

روى البخاري: أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: مهيم؟ قال: تزوجت. قال: كم سقت إليها؟ قال: نواة من ذهب(٢).

وروي عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا، فقالوا: فتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا(٣).

---

(١) زاد المعاد ٢/٥٦.

(٢) نواة الذهب كانت قيمتها يومئذ خمسة دراهم، وقيل: كان قدرها ربع دينار. صحيح البخاري: باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ١/٥٥٣.

(٣) صحيح البخاري: باب إذا قال: اكفني مؤنة النخل إلخ (مع فتح الباري ٤/٣٣٧، ح٢٠٤٩ وأيضاً ح٢٢٩٣، ح٢٥٢٩، وقصة المؤاخاة مروية من صحيح مسلم حديث ٢٥٢٩، وسنن أبي داود ح٢٩٢٦، والأدب المفرد ح٦٠٨٣، ومسند أبي يعلي ٤/٣٦٦ وغيرها من الكتب.

وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره، فلم يستغلوه، ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم.

وحقًّا فقد كانت هذه المؤاخاة حكمة فذةً، وسياسة حكيمة، وحلاً رشيداً لكثير من المشاكل التى كان يواجهها المسلمون، والتى أشرنا إليها.

ميثاق التحالف الإسلامي[1]:

وكما قام رسول الله ﷺ بعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها ما كان بينهم من حزازات في الجاهلية، وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة واستطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية شاملة. وفيما يلي بنودها ملخصاً:

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

(١) أنهم أمة واحدة من دون الناس.

(٢) المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٣) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

---

(١) هذا التحالف مرحلة انتقالية تمر بها الأمم أثناء التكون والبناء، قبل التكامل والنضج. قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة». (مسلم: فضائل الصحابة، باب المؤاخاة) قيل لأنس بن مالك: أبلغك أن النبي ﷺ قال: لا حلف في الإسلام؟ فقال: قد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري. (صحيح البخاري: الكفالة. ح٢٢٩٤، ٦٠٨٣، ٧٣٤٠، ولينظر صحيح مسلم ح٢٥٢٩، وسنن أبي داود ح٢٩٢٦، والأدب المفرد ح٦٠٨٣، ومسند أبي يعلي ٤ / ٣٦٦).

(٤) وأن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

(٥) وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

(٦) ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر.

(٧) ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

(٨) وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

(٩) وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

(١٠) وأن سلم المؤمنين واحدة - لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

(١١) وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما ينال دماءهم في سبيل الله.

(١٢) وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

(١٣) وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول.

(١٤) وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

(١٥) وأنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

(١٦) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ (١).

---

(١) ابن هشام ١/٥٠٢، ٥٠٣.

معاهدة مع اليهود

بعد أن أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام.

وفيما يلي أهم بنود هذه المعاهدة.

بنود المعاهدة:

(١) أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم ـ وكذلك لغير بني عوف من اليهود ـ.

(٢) وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

(٣) وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

(٤) وإن بينهم النصح والنصحية، والبر دون الإثم.

(٥) وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

(٦) وإن النصر للمظلوم.

(٧) وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

(٨) وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

(٩) وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

(١٠) وإنه لا تُجَار قريش ولا من نصرها.

(١١) وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ... على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

(١٢) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[1].

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة ورئيسها - إن صح هذا التعبير - رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين.

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة، حسب ما اقتضته الظروف، وسيأتي ذكر شيء منها.

* * *

(١) انظر ابن هشام ١/٥٠٣، ٥٠٤.

الكفاح الدامي

استفزازات قريش واتصالهم بعبد الله بن أبي

زاد المشركين غيظًا أن فاتهم المسلمون، ووجدوا مأمنًا ومقرًّا بالمدينة، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي ابن سلول، وإلى أصحابه المشركين، يقولون لهم في كلمات باتة: «إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم».

فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا(١).

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرًا، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد ـ ورفع صوته عليه ـ: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه: طريقك على أهل المدينة(٢).

---

(١) أبو داود، باب: خبر النضير ٢/١٥٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي ٢/٥٦٣ ح٣٦٣٢، ٣٩٥٠.

قريش تهدد المهاجرين

ثم إن قريشًا أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: «لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم(١)».

ولم يكن كل هذا مجرد وعيد، فقد تأكد لدى رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهراً، أو في حرس من الصحاب. روى الشيخان في صحيحيهما عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: «ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة»، قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: من هذا قال: سعد بن أبي وقاص، فقال: له رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام(٢).

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي، بل كان ذلك أمرًا مستمرًّا، فقد روي عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزل ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ [المائدة: ٦٧] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل(٣).

ولم يكن الخطر مقتصراً على رسول الله ﷺ، بل كان يحدق بالمسلمين كافة، فقد روى أبي بن كعب، قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه.

---

(١) رحمة للعالمين ١/١١٦.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ح٢٨٨٥ (فتح الباري ٦/٩٥) وح٧٢٣١ (فتح الباري ١٣/٢٣٢). صحيح مسلم: فضائل الصحابة، فضل سعد بن أبي وقاص ح٤٠ (١٨٧٥/٤).

(٣) جامع الترمذي: تفسير سورة المائدة ح٣٠٤٦ (٥/٢٣٤).

الإذن بالقتال

في هذه الظروف الخطيرة أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين، ولم يفرضه عليهم قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وبين أن هذا لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

وكان الإذن مقتصراً على قتال قريش، ثم تطور حتى وصل إلى مرحلة الوجوب، وجاوز قريشًا إلى غيرهم، وذلك في مراحل كما يلي:

(١) المرحلة الأولى: اعتبار مشركي قريش محاربين، لأنهم بدأوا بالعدوان، فحق للمسلمين أن يقاتلوهم، ويصادروا أموالهم، دون غيرهم من بقية مشركي العرب.

(٢) قتال كل من تمالأ من مشركي العرب مع قريش واتحد معهم، وكذلك كل من تفرد بالاعتداء على المسلمين من غير قريش.

(٣) قتال من خان أو تحيز للمشركين من اليهود الذين كان لهم عقد وميثاق مع رسول الله ﷺ، ونبذ ميثاقهم إليهم على سواء.

(٤) قتال من بادأ بعداوة المسلمين من أهل الكتاب، كالنصارى، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

(٥) الكف عمن دخل في الإسلام، مشركًا كان أو يهوديًا أو نصرانيًا أو غير ذلك، فلا يُتعرَّض لنفسه وماله إلا بحق الإسلام، وحسابه على الله.

ولما نزل الإذن بالقتال رأى رسول الله ﷺ أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيسي الذي تسلكه قريش من مكة إلى الشام في تجاراتهم، واختار لذلك خطتين:

الأولى : عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق.

الثانية : إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق.

* * *

الغزوات والسرايا قبل بدر[1]

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلا بعد نزول الإذن بالقتال، وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب منها كما أشرنا:

ـ الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة.

ـ عقد المعاهدات مع القبائل التي مساكنها على هذه الطرق.

ـ إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم.

ـ وإنذار قريش عقبى طيشها، حتى تفيق عن غيها الذي لا يزال يتوغل في أعماقها، وعلّها تشعر بالخطر على اقتصادها فتجنح إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين، وعن الصد عن سبيل الله، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين في مكة؛ حتى يصير المسلمون أحراراً في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة.

وفيما يلي أحوال هذه السرايا بالإيجاز

(١) سرية سيف البحر، في رمضان سنة ١هـ. الموافق مارس سنة ٦٢٣م. أمّر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاث مئة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص[2]. فالتقوا واصطفوا

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه غزوة، حارب فيها أم لم يحارب، وما خرج فيه أحد قادته سرية.

(٢) العيص ـ بالكسر ـ مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني ـ وكان حليفًا للفريقين جميعًا ـ بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم فلم يقتتلوا.

وكان لواء حمزة أول لوء عقده رسول الله ﷺ، وكان أبيض، وحمله أبو مرثد كناز بن حصين الغنوي.

(٢) سرية رابغ: في شوال سنة ١ من الهجرة ـ أبريل سنة ٦٢٣م. بعث لها رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين رجلاً من المهاجرين فلقي أبا سفيان ـ وهو في مئتين ـ على بطن رابغ، وقد ترامى الفريقان بالنبل، ولم يقع قتال.

(٣) سرية الخرار[١]، ثم أرسل في ذي القعدة سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً من المهاجرين إلى الخرار قريبًا من رابغ فلم يلق كيداً.

(٤) غزوة الأبواء أو ودان[٢]، ثم خرج رسول الله ﷺ بنفسه إلى الأبواء أو ودان في صفر سنة ٢هـ في سبعين رجلاً من المهاجرين. فلم يلق أحداً، وعقد ميثاق الأمان والتناصر مع عمرو بن مخشي الضمري. وكانت أول غزوة خرج لها رسول الله ﷺ.

(٥) غزوة بواط[٣]، ثم خرج إلى بواط من ناحية رضوى في ربيع الأول سنة ٢هـ في مئتين من المهاجرين فلم يلق أحداً.

(٦) غزوة سفوان، وفي نفس الشهر أغار كرز بن جابر الفهري على مراعي المدينة، وساق بعض المواشي، فخرج ﷺ في طلبه إلى سفوان من ناحية بدر في سبعين رجلاً من المهاجرين، ولكن كرز أفلت ونجح في الفرار، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

(١) الخرار ـ بالفتح فالتشديد ـ موضع بالقرب من الجحفة.

(٢) ودان ـ بالفتح فالتشديد ـ موضع بين مكة والمدينة، بينه وبين رابغ مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلاً، والأبواء موضع بالقرب من ودان.

(٣) بواط (بالضم) ورضوى جبلان فرعان أصلهما واحد، من جبال جهينة، مما يلي طريق الشام، بينه وبين المدينة نحو أربعة برد.

(٧) غزوة ذي العشيرة[١]، ثم خرج في جمادى الأولى أو الآخرة سنة ٢هـ إلى ذي العشيرة في مئة وخمسين، أو في مئتين من المهاجرين يعترض عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام ولكنها فاتته قبل أيام، وعقد ميثاق عدم العدوان مع بني مدلج.

(٨) سرية نخلة، ثم بعث في شهر رجب سنة ٢هـ عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة بين مكة والطائف في اثنى عشر رجلاً من المهاجرين، ليأتوا بخبر عير لقريش لكنهم هجموا عليها فقتلوا رجلاً، وأسروا اثنين وساقوا العير، وغضب رسول الله ﷺ على ذلك ولم يرض به فأطلق الأسيرين وأدى دية المقتول.

وكان الحادث في آخر يوم من رجب فأثار المشركون ضجة بأن المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام، فأنزل الله: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾** [البقرة: ٢١٧][٢].

وفي شعبان سنة ٢هـ حول الله القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وكان ذلك مما يحبه رسول الله ﷺ وينتظره، وقد انكشف بذلك بعض المخادعين من المنافقين واليهود الذين دخلوا في الإسلام زوراً، فارتدوا وتطهرت صفوف المسلمين منهم.

تلك هي التحركات العسكرية التي قام بها رسول الله ﷺ والمسلمون لحفظ أمن المدينة وأطرافها. ولإشعار قريش بسوء عاقبتها إن لم تكف عن شرها، ولكنها ازدادت في العلو والاستكبار، فلاقت جزاء أمرها في بدر، وكان عاقبة أمرها خسراً.

---

(١) العشيرة، مصغراً، ويقال: العشيراء بالمد، وقيل: العسيرة، بالمهملة، موضع بناحية ينبع.

(٢) ينظر لتفصيل هذه السرايا والغزوات ابن هشام ١/٥٩١-٦٠٥ وزاد المعاد ٣/٨٣ - ٨٥.

غزوة بدر الكبرى

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سببها أن رسول الله ﷺ كان بالمرصاد للعير التى فاتته إلى الشام حينما خرج إلى ذي العشيرة. وأرسل لها رجلين إلى الحوراء من أرض الشام ليأتيا بخبرها، فلما مرت بهما العير أسرعا إلى المدينة، فندب لها رسول الله ﷺ المسلمين ولم يعزم عليهم الخروج، فانتدب ٣١٣، أو ٣١٤، أو ٣١٧ رجلاً - ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و ٦١ من الأوس، و ١٧٠ من الخزرج. لم يتخذ هؤلاء أهبتهم الكاملة. فلم يكن معهم إلا فرسان وسبعون بعيراً فقط.

وعقد رسول الله ﷺ لواءً أبيضَ دفعه لمصعب بن عمير، وكان للمهاجرين علم يحمله علي بن أبي طالب، وللأنصار علم يحمله سعد بن معاذ واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم أرسل مكانه من الروحاء أبا لبابة بن عبد المنذر

الجيش الإسلامى يتحرك نحو بدر

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة يريد بدراً، وهو موضع على بعد ١٥٥ كيلو متراً جنوب غربي المدينة تحيط به جبال شواهق من كل جانب، وليس فيه إلا ثلاثة منافذ، منفذ في الجنوب، وهو العدوة القصوى، ومنفذ في الشمال وهو العدوة الدنيا ومنفذ في الشرق قريبًا من منفذ الشمال يدخل منه أهل المدينة، وكان طريق القوافل الرئيسي بين مكة والشام يمر من داخل هذا المحيط. وكان فيه المساكن والآبار والنخيل، فكانت تنزل القوافل، وتقيم فيه ساعات وأيامًا. فكان من السهل جداً أن يسد المسلمون هذه المنافذ بعد ما تنزل العير في هذا المحيط، فتضطر إلى الاستسلام، ولكن من لوازم هذا التدبير أن لا يشعر أهل العير بخروج المسلمين

إطلاقًا، حتى ينزلوا ببدر على غرة، ولذلك سلك رسول الله ﷺ ـ أول ما سلك ـ طريقًا آخر غير طريق بدر، ثم تأنى في التقدم إلى جهة بدر.

النذير في مكة وخروج أهلها إلى بدر

أما العير فكان قوامها ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار وكان رئيسها أبا سفيان ومعه نحو أربعين رجلاً فقط، وكان أبو سفيان في غاية التيقظ والحذر يسأل كل غاد ورائح عن تحركات المسلمين حتى علم بخروج المسلمين من المدينة وهو على بعد غير قليل من بدر، فحول اتجاه العير إلى الغرب ليسلك طريق الساحل، ويترك طريق بدر إطلاقًا، واستأجر رجلاً يخبر أهل مكة بخروج المسلمين بأسرع ما يمكن فلما بلغهم النذير استعدوا سراعًا وأوعبوا في الخروج. فلم يتخلف من كبرائهم إلا أبو لهب. وحشدوا من حولهم من القبائل ولم يتخلف من بطون قريش إلا بنو عدي.

ولما وصل هذا الجيش إلى الجحفة بلغتهم رسالة أبي سفيان يخبرهم بنجاته، ويطلب منهم العودة إلى مكة وهمَّ الناس بالرجوع، ولكن أبى ذلك أبو جهل؛ استكباراً ونخوة، فلم يرجع إلا بنو زهرة. أشار عليهم بذلك حليفهم ورئيسهم الأخنس بن شريق الثقفي، وكانوا ثلاث مئة. أما البقية، وهم ألف فواصلوا سيرهم حتى نزلوا قريبًا من العدوة القصوى خارج بدر في ميدان فسيح وراء الجبال المحيطة ببدر.

المجلس الاستشاري ومواصلة سير المسلمين إلى بدر

أما رسول الله ﷺ فقد علم بخروج أهل مكة، وهو في الطريق، فاستشار المسلمين، فقام أبو بكر فتكلم وأحسن، ثم قام عمر فتكلم وأحسن، ثم قام المقداد فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: **﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾** [المائدة: ٢٤] ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فأشرق وجه رسول الله ﷺ وسر بذلك.

ثم قال: أشيروا علي أيها المسلمون! فقام سعد بن معاذ رئيس الأنصار وقال: كأنك تُعَرِّض بنا يا رسول الله! فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، وقال فيما قال: والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك. فَسُرَّ رسول الله ﷺ ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم.

الجيش الإسلامي في بدر

ثم تقدم إلى بدر فوصلها في نفس الليلة التى وصل فيها المشركون، فنزل في داخل ميدان بدر قريبًا من العدوة الدنيا، فأشار عليه الحباب بن المنذر أن يتقدم فينزل على أقرب ماء من العدو، حتى يصنع المسلمون حياضًا يجمعون فيها الماء لأنفسهم، ويغورون الآبار، فيبقى العدو ولا ماء له ففعل.

وبنى المسلمون عريشًا يكون مقر قيادته ﷺ وعينوا له حراسًا من شباب الأنصار تحت قيادة سعد بن معاذ.

ثم عبأ رسول الله ﷺ الجيش[1] وتجول في ميدان القتال وهو يشير بيده ويقول: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، غداً إن شاء الله»[2]. ثم بات يصلي إلى جذع شجرة، وبات المسلمون مستريحين تغمرهم الثقة، وكان الله قد أنزل المطر كما قال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

(١) انظر جامع الترمذي: أبواب الجهاد، باب ما جاء في الصف والتعبئة ١ / ٢٠١.

(٢) رواه مسلم عن أنس، انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٣.

الجيشان يتراءيان:

وفي الصباح - وهو صباح يوم الجمعة ١٧ من شهر رمضان سنة ٢هـ تراءى الجمعان، فدعا رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك. اللهم فنصرك الذى وعدتني، اللهم أحنهم الغداة». ثم عدل الصفوف وأمرهم أن لا يبدأوا بالقتال حتى يأتيهم أمره. وقال: إذا أكثبوكم - أى اقتربوا منكم - فارموهم واستبقوا نبلكم(١)، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم(٢). ثم رجع إلى العريش ومعه أبو بكر رضي الله عنه فابتهل إلى الله سبحانه وتعالى ودعاه، وناشده حتى قال: «اللهم إن تُهْلِكْ هذه العصابةَ اليوم لا تُعبد أبداً. اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً». وبالغ في التضرع والابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه فرده عليه الصديق، وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك.

أما المشركون فاستفتح منهم أبو جهل، فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عنك فانصره اليوم.

المبارزة والقتال

ثم تقدم ثلاثة من أشد فرسان المشركين: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وبارزوا المسلمين فخرج ثلاثة من شباب الأنصار، فقال المشركون: نريد بني عمنا، فخرج عبيدة بن الحارث، وحمزة وعليّ، فقتل حمزةُ شيبةَ، وقتل عليٌّ الوليدَ، واختلفت ضربتان بين عبيدة وعتبة، وأثخن كل واحد منهما الآخر ثم كر عليّ وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله فمات بعد أربعة أيام أو خمسة بالصفراء راجعاً إلى المدينة.

(١) صحيح البخاري ٢/٥٦٨ ح٣٩٨٤، ٣٩٨٥.

(٢) سنن أبي داود، باب: في سل السيوف عند اللقاء ٢/١٣.

واستاء المشركون بنتيجة المبارزة واستشاطوا غضبًا فهجموا على صفوف المسلمين بعنف، وشدوا عليهم شدة رجل واحد. والمسلمون ثابتون في أماكنهم، يدافعون عن أنفسهم، ويقولون أحد. أحد.

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ثم رفع رأسه، وقال: أبشر أبا بكر. أتاك نصر الله. هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع - أي على أطرافه الغبار - وكان الله قد أمد المسلمين يومئذ بألف من الملائكة مردفين.

ثم تقدم رسول الله ﷺ يثب في الدرع ويتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥] وأخذ حفنة من الحصباء ورمى بها وجوه المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه». فما من مشرك إلا وأصاب عينيه ومنخريه من تلك الحفنة. وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالهجوم على المشركين وقال: شدوا، وحرضهم على القتال. فشد المسلمون وهم على نشاطهم. وقد زادهم تحمسًا وجود رسول الله ﷺ بين أظهرهم، يقاتل قدامهم، فأخذوا يقلبون الصفوف ويقطعون الأعناق. ونصرهم الله بالملائكة، فكانوا يضربون فوق أعناق المشركين ويضربون منهم كل بنان. فكان ينحدر رأس الرجل لا يدري من ضربه، وتنحدر يد الرجل لا يدري من قطعها، حتى نزلت الهزيمة بالمشركين فلاذوا بالفرار. وأخذ المسلمون يطاردونهم، فيقتلون فريقًا ويأسرون فريقًا.

وكان إبليس قد حضر في صورة سراقة بن مالك بن جعشم؛ تأييداً للمشركين، وتحريضًا لهم على قتال المسلمين، فلما رأى الملائكة وما يفعلون، نكص على عقبيه، وفر إلى البحر الأحمر، وألقى نفسه فيه.

مقتل أبي جهل:

وكان أبو جهل في عصابة جعلت سيوفها ورماحها حوله مثل السياج، وكان في صفوف المسلمين حول عبد الرحمن بن عوف شـابان من الأنصـار لم يأمن عبد الرحمن مكانهما، إذ قال له أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم! أرني أبا جهل، قال: وما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. وقال الآخر: مثل ذلك. فلما تصدعت الصفوف رآه عبد الرحمن يتجول فأراهما، فابتدراه بالسيف حتى قتلاه؛ ضرب أحدهما ساقه فطاحت رجله كما تطير النوى حين تدق، وأثخنه الآخر حتى تركه وبه رمق. ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ وقال كل منهما: أنا قتلته، فنظر إلى السيفين وقال: كلاكما قتله. وهما معاذ ومعوذ ابنا عفراء وقد استشهد معوذ في نفس الغزوة، وبقي معاذ إلى زمن عثمان. وأعطاه رسول الله ﷺ سلب أبي جهل(١).

وبعد انتهاء المعركة خرج الناس في طلبه فوجده عبد الله بن مسعود وبه رمق فوضع رجله على عنقه، وأخذ لحيته ليحتز رأسه، وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ هل فوق رجل قتلتموه؟ وقال: فلو غيرك قتلني، ثم قال: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ولرسوله. قال أبو جهل: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعي الغنم! وقطع عبد الله بن مسعود رأسه ثم جاء به إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ «الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». وقال: «هذا فرعون هذه الأمة».

يوم الفرقان

كانت هذه المعركة معركة بين الكفر والإيمان، قاتل فيها الرجل عمه وأباه، وابنه وأخاه وأدناه، قتل فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاله العاص بن هاشم،

(١) انظر لأصل القصة صحيح البخاري ١/٤٤٤، ٢/٥٦٨ ومشكاة المصابيح ٢/٣٥٢.

وواجه فيها أبو بكر ابنه عبد الرحمن، وأسر فيها المسلمون العباس، وهو عم رسول الله ﷺ وهكذا انقطعت فيها صلة القرابة وأعلى الله فيها كلمة الإيمان على كلمة الكفر، فرق بين الحق والباطل، فسمي ذلك اليوم بيوم الفرقان، وهو يوم بدر، اليوم السابع عشر من شهر رمضان.

قتلى الفريقين

قتل في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً من المسلمين ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار ودفنوا في ساحة بدر ومقابرهم لا تزال معروفة.

أما المشركون فقتل منهم سبعون وأسر سبعون، ومعظمهم كانوا من الصناديد وقد سحبت جثث أربعة وعشرين من صناديدهم وقذفت في قليب -بئر- خبيث مخبث في بدر.

وأقام رسول الله ﷺ في بدر ثلاثة أيام فلما استعد للرجوع جاء القليب وقام على شفته، وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان! ويا فلان بن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟».

فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها. قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. ولكن لا يجيبون»(١).

خبر المعركة في مكة والمدينة

وصل نبأ الهزيمة إلى مكة بفلول المشركين فكبتهم الله وأخزاهم حتى نهوا عن النياحة على القتلى كيلا يشمت بهم المسلمون. وكان الأسود بن المطلب قتل له ثلاثة بنين. فكان يحب أن ينوح، فسمع ليلاً صوت نائحة، فظن الإذن وبعث غلامه، فجاء وأخبر أنها تبكي على بعير أضلته فلم يتمالك أن قال:

(١) متفق عليه، انظر مشكاة المصابيح ٢/ ٣٤٥.

أتبكي أن يضل لها بعيـــر ويمنعها من النوم السـهود
فلا تبكي على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدود

وذلك في أبيات ندب فيها أبناءه.

أما أهل المدينة فقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ بشيرين: عبد الله بن رواحة إلى العالية وزيد بن حارثة إلى السافلة. وكان اليهود قد أرجفوا في المدينة بدعايات كاذبة، فلما وصل نبأ الفتح عمت الفرحة والسرور، واهتزت المدينة تهليلاً وتكبيراً، وتقدم رءوس المسلمين إلى طريق بدر يهنئون رسول الله ﷺ.

تقدم الرسول ﷺ إلى المدينة

وتقدم الرسول ﷺ إلى المدينة متوجًا بنصر الله، ومعه الغنائم والأسارى فلما وصل قريبًا من الصفراء نزل حكم الغنيمة فأخذ منها الخمس وقسمها سويًّا بين الغزاة. فلما حل بالصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث، فضرب عنقه علي بن أبي طالب. ولما حل بعرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط فقتله عاصم بن ثابت الأنصاري وقيل: علي بن أبي طالب.

أما رءوس المسلمين الذين خرجوا لتهنئته فلقوه ﷺ بالروحاء، ثم رافقوه يشيعونه إلى المدينة، فدخل فيها مظفراً منصوراً قد خافه كل عدو. وأسلم بشر كثير، وتظاهر عبد الله بن أبى ابن سلول وزملاؤه بالإسلام.

قضية الأسارى

ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة استشار في الأسارى. فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم، وأشار عمر بقتلهم، فقرر رسول الله ﷺ أخذ الفدية، وكانت من أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألف درهم. ومن كان منهم يقرأ ويكتب فجعل فديته أن يعلم عشرة غلمان من المسلمين. وأحسن إلى بعض الأسارى فأطلقهم بغير فدية.

وبعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء زوجها أبي العاص بمال فيه قلادة لها. كانت عند خديجة فأدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، فاستأذن الصحابة في إطلاقه بغير فدية، ففعلوا. فأطلقه بعد أن اشترط عليه أن يخلي سبيل زينب فخلاها فهاجرت إلى المدينة.

وفاة ابنته ﷺ رقية وزواج ابنته أم كلثوم بعثمان

وكانت رقية بنت النبي ﷺ مريضة حين خرج لغزوة بدر، وكانت تحت عثمان ابن عفان رضي الله عنه فأمره أن يتخلف عليها ليمرضها، وله أجر من حضر بدراً ونصيبه، وخلف عليها أيضًا أسامة بن زيد، فتوفيت قبل رجوعه ﷺ قال أسامة: أتانا الخبر - أي بشارة الفتح - حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ.

ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة واطمأن بها زوّج عثمان بن عفان رضي الله عنه ابنته الأخرى: أم كلثوم. فلذلك سمي عثمان رضي الله عنه بذي النورين وقد بقيت معه حتى توفيت في شعبان سنة تسع من الهجرة ودفنت بالبقيع.

التحركات العسكرية بعد بدر

ساء المشركين ومن معهم ما أكرم الله به المسلمين من النصر والفتح، فأخذوا يدبرون مكائد يضرون بها المسلمين وينتقمون بها منهم، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم وأيد المؤمنين بفضله.

غزوة بني سليم بالكُدْر(١)

فحشد بنو سليم لغزو المدينة بعد أسبوع من رجوع المسلمين من غزوة بدر، أو في المحرم سنة ٣هـ فداهمهم المسلمون في منازلهم، وأصابوا غنائم ورجعوا إلى المدينة سالمين(٢).

(١) الكدر، بالضم فالسكون. طير في لونها كدرة، وهو ماء من مياه بني سليم يقع في نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام.

(٢) ينظر للتفصيل ابن هشام ٢/٤٣، ٤٤ وزاد المعاد ٢/٩٠.

مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ

ثم تآمر عمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية على اغتيال النبي ﷺ وجاء عمير لذلك إلى المدينة، فألقي القبض عليه، وأخبره النبي ﷺ بما تآمر به عليه؛ فأسلم(١).

غزوة بني قينقاع

ثم كاشف يهود بني قينقاع بالشر والعداوة فنصحهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال. إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس. وصبر رسول الله ﷺ على هذا الجواب فازدادت جرأتهم، حتى أثاروا في سوقهم فتنة قتل فيها رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فحاصرهم رسول الله ﷺ يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢هـ. واستسلموا بعد خمسة عشر يوماً لهلال ذي القعدة فأجلاهم إلى أذرعات الشام، حيث مات أكثرهم بعد قليل(٢).

غزوة السويق

ونذر أبو سفيان بعد غزوة بدر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ﷺ فخرج في مئتي راكب، وأغار بالعريض في ناحية المدينة فقطعوا أسواراً من النخيل، وأحرقوها وقتلوا رجلين وفروا.

وأتى الخبر رسول الله ﷺ فطاردهم، ولكنهم أفلتوا وطرحوا كثيراً من السويق والأزواد ليتخففوا وبلغ المسلمون في مطاردتهم إلى قرقرة الكدر، ولكنهم فاتوا وحمل المسلمون السويق. فسميت بغزوة السويق وبغزوة قرقرة الكدر(٣).

---

(١) ينظر للتفصيل ابن هشام ١/ ٦٦١-٦٦٣.

(٢) ينظر في سنن أبي داود مع عون المعبود ٣/ ١١٥، ابن هشام ٢/ ٤٧ – ٤٩ وزاد المعاد ٢/ ٧١، ٩١.

(٣) ابن هشام ٢/ ٤٤، ٤٥، زاد المعاد ٢/ ٩٠، ٩١.

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب من أثرياء اليهود وشعرائهم، ومن أشد أعداء المسلمين، فكان يهجو رسول الله ﷺ وأصحابه ويشبب بنسائهم، ويمدح أعداءهم، ويحرضهم عليهم. ونزل بعد بدر على قريش، فأغراهم على حرب المسلمين. وأنشد لهم في ذلك أبياتًا وقال: أنتم أهدى منهم سبيلاً، ولم يعتبر بما حل ببني قينقاع. فقال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؟» فانتدب له: محمد بن مسلمة، وعباد ابن بشر، وأبو نائلة، والحارث بن أوس، وأبو عبس بن جبر، وأميرهم محمد بن مسلمة، وقد استأذن النبي ﷺ أن يقول شيئًا.

ثم أتى كعبًا وقال: إن هذا الرجل -إشارة إلى النبي ﷺ - قد سألنا صدقة، وأنه قد عنانا أي أوقعنا في المشقة والعناء.

فاستبشر كعب، وقال: والله لتملنه. فاستقرضه محمد بن مسلمة طعامًا أو تمرًا واتفق معه على أنه يرهنه السلاح.

وجاءه أبو نائلة فتحاور معه بمثل حوار محمد بن مسلمة، وقال: إن معي أصحابًا على مثل رأيي أريد أن آتيك بهم، فتبايعهم، وتحسن إليهم، فقبل ذلك منه.

وفي الليلة الرابعة عشرة من شهر ربيع الأول سنة ٣هـ جاءه المذكورون ومعهم السلاح، فنادوه، فقام لينزل وكان في حصنه، وكان حديث عهد بعرس، فقالت له زوجته: أين تخرج هذه الساعة؟ أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم. فلم يبال بقولها ولما نزل ورأى السلاح لم يستنكر لما سبق بينهم وبينه من العهد.

وأخذوا يمشون يتنزهون، ومدح أبو نائلة رائحة عطره، واستأذنه ليشم رأسه. فأذن له في زهو وخيلاء، فشمه وأدخل فيه يده، ثم استأذنه ثانيًا وفعل ما فعل، ثم ثالثًا أيضًا فلما استمكن من رأسه في المرة الثالثة، قال: دونكم عدو الله، فاختلفت

عليه الأسياف دون جدوى. فوضع ابن مسلمة معولاً في ثنته، وتحامل عليه حتى بلغ العانة، فصاح صيحة أفزعت من حوله، وسقط قتيلاً، وأوقدت النيران على الحصون، لكن رجع المسلمون بسلام. وقد خمدت نار الفتنة التي طالما أقلقت المسلمين، وكمنت أفاعي اليهود في أحجاره لفترة من الزمان(١).

سرية قردة وجيعة لقريش

وفي جمادى الآخرة سنة ٣هـ أرسلت قريش عيراً لهم إلى الشام عن طريق العراق، لتخترق نجداً إلى الشام، ولا تمر بقرب المدينة وكان يقودها صفوان بن أمية، وعلم بذلك رسول الله ﷺ فأرسل زيد بن حارثة في مئة راكب فدهمها زيد وهي تنزل على ماء في نجد يسمى بقردة، فاستولى على العير بكل ما فيها، وفر رجال العير بأجمعهم، وأسر الدليل فرات بن حيان فأسلم. وقدرت الغنيمة بمئة ألف، وكانت أوجع ضربة تلقتها قريش بعد غزوة بدر(٢).

* * *

(١) ينظر للتفصيل صحيح البخاري ١/٣٤١، ٤٢٥، ٥٧٧٢ وسنن أبي داود مع عون المعبود ٢/٤٢، ٤٣ وابن هشام ٢/٥١-٥٧ وزاد المعاد ٢/٩١.

(٢) ابن هشام ٢/٥٠، ٥١.

غـزوة أحـد

الجيش المكي إلى أسوار المدينة

بينما كانت قريش تستعد للانتقام من المسلمين بما أصيبت به في غزوة بدر إذا بهم يتلقون ضربة أخرى في القردة، فازدادوا بها غضبًا على غضب، فأسرعوا في الاستعداد، وفتحوا باب التطوع، وحشدوا الأحابيش، وخصصوا الشعراء للإغراء والتحريض، حتى تجهز جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل في ثلاثة آلاف بعير ومئتي فرس، وسبع مئة درع، ومعه عدد من النسوة للتحريض وبث روح البسالة والحماس، وكان قائده العام أبا سفيان وحامل لوائه أبطال بني عبد الدار.

تحرك هذا الجيش في غيظه وغضبه حتى بلغ إلى ضواحي المدينة، وألقى رحله في ميدان فسيح على شفير وادي قناة قريبًا من جبل عينين وأحد، وذلك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ٣هـ.

الجيش الإسلامي إلى أحد

ونقل الخبر إلى رسول الله ﷺ قبل نزول الجيش بنحو أسبوع فشكل دوريات عسكرية؛ تحسبًا للطوارئ وحفظًا للمدينة، فلما وصل الجيش استشار المسلمين حول خطة الدفاع. وكان رأيه ﷺ أن يتحصن المسلمون بالمدينة فيقاتل الرجال على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، ووافقه رأس المنافقين عبد الله بن أبي وكأنه قصد الجلوس في البيت دون أن يتهم بالتخلف. ولكنْ تحمَّس الشباب وألحّوا على المجالدة بالسيوف في مكان مكشوف، فقبل رأيهم، وقسم الجيش إلى ثلاث كتائب: كتيبة للمهاجرين وحمل لواءها مصعب بن عمير، وأخرى للأوس وحمل لواءها أسيد بن حضير، وثالثة للخزرج وحمل لواءها الحباب بن المنذر.

واتجه بعد صلاة العصر إلى جبل أحد فلما بلغ موضع الشيخين استعرض الجيش فرد الصغار، وأجاز رافع بن خديج على صغره، لأنه كان ماهراً في رمي السهام. فقال سمرة بن جندب: أنا أقوى منه. أنا أصرعه فأمرهما بالمصارعة فصرع سمرة رافعًا فأجازه أيضًا.

وفي موضع الشيخين صلى المغرب والعشاء، ثم بات هناك. وعين خمسين رجلاً لحراسة المعسكر، فلما كان في آخر الليل ارتحل قبل الفجر، فصلاها بالشوط، وهناك تمرد عبد الله بن أبي فرجع مع ثلاث مئة من أصحابه وسرى لأجل ذلك الضعف والاضطراب في بني سلمة وبني حارثة وكادتا ترجعان، ولكن ثبتهما الله. وكان أولاً مجموع عدد المسلمين ألفًا فبقي سبع مئة.

وتقدم رسول الله ﷺ نحو جبل أحد من طريق قصير يترك العدو في جانب الغرب حتى نزل بالشعب عند منفذ الوادي جاعلاً ظهره إلى هضاب أحد، وبذلك صار العدو حائلاً بين المسلمين وبين المدينة.

تعبئة الجيشين

وهناك عبأ الجيش، وعين خمسين رجلاً من الرماة على جبل عينين - وهو الذي يعرف بجبل الرماة - بقيادة عبد الله بن جبير الأنصاري وأمرهم أن يدفعوا الخيل، ويحموا ظهور المسلمين. وأكد لهم أن لا يتركوا مكانهم حتى يأتي أمره سواء انتصر المسلمون أو انهزموا(١).

وعبأ المشركون جيشهم، وتقدموا إلى ساحة القتال تحرضهم نسوتهم، وهن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف، ويثرن الأبطال، وينشدن الأبيات:

---

(١) روى ذلك البخاري: كتاب الجهاد ١/٤٢٦، وأحمد والطبراني والحاكم (فتح الباري ٧/٣٥٠) وابن هشام ٢/٦٥، ٦٦.

إن تقـــبلوا نعـــانق ونفـــرش النمـــارق
أو تدبـــروا نفـــارق فـــراق غـــير وامـــق

ويذكرون أصحاب اللواء بواجبهم قائلات:

ويها بني عبد الدار

ويها حماة الأدبار

ضربًا بكل بتار

المبارزة والقتال

وتقارب الجيشان فطلع طلحة بن أبي طلحة العبدري حاملاً لواء المشركين وأشجع فرسان قريش، ودعا إلى المبارزة وهو على بعير، فتقدم إليه الزبير بن العوام - رضي الله عنه - ووثب وثبة الليث حتى صار معه على جمله، ثم أخذه واقتحم به الأرض، وذبحه بسيفه، فكبر النبي ﷺ وكبر المسلمون، ثم انفجر القتال في كل نقطة، وحاول خالد بن الوليد - وهو على فرسان المشركين - ثلاث مرات ليبلغ إلى ظهور المسلمين ولكن رشقه الرماة بسهامهم حتى ردوه.

وركز المسلمون هجومهم على حملة لواء المشركين حتى قتلوهم عن آخرهم، وكانوا أحد عشر مقاتلاً، فبقي اللواء ساقطًا، وشدد المسلمون هجومهم على بقية النقاط، حتى هدوا الصفوف هدًّا، وحسوا المشركين حسًّا، وأبلى أبو دجانة وحمزة - رضي الله عنهما - في ذلك بلاءً حسنًا.

مصرع حمزة بن عبد المطلب

وأثناء هذا التقدم والانتصار قُتِلَ حمزَةُ بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله - رضي الله عنه - قتله وحشي بن حرب، وكان عبداً حبشيًّا ماهراً في قذف الحربة، وقد وعده مولاه جبير بن مطعم بالعتق إذا قتل حمزة؛ لأن حمزة هو الذي قتل عمه

طعيمة بن عدي في بدر، فاختبأ وحشي وراء صخرة يرصد حمزة، وبينما حمزة يضرب رأس سباع بن عرفطة ـ رجل من المشركين ـ صوب وحشي إليه الحربة وقذفها وهو على غرة فوقعت في أحشائه وخرجت من بين رجليه، فسقط ولم يستطع النهوض حتى قضى نحبه ـ رضي الله عنه ـ(١).

الهزيمة تنزل بالمشركين والرماة يخطئون

ووقعت الهزيمة بالمشركين حتى لاذوا بالفرار، وفرت النسوة المحرضات، وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السلاح ويأخذون الغنائم، وحينئذ أخطأ الرماة، فنزل منهم أربعون رجلاً ليصيبوا من الغنيمة، على رغم ما كان لهم من الأمر المؤكد بالبقاء في أماكنهم. وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة فانقض على العشرة الباقية بجبل الرماة حتى قتلهم، واستدار هذا الجبل حتى وصل إلى ظهور المسلمين، وبدأ بتطويقهم، وصاح فرسانه صيحة عرفها المشركون فانقلبوا ورفعت لواءهم إحدى نسائهم، فالتفوا حوله وثبتوا، وبذلك وقع المسلمون بين شقي الرحى.

هجوم المشركين على رسول الله ﷺ وإشاعة مقتله

وكان رسول الله ﷺ في مؤخرة المسلمين، ومعه سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين(٢)، فلما رأى فرسان خالد تطلع من وراء الجبل نادى أصحابه بأعلى صوت: إليّ عباد الله، وسمع صوته المشركون ـ ولعلهم كانوا أقرب إليه من المسلمين ـ فأسرعت مجموعة منهم نحو الصوت وهاجمت رسول الله ﷺ هجوماً شديداً، وحاولت القضاء عليه قبل أن يصل إليه المسلمون، فقال ﷺ: «من يردهم عنا وله الجنة؟ ـ أو ـ وهو رفيقي في الجنة» فتقدم رجل من الأنصار فدفعهم وقاتلهم حتى قتل، ثم رهقوه، فأعاد قوله، فتقدم رجل آخر، فدفعهم وقاتلهم حتى قتل، ثم الثالث، ثم الرابع وهكذا حتى قتل السبعة(٣).

(١) صحيح البخاري ٢/٥٨٣ وابن هشام ٢/٦٩ ـ ٧٢.

(٢) صحيح مسلم ٢/١٠٧.

(٣) انظر صحيح مسلم: باب غزوة أحد ٢/١٠٧.

ولما سقط السابع لم يبق حول رسول الله ﷺ إلا القرشيان طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص(١)، فركز المشركون حملتهم على رسول الله ﷺ حتى أصابته حجارة فوقع لأجلها على شقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وجرحت شفته السفلى، وهشمت البيضة على رأسه فشجت جبهته ورأسه. وضرب بالسيف على وجنته، فدخلت فيها حلقتان من حلق المغفر، وضُرب أيضًا بالسيف على عاتقه ضربة عنيفة اشتكى لأجلها أكثر من شهر. وكان قد لبس درعين فلم يتهتكا(٢).

وقع كل هذا على رغم دفاع القرشيين الدفاع المستميت فقد رمى سعد بن أبي وقاص حتى نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: «ارم فداك أبي وأمي»(٣)، وقاتل طلحة بن عبيد الله وحده قتال مجموع من سبق حتى أصابه خمسة وثلاثون أو تسعة وثلاثون جرحًا ووقى بيده النبي ﷺ فأصيبت أصابعه حتى شلت. ولما أصيبت أصابعه قال: حس. فقال النبي ﷺ: «لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون»(٤).

وخلال هذه الساعة الحرجة نزل جبريل وميكائيل فقاتلا عنه أشد القتال(٥)، وفاء إليه ﷺ عدد من المسلمين فدافعوا عنه أشد الدفاع وكان أولهم أبا بكر الصديق ومعه أبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهما - وتقدم أبو بكر لينزع حلقة المغفر عن وجه رسول الله ﷺ فألح عليه أبو عبيدة حتى نزعها هو فسقطت إحدى ثنيتيه، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت الثنية الأخرى، ثم أقبلا على طلحة بن عبيد الله فعالجاه وهو جريح(٦).

(١) صحيح البخاري ١/٥٢٧، ٢/٥٨١.

(٢) ينظر له صحيح البخاري ٢/٥٨٢ وصحيح مسلم ٢/١٠٨ وفتح الباري ٧/٣٧٣.

(٣) صحيح البخاري ١/٤٠٧، ٢/٥٨٠، ٥٨١.

(٤) صحيح البخاري ١/٥٢٧، ٢/٥٨١، سنن النسائي ٢/٥٢، ٥٣ وفتح الباري ٧/٣٦١.

(٥) صحيح البخاري ٢/٥٨٠ وصحيح مسلم، الفضائل ح٤٦، ٤٧.

(٦) زاد المعاد ٢/٩٥.

وأثناء ذلك وصل إلى رسول الله ﷺ : أبو دجانة، ومصعب بن عمير، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم. وتضاعف عدد المشركين أيضًا واشتدت هجماتهم وقام المسلمون ببطولات نادرة فمنهم من يرمي ومنهم من يدافع ومنهم من يقاتل ومنهم من يقي السهام على جسده.

وكان اللواء بيد مصعب بن عمير فضربوا على يده اليمنى حتى قطعت فأخذه بيده اليسرى فضربوا عليها حتى قطعت فبرك عليه بصدره وعنقه حتى قتل، وكان الذي قتله هو عبد الله بن قمئة، فلما قتله ظن أنه قتل رسول الله ﷺ، لأن مصعبًا كان يشبهه ﷺ، فانصرف ابن قمئة، وصاح: إن محمدًا قد قتل(١) ، وشاع الخبر بسرعة وبإشاعته تخفف هجوم المشركين؛ إذ ظنوا أنهم أصابوا الهدف وبلغوا ما أرادوا.

موقف عامة المسلمين بعد التطويق

ولما رأى المسلمون بداية عملية التطويق تشتتوا وارتبكوا، ولم يصلوا إلى موقف موحد، فمنهم من فر إلى الجنوب حتى بلغ المدينة المنورة، ومنهم من فر إلى شعب أحد ولاذ بالمعسكر، ومنهم من قصد رسول الله ﷺ وأسرع إليه فدافع عنه كما تقدم. وبقي معظم المسلمين في دائرة التطويق ثابتين في أماكنهم يدفعون المطوِّقين ويقاتلونهم، وحيث لم يكن بينهم من يقودهم بنظام فقد حصل في صفوفهم خبط وارتباك، رجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم حتى قتل اليمان والد حذيقة بأيدي المسلمين أنفسهم(٢). فلما سمعوا خبر مقتل النبي ﷺ طار صواب طائفة منهم وخارت عزائمهم واستكانوا، حتى تركوا القتال وتشجع آخرون، وقالوا: موتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر ابن هشام ٢/ ٧٣، ٨٠-٨٣ وزاد المعاد ٢/ ٩٧.

(٢) انظر لذلك صحيح البخاري ١/ ٥٩٣، ٢/ ٥٨١.

وبينا هم كذلك إذ رأى كعب بن مالك رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يشق الطريق إليهم، فعرفه بعينيه إذ كان وجهه تحت حلق المغفر والبيضة، فنادى كعب بصوت علا: يا معشر المسلمين! أبشروا هذا رسول الله ﷺ فبدأ المسلمون يرجعون إليه حتى تجمع حوله ثلاثون رجلاً من أصحابه، فشق بهم الطريق بين المشركين، ونجح في إنقاذ جيشه المطوق وسحبه إلى شعب الجبل. وقد حاول المشركون عرقلة هذا الانسحاب ولكنهم فشلوا تماماً، وقتل منهم اثنان أثناء هذه المحاولة.

وبهذه الخطة الحكيمة نجا المسلمون، ولكن بعد أن دفعوا الثمن غاليًا لما ارتكبه الرماة من الخطأ ومخالفة أمر رسول الله ﷺ.

في الشعب

وبعد ما خرج المسلمون من دائرة التطويق، ونجحوا في التمكن من الشعب حصل بينهم وبين المشركين بعض المناوشات الخفيفة الفردية، ولم يجترئ المشركون على التقدم والمواجهة العامة، وإنما بقوا في الساحة قليلاً، مثلوا خلاله القتلى، فقطعوا آذانهم وأنوفهم وفروجهم، وبقروا بطونهم، وبقرت هند بنت عتبة عن بطن حمزة حتى أخرجت كبده، ولاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، واتخذت من الآذان والنوف قلائد وخلاخيل(١).

وجاء أبي بن خلف متغطرسًا إلى الشعب يزعم أنه يقتل رسول الله ﷺ، فطعنه رسول الله ﷺ بحربة في ترقوته في فرجة بين الدرع والبيضة، فتدحرج عن فرسه مرارًا، ورجع إلى قريش وهو يخور خوار الثور، فلما بلغ سرف ـ قريبًا من مكة ـ مات لأجله(٢).

ثم جاء رجال من المشركين يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد، وعلوا في بعض جوانب الجبل، فقاتلهم عمر بن الخطاب ورهط من المهاجرين حتى أهبطوهم

(١) ابن هشام ٢ / ٩٠.

(٢) المستدرك للحاكم ٢ / ٣٢٧ وابن هشام ٢ / ٨٤.

من الجبل[1]، وتفيد الروايات أن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قتل ثلاثة منهم[2].

وبلغ عدد قتلى المشركين اثنين وعشرين وقيل: سبعة وثلاثين، أما المسلمون فقد قتل منهم سبعون: ٤١ من الخزرج، و ٢٤ من الأوس، و ٤ من المهاجرين وواحد من اليهود، وقيل غير ذلك[3].

وبعد المحاولة الأخيرة الفاشلة من أبي سفيان وخالد بن الوليد أخذ المشركون يستعدون للعودة إلى مكة.

أما رسول الله ﷺ فإنه لما تمكن من الشعب واطمأن فيه، جاءه علي ـ رضي الله عنه ـ بماء من المهراس ـ وهو ماء بأحد ـ ليشرب منه النبي ﷺ، فوجد له ريحًا فلم يشرب منه، بل غسل به الوجه، وصبه على الرأس، فأخذ الدم ينزف من الجرح، ولا ينقطع، فأحرقت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ قطعة من حصير، وألصقته، فاستمسك الدم، وجاء محمد بن سلمة بماء سائغ فشرب منه، ودعا له بخير، وصلى الظهر قاعداً، وصلى المسلمون معه قعوداً[4].

وجاءت نسوة من المهاجرين والأنصار، فيهن عائشة، وأم أيمن، وأم سليم، وأم سليط، فكن يملأن القرب بالماء، ويسقين الجرحى، ـ رضي الله عنهن ـ أجمعين[5].

حوار ومواعدة

ولما استعد المشركون للرجوع تمامًا أشرف أبو سفيان على الجبل، ونادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال:

---

(١) ابن هشام ٢/٨٦.

(٢) انظر زاد المعاد ٢/٩٥.

(٣) انظر ابن هشام ٢/١٢٢ – ١٢٩ وفتح الباري ٧/٣٥١.

(٤) ابن هشام ٢/٨٥، صحيح البخاري ٢/٥٨٤، السيرة الحلبية ٢/٣٠.

(٥) صحيح البخاري ١/٤٠٣، ٢/٥٨١ والسيرة الحلبية ٢/٢٢.

أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، وكان النبي ﷺ هو الذي نهاهم عن الإجابة، فقال أبو سفيان: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله! إن الذي ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوءك.

فقال أبو سفيان: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني، ثم قال: اعل هبل، فعلمهم النبي ﷺ الجواب، فأجابوه: الله أعلى وأجل.

ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم.

فعلمهم النبي ﷺ الجواب، فأجابوه: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال، يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: لا سواء. فقتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

قال أبو سفيان: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذن وخسرنا.

ثم دعاه أبو سفيان وقال: أنشدك الله يا عمر! أقتلنا محمداً؟

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: لا. وإنه ليستمع كلامك الآن.

قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر(١).

ثم نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام القابل.

فأمر رسول الله ﷺ أحد أصحابه أن يقول: نعم هو بيننا وبينك موعد(٢).

رجوع المشركين وقيام المسلمين بتفقد الجرحى ودفن الشهداء

ثم رجع أبو سفيان إلى جيشه، وأخذ الجيش في الارتحال، وقد ركب الإبل وجعل الخيل بالجنب، وكان هذا دليل قصدهم لمكة، وكان من فضل الله على المسلمين، إذ لم يكن بين المشركين وبين المدينة من يمنعهم عن الدخول فيها ولكن صرفهم الله الذي يحول بين المرء وقلبه.

(١) ابن هشام ٢/٩٣، ٩٤ وزاد المعاد ٢/٩٤ وصحيح البخاري ٢/٥٧٩.

(٢) ابن هشام ٢/٩٤.

فنزل المسلمون إلى ساحة القتال يتفقدون الجرحى والقتلى، وقد نقل بعضهم بعض الشهداء إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بردهم إلى مضاجعهم، ودفنهم في ثيابهم، بغير غسل ولا صلاة، وقد دفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد، وربما جمع بين الرجلين في ثوب واحد، وجعل بينهما الإذخر، وقَدَّم في اللحد من كان أكثر حفظًا للقرآن، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة(١).

ووجدوا نعش حنظلة بن أبي عامر في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء، فقال النبي ﷺ: «إن الملائكة تغسله»، وكان من قصته أنه كان حديث عهد بعرس وكان معها إذ سمع المنادي ينادي للحرب، فتركها، وخرج إلى ساحة القتال، وقاتل حتى قتل، وهو جنب، فغسلته الملائكة، فسمي غسيل الملائكة(٢).

وكفن حمزة في برد إن غط رأسه بدت رجلاه، وإن غط رجلاه بدا رأسه، فجعلوا على رجليه الإذخر، وكذلك مصعب بن عمير(٣).

إلى المدينة وفي المدينة

ولما فرغ رسول الله ﷺ والمسلمون من دفن الشهداء، والدعاء لهم، رجعوا إلى المدينة، وقد خرجت نسوة قتل أقاربهن، فلقين رسول الله ﷺ في الطريق، فعزاهن ودعا لهن، وجاءت امرأة من بني دينار قتل زوجها وأخوها وأبوها، فلما نعوا لها سألت عن رسول الله ﷺ فقالوا لها: إنه بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه، فأشاروا لها، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل: أي صغيرة(٤).

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ٣/٢٤٨ ح١٣٤٣، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٥٣، ٤٠٧٩.

(٢) انظر زاد المعاد ٢/٩٤.

(٣) روى ذلك أحمد والبخاري (فتح الباري ٣/٦٨–١٧٠) ح١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ٣٨٩٧، ٣٩١٣، ٣٩١٤، ٤٠٤٥.

(٤) ابن هشام ٢/٩٩.

وبات المسلمون في حالة الطوارئ، يحرسون المدينة، ويحرسون رسول الله ﷺ، وهم منهكون من الجرح والتعب، والحزن والألم، ورأى رسول الله ﷺ، أنه لا بد من متابعة حركات العدو؛ حتى يناجزه في الميدان لو حاول العودة إلى المدينة.

غزوة حمراء الأسد

فلما أصبح نادى في المسلمين أن يخرجوا للقاء العدو، ولا يخرج إلا من شهد القتال بأحد، فقالوا: سمعًا وطاعة، وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة، وعسكروا هناك.

أما المشركون فكانوا نازلين بالروحاء، بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، يفكرون ويتشاورون في العودة إليها، ويتأسفون على ما فاتهم من الفرصة الصالحة.

وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي من المناصحين لرسول الله ﷺ، فجاءه بحمراء الأسد، وعزاه على ما أصابه في أحد، فأمره رسول الله أن يلحق أبا سفيان ويخذله، فلحقهم بالروحاء، وقد أجمعوا ليعودوا إلى المدينة، فخوفهم أشد التخويف، وقال: إن محمداً خرج في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، ولا أرى أن ترتحلوا حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة.

فلما سمعوا هذا خارت عزائمهم، وانهارت معنوياتهم، واكتفى أبو سفيان بحرب أعصاب دعائية، إذ كلف من يقول للمسلمين: **﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾** [آل عمران: ١٧٣]، حتى لا يطارده المسلمون، وعجل على الارتحال إلى مكة.

أما المسلمون فلم يؤثر فيهم هذا الإنذار، بل: **﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾** [آل عمران: ١٧٣]. وبقوا في حمراء الأسد إلى يوم الأربعاء، ثم

رجعوا إلى المدينة: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤](١).

* * *

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد وحمراء الأسد من ابن هشام ٢/ ٦٠ - ١٢٩ وزاد المعاد ٢/ ٩١ - ١٠٨ وفتح الباري ٧/ ٣٤٥ - ٣٧٧، ومن صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرها.

أحداث وغزوات بعد أحد

كان لما أصاب المسلمين بأحد أثر سَيِّئ على سمعة المسلمين، فقد تجرأ الأعداء، وكشافوهم بالنزال ووقعت عدة أحداث لم يكن بعضها في صالح المسلمين، ونكتفي هنا بذكر الأهم منها.

بعث الرجيع

في شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة قدم على رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة، وذكروا أن فيهم إسلامًا، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث معهم ستة نفر - في قول ابن إسحاق، وفي رواية البخاري أنهم كانوا عشرة - وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي - في قول ابن إسحاق، وعند البخاري أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدة - استصرخوا عليهم حيًّا من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مئة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فأحاطوا بهم - وكانوا قد لجأوا إلى فدفد - وقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً. فأما عاصم فأبى من النزول وقاتلهم في أصحابه، فقتل منهم سبعة بالنبل، وبقي خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى، فنزلوا إليهم، ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم، فجرجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رءوسهم يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجونًا، ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه قال:

دعوني حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بَدَدًا، ولا تبق منهم أحدًا، ثم قال:

لقد أجمع الأحزابُ حولي وألَّبُوا ... قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مَجْمع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي ... وما جمع الأحزاب لي عند مضجعي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي ... فقد بضعوا لحمي وقد بؤس مطعمي
وقد خيروني الكفر والموت دونه ... فقد ذرفت عيناي من غير مدمع
ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شِقٍّ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْو مُمَزَّع

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال: لا والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه.

ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري، فاحتمله بخدعة ليلاً، فذهب به فدفنه، وكان الذي تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث. وكان خبيب قد قتل أباه حارثًا يوم بدر.

وفي الصحيح أن خبيبًا أول من سن الركعتين عند القتل، وأنه رئي وهو أسير يأكل قطفًا من العنب، وما بمكة ثمرة.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعة صفوان بن أمية فقتله بأبيه.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه ـ وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر ـ فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر ـ الزنابير ـ فحمته

من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. وكان عاصم أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا. وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته[1].

مأساة بئر معونة

وفي نفس الشهر الذي وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع، وهي التي تعرف بوقعة بئر معونة.

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك، المدعو بملاعب الأسنة، قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا جار لهم، فبعث معه أربعين رجلاً - في قول ابن إسحاق، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين، والذي في الصحيح هو الصحيح - وأَمَّرَ عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة الملقب بالمعتق ليموت، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم، وكانوا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن، ويصلون بالليل، فساروا حتى نزلوا بئر معونة - وهي أرض بين بني عامر وحرة بني سليم - فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

ثم استنفر عدو الله لفوره بني عامر إلى قتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته عصية ورعل وذكوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارتث من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

---

(١) ابن هشام ٢/١٦٩، وزاد المعاد ٢/١٠٩، صحيح البخاري ٢/٥٦٨، ٥٨٥.

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملاً معه أنباء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين. تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح، وأولئك ذهبوا في غدرة شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقرقرة من صدر قناة، نزل في ظل شجرة، وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل، فقال: لقد قتلت قتيلين لأدينهما، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود(١)، وهذا الذي صار سببًا لغزوة بني النضير، كما سيذكر.

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة(٢) تألمًا شديداً، وتغلب عليه الحزن والقلق(٣) حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه. ففي الصحيح عن أنس قال: دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا، يدعو في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية، ويقول: عصية عصت الله ورسوله،

---

(١) انظر ابن هشام ٢/١٨٣ إلى ١٨٨، زاد المعاد ٢/١٠٩، ١١٠، صحيح البخاري ٢/٥٨٤، ٥٨٦.

(٢) ذكر ابن سعد أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبي ﷺ في ليلة واحدة (٢/٥٣).

(٣) روى ابن سعد عن أنس ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة (٢/٥٤).

فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنًا قرأناه حتى نسخ بعد : (بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) فترك رسول الله ﷺ قنوته(١) .

غزوة بني النضير

قد أسلفنا أن اليهود يتحرقون على الإسلام والمسلمين، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب، بل كانوا أصحاب دسٍّ ومؤامرة، ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وأخذوا يتَّصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرًّا، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين(٢) . ثم زادت جرأتهم بعد وقعة الرجيع وبئر معونة حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ .

وبيان ذلك أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ـ وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة ـ فقالوا : نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك . فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه .

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وسوَّل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا : أيكم يأخذ هذه الرحى، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ . . . فقال أشقاهم عمرو بن جحاش : أنا فقال لهم سلام بن مشكم : لا تفعلوا . فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم، ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسول الله ﷺ يعلمه بما هموا به، فنهض مسرعًا، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا : نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همت به يهود .

---

(١) البخاري ٢ /٥٨٦ – ٥٨٨ .

(٢) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير ٣ /١١٦، ١١٧ (عون المعبود شرح سنن أبي داود) .

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم: اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، ولم يجد يهود مناصًا من الخروج، فأقاموا أيامًا يتجهَّزون للرحيل، بيد أن رئيس المنافقين - عبد الله بن أبي - بعث إليهم أن اثبتوا وتمنَّعوا. ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم **﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾** [الحشر: ١١] وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حيي ابن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك.

ولا شك أن الموقف كان حَرِجًا بالنسبة للمسلمين، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب، وقد رأوا كَلَب العرب عليهم، وفتكهم الشنيع ببعوثهم، ثم إن يهود بني النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال، وتجعل فرض القتال معهم محفوفًا بالمكاره، إلا أن الحال التي جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً، وضاعفت نقمتهم على مقترفيها، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بني النضير - بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ مهما تكن النتائج.

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيي بن أخطب كبَّر وكبَّر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وسار إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم في ذلك، فأمر بقطعها وتحريقها، وفي ذلك يقول حسان:

وهان على سراة بني لؤيٍّ حـريق بالبويرة مستطير

البويرة اسم لنخل بني النضير، وفي ذلك أنزل الله تعالى: **﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾** [الحشر:٥].

واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً، أو يدفع عنهم شرًّا، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم، وجعل مثلهم: **﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾** [الحشر:١٦].

ولم يطل الحصار - فقد دام ستَّ ليالٍ فقط، وقيل: خمس عشرة ليلة - حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام ولإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزلوا على ذلك، وخرَّبوا بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف، ثم حملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ست مئة بعير، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيي بن أخطب وسلام ابن أبي الحقيق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط: يامين ابن عمرو وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعًا، وخمسين بيضة، وثلاث مئة وأربعين سيفًا.

وكانت أموال بني النضير وأرضهم وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ، يضعها حيث يشاء، ولم يخمسها؛ لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما. وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله.

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة، أغسطس ٦٢٥م. وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها، فوصف طرد اليهود، وفضح مسلك المنافقين، وبين أحكام الفيء، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته.

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر: قل: سورة النضير(١).

هذه بخلاصة ما رواه ابن إسحاق وعامة أهل السير حول هذه الغزوة، وقد روى أبو داود وعبد الرزاق وغيرهما سبباً آخر حول هذه الغزوة، وهو أنه لما كانت وقعة بدر فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن أصاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء ـ وهو الخلاخيل ـ فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً، حتى نلتقي في مكان كذا نصف بيننا وبينكم فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون

(١) ابن هشام ٢/١٩٠ – ١٩٢، زاد المعاد ٢/٧١، ١١٠، صحيح البخاري ٢/٥٧٤، ٥٧٥.

إليه، ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرسلوا إليه: كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا، وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه، واشتملوا (أي اليهود) على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعًا حتى أدرك النبي ﷺ، فساره، بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم، وقال لهم: إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدونِّي عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلَّت الإبل إلا الحلقة - والحلقة: السلاح - فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلَّت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها، فيحملون ما وافقهم من خشبها، كان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام(١).

غزوة بدر الثانية

وفي شعبان سنة ٤هـ يناير سنة ٦٢٦م خرج رسول الله ﷺ إلى بدر للموعد المقرر بينه وبين أبي سفيان في أحد، ومعه ألف وخمس مئة من الصحابة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، فانتهى إلى بدر، وأقام بها ينتظر المشركين.

(١) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٥٨ - ٣٦٠ ح٩٧٣٣، وسنن أبي داود: كتاب الخراج والفيء والعمارة، باب في خبر النضير ٢/ ١٥٤.

وأما أبو سفيان، فخرج في ألفين من مشركي مكة، ومعهم خمسون فرسًا، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة ـ ماء في تلك الناحية ـ.

خرج أبو سفيان من مكة متثاقلاً يفكر في عقبى القتال مع المسلمين، وقد أخذه الرعب، واستولت على مشاعره الهيبة، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه، فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عامٌ خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا.

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستوليةً على مشاعر الجيش أيضًا، فقد رجع الناس ولم يبدوا أي معارضة لهذا الرأي، وأي إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين.

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم، وتوطدت هيبتهم في النفوس، وسادوا على الموقف.

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد، وبدر الثانية، وبدر الآخرة، وبدر الصغرى(١).

غزوة دومة الجندل

وقد خرج رسول الله ﷺ بعد بدر الموعد بستة أشهر إلى دومة الجندل لتأديب قُطَّاع الطريق، فنزل بساحتهم وتفرق أهلها فمكث خمسة عشر يومًا يَبُثُّ السرايا ويفرق الجيوش: ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق العدو.

---

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢/٢٠٩، ٢١٠، زاد المعاد ٢/١١٢.

غزوة الأحزاب

كاد رسول الله ﷺ والمسلمون يتفرغون لنشر دينهم، وإصلاح أحوالهم، بعد أن ساد الهدوء بفضل ما اتخذه رسول الله ﷺ من الخطط الحكيمة، فلم يحصل بعد غزوة بني النضير أيّة مواجهة تذكر، لفترة تجاوز سنة ونصف سنة، ولكن لم يرق اليهود أن يستريح المسلمون، فهم بعد ما استقروا بخيبر، واطمأنوا بها أخذوا يدبرون المؤامرات، ويتحركون وراء الستار، حتى نجحوا في جلب جيشٍ عرمرمٍ من قبائل العرب ضد أهل المدينة.

يقول أهل السير: إن عشرين رجلاً من ساداتهم وزعمائهم خرجوا إلى قريش، يحرضونهم على غزو المدينة، ووعدوهم بالنصر، فأجابت لهم قريش، ثم ذهبوا إلى غَطَفَان فأجابوا، ثم طافوا في القبائل فأجاب عدد منها، ثم حركوا هؤلاء القوم جميعًا تحت خطة منسقة حتى يصل الجميع إلى أطراف المدينة في زمن واحد.

الشورى وحفر الخندق

وبلغ خبر تجمعهم وتحركهم إلى المدينة فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، فأشار سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ بحفر الخندق، فاستحسنوه واتفقوا عليه.

وحيث إن المدينة تحيط بها اللاَّبات أي الحـرَّات ـ وهي الحجارة السود ـ من الشرق والغرب والجنوب، ولا تصلح لدخول العساكر إلا جهة الشمال فإن رسول الله ﷺ اختار في تلك الجهة أضيق مكان بين الحرَّة الغربية والشرقية ـ وهو نحو ميل ـ فوصل الحَرَّتين بحفر الخندق في هذا المكان، وبدأ هذا الخندق من جهة المغرب من شمال جبل سلع، ووصله في الشرق برأس ممتد من حجارة الحرة الشرقية عند أطم الشيخين.

وقد وكَّل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا أربعين ذراعًا، واشترك معهم رسول الله ﷺ في حفر الخندق ونقل التراب، وكانوا يرتجزون فيجيب، ويرتجز فيجيبون، وقد كابدوا أثناء حفره أنواعًا من المشقة، ولا سيما شدة البرد، وشدة الجوع، وكان يؤتى لهم بملء كَفٍّ من الشعير، فيصنع بدسم يفوح منها الريح، فيأكلونه، وهو يصعب مروره على الحلق(١)، وشكَوا إلى رسول الله ﷺ الجوع، وأروه على بطونهم حجراً كانوا قد ربطوه، فأراهم على بطنه حجرين(٢).

بعض الآيات:

وقد وقعت أثناء الحفر بعض الآيات، رأى جابر شدة الجوع في رسول الله ﷺ فلم يصبر: فذبح بهيمة له، وطحنت امرأته صاعًا من شعير، ثم دعا رسول الله ﷺ سرًّا، في نفر من أصحابه، فقام رسول الله ﷺ يجمع أهل الخندق، وهم ألف، فأكلوا وشبعوا وما زالت البُرمَة تَغِطُّ، والعجين يُخْبَز(٣)، وذهبت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر لأبيه وخاله فبدده رسول الله ﷺ فوق ثوب، ودعا أهل الخندق، فأكلوا ورجعوا، والتمر يسقط من أطراف الثوب(٤).

وعرضت لجابر وأصحابه أثناء الحفر كدية شديدة، فنزل رسول الله ﷺ وضربها بالمِعْوَل، فعادت كثيبًا أهيل(٥)، أي رملاً لا يتماسك، وعرضت للبراء وأصحابه صخرة، فنزل رسول الله ﷺ وقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة بالمعول فقطع قطعة، وخرج منها ضوء، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام وإني لأنظر إلى قصورها الحمراء الساعة، ثم ضرب الثانية وبشَّر بفتح فارس، ثم الثالثة وبشَّر بفتح اليمن، وانقطعت الصخرة(٦).

(١) انظر صحيح البخاري ١/٣٩٧، ٢/٥٨٨، ٥٨٩.

(٢) الترمذي: مشكاة المصابيح ٢/٤٤٨.

(٣) انظر صحيح البخاري ٢/٥٨٨، ٥٨٩.

(٤) ابن هشام ٢/٢١٨.

(٥) انظر: صحيح البخاري ٢/٥٨٨.

(٦) مسند أحمد وسنن النسائي ٢/٥٦.

بين طرفي الخندق

وأقبلت قريش ومن تبعهم في أربعة آلاف، ومعهم ثلاث مئة فرس، وألف بعير، يرأسهم أبو سفيان، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، فنزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة. وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف، فنزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد، وكان قدوم هذا الجيش العرمرم إلى أسوار المدينة بلاءً شديداً ومخيفًا جدًّا، كما قال الله ـ تعالى: **﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾** [الأحزاب: ١٠، ١١] فثبَّت الله المؤمنين، كما قال: **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾** [الأحزاب: ٢٢] أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فقالوا: **﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾** [الأحزاب: ١٢].

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وجعل النساء والذراري في الآطام، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع وتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار.

وبعد أن استقر المشركون وتهيأوا تقدموا نحو المدينة، فلما اقتربوا من المسلمين فوجئوا بخندق عريض يحول بينهم وبين المسلمين فبُهتوا، وقال أبو سفيان: تلك مكيدة ما عرفتها العرب، فأخذوا يدورون حوله في طيش وغضب، يطلبون نقطة يعبرون منها، والمسلمون يرشقونهم بالنبل، حتى لا يقتربوا منه فيتمكنوا من الاقتحام، أو من إهالة التراب وبناء الطريق عليه.

واضطر المشركون إلى فرض الحصار على المدينة بينما لم يكونوا مستعدين له، إذ لم يكن ذلك في حسابهم عند الخروج، فأخذوا يخرجون في النهار يحاولون

عـبور الخندق، والمسلمـون مـجـابهـون لـهم على طول الخط، يناضلون ويرامـون بالحـجارة: وقـد كثف المشركون جـهودهم مراراً، وأدامـوها طول النهـار، واضطر المسلمـون إلى الاسـتـمـرار في الدفـاع، حـتى فـاتـت منهـم ومن رسـول الله ﷺ الصلوات، ولم يتمكنوا من أدائها إلا بعد غروب الشمس، أو قريبًا من ذلك(١)، ولم تكن صلاة الخوف قد شرعت حينذاك.

وفي أحد الأيام خرج نفر من فوارس المشركين فيهم عمرو بن عبد وُدٍّ، وعِكرمة ابن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وغيـرهم، فقصـدوا مكانًا ضيـقًا من الخندق، واقتحموه، وجالت بهم خيلهم في الساحة التي بين الخندق وجبل سلع، فخرج علي بن أبي طالب في نفرٍ من المسلمين، فحال بينهم وبين المكان الذي اقتحموا منه الخندق، فدعا عمرو بن عبد وُدٍّ إلى المبارزة، وكان جريئًا فاتكًا فأغضبه علي حتى نزل من الفرس، فتجاولا وتصاولا حتى قتله علي، وانهزم الباقون وقد ملأهم الرعب حـتى ترك عـكرمـة رمـحـه، وسـقط نوفل بن عـبـد الله في الخندق فـقـتله المسلمون.

وأصيب أثناء المراماة عدد قليل من الطرفين، وبلغ عدد قتلى المشركين عشرة، وقتلى المسلمين ستة.

وأصيب سعد بن معاذ بسهم قطع أكحله، فدعا الله أن يبقيه إن كان قد بقي من حرب قريش شيء، وإلا فليعجل موته في هذا الجرح، ثم قال: في دعائه: «ولا تُمِتْني حتى تُقِرَّ عيني من قريظة»(٢).

غدر بني قريظة وأثره على سير الغزوة

وكانت قريظة في عهد مع رسـول الله ﷺ ـ وقد سبق ذكره ـ فجاء حُيَيُّ بن أخطب سيد بني النضير أثناء هذه الغزوة إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة

(١) انظر صحيح البخاري ٢ / ٥٩٠.

(٢) انظر صحيح البخاري ٢ / ٥٩١ وابن هشام ٢ / ٢٣٧.

فحسن له الغدر، وأغراه على نقض العهد، فنقض كعب العهد، وقام إلى جانب قريش والمشركين.

وكانت قريظة في جنوب المدينة، والمسلمون في شمالها، ولم يكن من يحول بين قريظة وبين نساء المسلمين وذراريهم، فكان الخطر عليهم شديداً، وبلغ الخبر رسول الله ﷺ فأرسل مَسلمة بن أسلم في مئتين وزيد بن حارثة في ثلاث مئة لحراسة ذراري المسلمين، وأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في رجال من الأنصار يستجلون له الخبر، فوجدوا اليهود على أخبث ما يكونون، فقد جاهروا بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: مَنْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فرجعوا وقالوا لرسول الله ﷺ: عضل وقارة: «يعني أن قريظة على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع».

وتفطن الناس، فاشتد خوفهم كما قال الله ـ تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] ونجم النفاق حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وقال آخرون: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وقالت طائفة منهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب:١٣]، وأراد فريق منهم الفرار فاستأذنوا النبي ﷺ وقالوا محتالين: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب:١٣]، وما هي بعورة، وقلق رسول الله ﷺ حين بلغه غدرهم، فتقنع بالثوب، واضطجع ومكث هكذا طويلا ثم نهض وقال: الله أكبر وبشر المسلمين بالفتح والنصر.

وأراد أن يرسل إلى عيينة بن حصن ليصالحه على ثلث ثمار المدينة وينسحب هو بغطفان فأبى ذلك سيدا الأنصار: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وقالا: كنا

نحن وهؤلاء على الشرك، ولم يَطمعوا أن يأكلوا منها ثمرة، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوَّب رأيهما.

تخاذل الأطراف ونهاية الغزوة

ولله في خلقة شئون، فقد جاء أثناء هذه الظروف القاسية نعيم بن مسعود الأشجعي، وهو من غطفان، وكان صديقًا لقريش واليهود، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال: أنت رجل واحد، ماذا عسى أن تفعل، ولكن خذِّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة.

فذهب نعيم إلى قريظة، فلما رأوه أكرموه، فقال: تعرفون وُدِّي لكم، وخاصة ما بيني وبينكم، وإني محدثكم حديثًا فاكتموه ثناء أثناء عني، قالوا: نعم، قال: قد رأيتم ما وقع لبني قينقاع، والنضير، وقد ظاهرتم قريشًا وغطفان، وهم ليسوا مثلكم، فالبلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وأما بلدهم وأموالهم ونساؤهم فبعيدة، فهم إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا لحقوا ببلادهم، وتركوكم ومحمداً ينتقم منكم كيف يشاء، قالوا، فما العمل؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن.

قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم توجه نعيم إلى قريش واجتمع برؤسائهم، وقال: تعلمون وُدِّي لكم ونصحي إليكم، قالوا: نعم. قال: فإني محدثكم حديثًا فاكتموه عني، قالوا: نفعل، قال: فإن يهود قد ندموا على نقضهم عهد محمد، وخافوا أن ترجعوا وتتركوهم معه، فراسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن ويدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فرضي بذلك، فاحذروهم وإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك.

وبهذا التدبير الحكيم تشككت النفوس وتشققت، وأرسل أبو سفيان وفداً إلى قريظة يدعوهم إلى القتال غداً، فقالوا: إن اليوم يوم السبت، ولم يصبنا ما

أصابنا إلا من التعدي فيه، ثم إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن منكم، لكي لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم، فقالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، وأرسلت قريش إلى اليهود تقول لهم: لا نرهنكم أحداً، واخرجوا للقتال. فقالوا: صدقكم والله نعيم. فخارت عزائم الفريقين وتخاذلوا.

أما المسلمون فكانوا يدعون: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»، وابتهل رسول الله ﷺ إلى ربه - عز وجل -: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»(١). فأرسل الله عليهم ريحًا وجنوداً من الملائكة فزلزلوهم وقذفوا في قلوبهم الرعب، وكفأت الريح قدورهم، وقلعت خيامهم، وضربهم البرد القارس حتى لم يقر لهم قرار، وبدءوا يتهيأون للرحيل.

وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة - رضي الله عنه - إليهم، ليأتي بخبرهم، فذهب ودخل بينهم، ثم رجع، ولم يجد مسَّ البرد، بل كأنه في حمام - الذي يغتسلون فيه بالماء الحميم أي الحار - فلما رجع أخبر برحيل القوم ونام. فلما أصبح المسلمون رأوا ساحة القتال من جهة الكفار ليس فيها داع ولا مجيب، **﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾** [الأحزاب: ٢٥].

كانت بداية هذه الغزوة في شوال سنة ٥هـ، ونهايتها بعد نحو شهر في ذي القعدة، وكانت أكبر محاولة قام بها أعداء الإسلام لضرب المدينة، وللقضاء عليها، وعلى الإسلام والمسلمين، ولكن الله خيبهم، ورد كيدهم في نحورهم، وكان فشلهم بمجموع هذه القوات يعني أن الطوائف الصغيرة والمتفرقة أولى أن لا تجترئ على التوجه إلى المدينة، وقد أخبر بذلك النبي ﷺ فقال: الآن نغزوهم ولا يغزونّا، نحن نسير إليهم(٢).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد ١/٤١١، وكتاب المغازي ٢/٥٩٠.

(٢) صحيح البخاري ٢/٥٩٠.

غزوة بني قريظة

ورجع رسول الله ﷺ من الخندق ونزع السلاح والثياب، وبينما هو يغتسل في بيت أم سلمة جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ، وأمره بالنهوض إلى بني قريظة، وقال: إني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، أقذف في قلوبهم الرعب، ثم سار في موكبه من الملائكة.

أما رسول الله ﷺ فأعلن في الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يُصَلِّين العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب، وقدمه في جماعة إليهم، فلما رأوه سبُّوا الرسول ﷺ وقالوا: قبيحًا، وبادر المسلمون في الخروج، وأدركت بعضهم العصر في الطريق فمنهم من صلى، ومنهم من أخر حتى وصل إلى بني قريظة، وخرج رسول الله ﷺ في موكب المهاجرين والأنصار حتى نزل على بئر من آبارهم اسمها: «أنا».

وألقى الله في قلوبهم الرعب، فتحصنوا في حصونهم، ولم يجترئوا على القتال، وحاصرهم المسلمون بشدة، فلما طال عليهم الحصار أرادوا أن يستشيروا بعض حلفائهم من المسلمين، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة ليستشيروه، فأرسله، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه، يريد أنه الذبح، ثم تنبه أنه بإشارته هذه خان الله ورسوله، فمضى على وجهه حتى أتى المسجد النبوي، وربط نفسه بسارية من سواريه، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ، بيده، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره قال: أما إنه لو جاءني لاستغفرت له. أما إذ فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه.

ومع طول الحصار انهارت معنويات بني قريظة، حتى نزلوا بعد خمس وعشرين ليلة على حكم رسول الله ﷺ، فاعتقل الرجال، وجعل النساء والذراري بمعزل عنهم في ناحية، وطلب حلفاؤهم الأوس أن يحسن إليهم، كما فعل ببني قينقاع حلفاء الخزرج، فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: فذاك إلى سعد بن معاذ. قالوا: قد رضينا.

وكان سعد في المدينة للجرح الذي أصابه أثناء غزوة الخندق، فجاءوا به راكبًا على حمار، فلما قرب من رسول الله ﷺ قال: قوموا إلى سيدكم، فقاموا إليه، وأحاطوا به من جانبيه، يقولون: يا سعد! أحسن في مواليكم، وهو ساكت لا يجيب، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لَوْمَةُ لائم. فلما سمعوا ذلك رجع بعضهم إلى المدينة ونعى إليهم القوم.

ولما نزل سعد، وأُخبر بنزول قريظة على حكمه، حكم فيهم أن يُقتل الرجال، وتُسبى الذرية وتُقَسَّم الأموال. فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات.

وقد كان هذا الحكم أيضًا طبقًا لشريعة اليهود، بل أرفق وأرحم من حكم شريعتهم.

وعلى إثر هذا القضاء الذي قضى به سعد بن معاذ أُتي ببني قريظة إلى المدينة، فحبسوا في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم ذهب بهم إلى هذه الخنادق أرسالاً، وضربت أعناقهم فيها، وكانوا أربعمئة، وقيل: ما بين الستمئة إلى السبعمئة.

وقتل معهم حيي بن أخطب سيد بني النضير، وكان من زعماء اليهود العشرين الذين حرضوا قريشًا وغطفان على غزوة الأحزاب، ثم كان قد جاء إلى قريظة، وأغراهم على نقض العهد، حتى غدروا بالمسلمين في أحرج ساعة من

حياتهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن يكون معهم يصيبه ما يصيبهم، فكان معهم في حصونهم أثناء الحصار والاستسلام حتى قتل.

وقد أسلم نفر من بني قريظة قبل النزول فلم يتعرض لهم، واستوهب بعضهم فتركوا وأسلموا، وقتلت امرأة من نسائهم؛ لأنها كانت قد طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته، وجُمعت السلاح والأموال فكانت ألفًا وخمس مئة سيف، وثلاث مئة درع، وألفي رمح، وخمس مئة ترس، وجحفة، وأثاثًا كثيرًا، وآنية وجمالاً وشياهًا، فخمس كل ذلك مع النخل والسبي، فأعطى للراجل سهمًا وللفارس ثلاثة أسهم، سهمًا لنفسه وسهمين لفرسه.

وأرسلت السبايا إلى نجد فابتيع بها السلاح، واصطفى النبي ﷺ منها ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة، فيقال: إنه تسرَّى بها[١]، ويقال: أعتقها وتزوجها، فتوفيت بعد حجة الوداع[٢].

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة سعد بن معاذ، وكان في خيمة في المسجد النبوي، ليعوده النبي ﷺ من قريب، فمرت عليه شاة فانتقض جرحه، وانفجر من ليلته، فسال الدم الغزير حتى توفي لأجله، وحملت جنازته الملائكة مع المسلمين، واهتز لموته عرش الرحمن[٣].

ومضى على أبي لبابة ست ليال تأتيه امرأته فتحله للصلاة، ثم يعود فيربط نفسه بالجذع، ثم نزلت توبته في بيت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ فبشرته بها، فثار الناس ليطلقوه فأبى حتى يطلقه رسول الله ﷺ، ففعل حين مر به لصلاة الصبح[٤].

---

(١) قاله ابن إسحاق، انظر ابن هشام ٢/ ٣٤٥.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٢.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٥٣٦، ٥٩١ وصحيح مسلم ٢/ ٢٩٤ وجامع الترمذي ٢/ ٢٢٥.

(٤) انظر لتفصيل الغزوتين ابن هشام ٢/ ٢٣٣ ـ ٢٧٣ وصحيح البخاري ٢/ ٥٩٠، ٥٩١ وزاد المعاد ٢/ ٧٢ ـ ٧٤.

النشاط العسكري بعد هذه الغزوة

قام المسلمون بعد غزوة بني قريظة بعدة أعمال عسكرية أهمها ما يلي:

مقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق

هو تاجر أهل الحجاز، ورئيس يهود خيبر، وأحد كبار المحركين والمؤلبين والممونين للأحزاب على أهل المدينة(١)، فلما تفرغ المسلمون من الأحزاب، وقريظة انتدب لقتله خمسة من رجال الخزرج ليحوزوا شرفًا مثل شرف الأوس حين قتلوا كعب بن الأشرف.

ووصل هؤلاء إلى حصنه في جهة خيبر حين غربت الشمس، فقال قائدهم عبد الله بن عتيك: مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب، لعلي أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنّع بثوبه كأنه يقضي حاجته، فهتف به البواب: يا عبد الله! إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب.

فدخل عبد الله بن عتيك، وكَمُنَ حتى نام الناس، فأخذ المفاتيح، وفتح الباب ليسهل له الهروب عند الحاجة، ثم توجه إلى بيت أبي رافع، فكان كلما فتح بابًا أغلقه من داخل حتى لو علم به الناس لا يصلون إليه حتى يقتل أبا رافع، فلما انتهى إلي بيته فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا يدري أين هو، فناداه: يا أبا رافع! قال: من هذا؟ فأهوى نحو الصوت وضربه ضربة بالسيف، وهو دهش، فما أغنت شيئًا، فخرج ثم جاء مَغَيِّرًا صوته، كأنه يغيثه، وقال: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف، فعمد إليه وضربه

(١) انظر فتح الباري ٧/٣٤٣.

ضربة أثخنته، ولم يقتله، فوضع السيف في بطنه وتحامل عليه حتى أخذ في ظهره، ثم خرج يفتح الأبواب بابًا بابًا، والليل مقمر، وبصره ضعيف، فظن أنه وصل إلى الأرض، فقدم رجله فوقع من السلم، فأصيبت رجله فعصبها بعمامته، واختفى عند الباب، فلما صاح الديك قام رجل على سور الحصن وقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فعرف أنه مات، فأتى أصحابه، ورجعوا، فلما انتهوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه ومسح رسول الله ﷺ رجله فكأنه لم يشتكها قط(١).

أسر ثمامة بن أثال سيد اليمامة

كان ثمامة من أشد الناس كراهية لرسول الله ﷺ ولدينه الإسلام حتى خرج متنكرًا في المحرم سنة ٦هـ يريد اغتيال النبي ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب(٢) وكان النبي ﷺ قد أرسل محمد بن مسلمة في ثلاثين راكبًا لتأديب بني بكر بن كلاب في ناحية ضريَّة على بعد سبع ليال من المدينة في طريق البصرة، فلما كانوا راجعين وجدوا ثُمامة في الطريق فأسروه، وجاءوا به إلى المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد، فمر به النبي ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ قال: عندي خير يا محمد! إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه، ثم مر به اليوم الثاني، ودار نفس الحديث، ثم اليوم الثالث كذلك، فقال: أطلقوا ثمامة، فأطلقوه، فاغتسل وأسلم، وقال: والله ما كان على ظهر الأرض من وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان على وجه الأرض من دين أبغض إليَّ من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إليَّ.

وفي العودة ذهب ثمامة إلى مكة معتمرًا فلامته قريش على إسلامه، فقال: والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، فلما انصرف

---

(١) انظر صحيح البخاري ٢/٥٧٧.

(٢) السيرة الحلبية ٢/٢٩٧.

منع بيع الحنطة لأهل مكة فجهدوا حتى كتبوا إلى النبي ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يسمح ببيع الطعام لهم، ففعل ﷺ(١).

غزوة بني لحيان

بنو لحيان هم الذين كانوا قتلوا المسلمين بالرجيع، وكانوا متوغلين في الحجاز إلى حدود عسفان. فأخَّر رسول الله ﷺ أمرهم، حتى إذا تخاذلت الأحزاب واطمأن من الأعداء استعمل على المدينة ابن أم مكتوم وخرج إليهم في ربيع الأول سنة ٦هـ، في مئتين من الصحابة ومعهم عشرون فرسًا، وأسرع السير إليهم حتى بلغ بطن غران، واد بين أمج وعسفان، حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم، ودعا لهم، وأقام في ذلك المكان يومين، أما بنو لحيان ففروا في رءوس الجبال، فلم يجد منهم أحدًا، وأرسل عشرة فوارس إلى عسفان لتسمع بهم قريش فيدخلهم الرعب، فذهبوا إلى كراع الغميم، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها أربع عشرة ليلة.

سرية العيص وإسلام أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ

في جمادى الأولى سنة ٦هـ أرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى العيص، في مئة وسبعين راكبًا، يعترضون عيرًا لقريش قادمة من الشام، كان يرأسها أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، فأخذها المسلمون، وأخذوا ما فيها، وأسروا رجالها، وأفلت أبو العاص فجاء إلى المدينة، واستجار بزينب، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ أن يرد عليه أموال العير ففعلت، ورد عليه كل شيء، الصغير والكبير والقليل والكثير.

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة، فرجع إلى مكة، وأدى الأمانات إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح

(١) صحيح البخاري ح٤٣٧٢ وغيره، فتح الباري ٧/٦٨٨، زاد المعاد ٢/١١٩.

الأول، وذلك بعد ثلاث سنوات ونيف(١)، ولم تكن آية تحريم المسلمات على الكفار نزلت إلى ذلك الوقت، فكان النكاح باقيًا على حاله(٢).

هذا، وقد أرسل رسول الله ﷺ عدة سرايا خلال هذه الفترة، كان لها أثر بالغ في كبح جماح العدو، وإخماد شره، واستتباب الأمن وبسط السلام إلى أماكن بعيدة، ثم نقل إليه ﷺ ما أدى إلى قيامه بغزوة بني المصطلق.

* * *

(١) انظر لذلك سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود: باب: إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها.

(٢) وممن ذكر هذه السرية في حوادث سنة ٦هـ ابن حجر في فتح الباري ٧/٤٩٨ فانظر للسرايا المذكورة زاد المعاد ٢/١٢٠-١٢٢ ورحمة للعالمين ٢/٢٢٦.

غزوة بني المصطلق، وهي غزوة المريسيع

بنـو المصطلق فـرع من قبـيلة خزاعـة، وكـانت عامة بطون خزاعة ممالئين لرسول الله ﷺ ناصحين له، ولكن كان هذا الفرع منها ممالئًا لقريش، وقد نقل إلى رسول الله ﷺ أنهم يستعدون لقتاله، فبعث بريدة بن الحصيب لتحقيق هذا الخبر، فتأكد لديه صحته، فاستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل: غيره، وأسرع في الخروج إليهم، ليباغتهم بالهجوم، ومعه سبع مئة من الصحابة، وكان بنو المصطلق نازلين على ماء يسمى بالمُرَيسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فأغار عليهم وهم غـارون[١]، فقتل بعضهم، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، وذلك لليلتين من شعبان سنة ٦ هـ، وقيل: ٥ هـ، وكان في السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق، فلما قدم ﷺ المدينة أعتقها وتزوجها بعد أن أسلمت، فأعتق المسلمون مئة من أهل بيت بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فكانت أعظم النساء بركة على قومها[٢].

تلك هي غزوة بني المصطلق بإيجاز، ليس فيها ما يُستغرب، لكن وقعت خلالها حادثتان مؤلمتان استغلهما المنافقون لإثارة الفتن والاضطراب في المجتمع الإسلامي، وحتى في البيت النبوي:

١ ـ الأولى: قول رأس المنافقين:

﴿**لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**﴾ [المنافقون: ٨]: وسبب ذلك أن رجلاً من حلفاء المهاجرين وآخر من حلفاء الأنصار ازدحما على ماء

(١) انظر لذلك صحيح البخاري: كتاب العتق ١/٣٤٥ وانظر أيضًا فتح الباري ٥/٢٠٢ و٧/٤٣١.

(٢) انظر زاد المعاد ٢/١١٢: ١١٣، ابن هشام ٢/٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٥.

المريسيع، فضرب المهاجري الأنصاري، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، واجتمع ناس من الطرفين، فبادرهم رسول الله ﷺ وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة»، فعاد الناس إلى رشدهم ورجعوا.

وكانت جماعة من المنافقين قد خرجت في هذه الغزوة لم تخرج من قبل، ومعهم رئيسهم عبد الله بن أبي، فلما بلغه الخبر استشاط غضبًا، وقال: أَوَقَدْ فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عُدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمِّن كَلْبك يأكلك، أَمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، أراد بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ ـ العياذ بالله ـ وأخذ يدبر لذلك الفتن، حتى قال لرفقائه: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم لتحولوا إلى غير داركم.

وكان معهم حينما قال ما قال شاب مؤمن قوي الإيمان: زيد بن أرقم لم يصبر على هذا الهراء حتى أبلغ الخبر رسول الله ﷺ، فدعا ﷺ ابن أبي، وسأله عن ذلك، فحلف أنه لم يقل شيئًا مما بلغه، فأنزل الله سورة المنافقين، وفضحه إلى يوم الدين(١).

وكان ابن هذا المنافق ـ واسمه أيضًا عبد الله ـ مؤمنًا خالصًا، فوقف على باب المدينة مستلاً سيفه وقال لأبيه رأس المنافقين: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل إليه أن يأذن له، فخلى سبيله(٢)، وبهذه الحكمة انتهت هذه الفتنة.

---

(١) انظر للتفصيل صحيح البخاري (١/٤٤٩، ٢/٧٢٧-٧٢٩)، وصحيح مسلم حديث (٢٥٨٤)، وجامع الترمذي، حديث (٣٣١٢)، وابن هشام (٢/٢٩٠-٢٩٢).

(٢) ابن هشام (٢/٢٩٢)، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي (ص٢٢٧).

٢ ـ الحادثة الثانية : قول المنافقين بالإفك

وحديث ذلك أن النبي ﷺ نزل في عودته من تلك الغزوة منزلاً حين دنا من المدينة، ثم أذن بالرحيل ليلاً، وكانت معه عائشة ـ رضي الله عنها ـ، فخرجت لحاجتها، فلما رجعت التمست صدرها فرأت أنها فقدت عقدها، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه حتى وجدته، وارتحل الجيش، وحملوا هودجها على بعيرها ظنًّا منهم أنها فيه، ولم ينكروا خفة الهودج لكونهم جماعة، ولكونها خفيفة، ورجعت عائشة إلى منازلهم فلم تجد أحداً، فقعدت هناك على أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها إلى هذا المكان فغُلبت عيناها حتى نامت.

وكان أحد الصحابة ـ وهو صفوان بن المعطل السلمي ـ رضي الله عنه ـ قد بات من وراء الجيش، وكان كثير النوم فلم يستيقظ إلا مؤخراً، فسلك سبيل الجيش، فلما تقدم رأى سواد إنسان نائم، فلما قرب منه عرف أنها عائشة؛ لأنه كان رآها قبل الحجاب، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ؟ لم يقل كلمة غير ذلك، واستيقظت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بسماع صوته، فخمرت وجهها بجلبابها، وقرب صفوان راحلته، وأناخها فركبت، وأمسك هو زمام الناقة يمشي أمامها، حتى وصل إلى الجيش، وهم نازلون نحر الظهيرة.

ولما رأى ذلك عدو الله ابن أبي وجد متنفساً من كرب النفاق والحقد، فاتهمها بالفجور إفكًا وزوراً، وأخذ يستحكي ذلك، ويستوشيه، ويجمعه ويفرقه، ويشيعه ويذيعه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاضوا منه، حتى انخدع عدد من المؤمنين.

ومرضت عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين قدمت المدينة، وطال مرضها نحو شهر، فكانت المدينة تموج بقول أهل الإفك، وهي لا تعلم شيئًا، وإنما كان يريبها أنها لم تكن ترى اللطف الذي كانت تراه من رسول الله ﷺ حين تشتكي، فكان ﷺ يدخل عليها فيسلم ويقول: كيف تيكم؟ ثم يرجع ولا يجلس عندها.

وكان ﷺ طوال هذه الفترة ساكتًا لا يتكلم، فلما استلبث الوحي طويلاً استشار أصحابه فأشار علي بن أبي طالب بفراقها تلويحًا، وأشار أسامة وغيره بإمساكها، وأنها كالتبر الخالص، فقام ﷺ على المنبر واستعذر من رجل بلغ أذاه في أهله ـ وكانت الإشارة إلى عبد الله بن أبي ـ فأظهر سيد الأوس رغبته في قتله، فأخذت الحمية سيد الخزرج، لأن ابن أبي كان منهم، فتثاور الحيان حتى خفضهم رسول الله ﷺ.

وخرجت عائشة ذلك اليوم لحاجتها ليلاً، وقد نقهت من المرض، ومعها أم مسطح فعثرت في مرطها، فدعت على ابنها مسطح، فاستنكرت ذلك عائشة فأخبرتها الخبر، وأن ابنها ممن يقول بقولهم، فرجعت عائشة فاستأذنت رسول الله ﷺ وأتت أبويها، فلما تأكد لديها الخبر جعلت تبكي وتبكي حتى بكت ليلتين ويومًا، لم تكتحل أثناءها بنوم، ولم يرقأ لها دمع حتى ظنت وظن أبواها أن البكاء فالق كبدها.

وجاءها رسول الله ﷺ صباح الليلة الثانية فجلس وتشهد وقال:

أما بعد، يا عائشة! فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

وحينئذ قلص دمعها، وقالت: لكل من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان، فقالت: والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة ـ والله يعلم أني بريئة ـ لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحي ساعته، فسري عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: (يا عائشة! أما الله فقد برأك) . فقالت: لها أمها: قومي إليه، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله .

والذي أنزله الله ـ تعالى ـ في براءتها عشر آيات في سورة النور قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١] إلى أخر الآية العشرين .

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله من براءتها فلما نزل أمر برجلين وامرأة من المؤمنين الخالصين فجلدوا، كل واحد ثمانين جلدة، وهم: حسان بن ثابت: ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، زلت أقدامهم فأفضوا في الإفك، وأما رأس المنافقين الذي تولى كبره، ورفقته، فلم يعاقبوا في هذه الحياة الدنيا(١)، ولكنهم سيقفون بين يدي الله يوم الدين، ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] .

* * *

(١) انظر للتفصيل صحيح البخاري ١/٣٦٤، ٢/٦٩٦-٦٩٨، وزاد المعاد ٢/١١٣-١١٥، وابن هشام ٢/٢٩٧-٣٠٧.

عمرة الحديبية

الخروج للعمرة والنزول بالحديبية

أُري رسول الله ﷺ في المنام، وهو في المدينة أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلِّقين رءوسهم ومقصرين، فأخبر بذلك المسلمين، وأخبر أنه يريد العمرة، واستنفر الأعراب الذين حوله، فأبطأوا، وظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وتخلصوا قائلين: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا.

وخرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة ٦هـ، في ألف وأربع مئة من المهاجرين والأنصار، وساق معه الهدي، ليعلم الناس أنه لم يخرج محارباً لكنْ معتمراً. فلما بلغ ذا الحُليفة قلَّد الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة.

ثم سار حتى بلغ عسفان، فجاءه عينه، وأخبره أن قريشاً مجمعون على القتال، وصد المسلمين عن البيت الحرام، وكانت قريش قد نزلوا بذي طوى، وأرسلوا خالد بن الوليد في مئتي فارس إلى كراع الغميم، قريباً من عسفان، ليسد الطريق النافذ إلى مكة، وجمعوا الأحابيش ليعينوهم، فاستشار رسول الله ﷺ هل يهاجم المجتمعين من الأحابيش، أو يقصد البيت، فمن صده يقاتله؟ فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: جئنا معتمرين، لا مقاتلين، فمن حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقبل النبي ﷺ هذا الرأي.

ورأى خالد المسلمين في صلاة الظهر، وهم يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم، ثم قرر أن يهجم أثناء صلاة العصر، فأنزل الله صلاة الخوف بين الظهر والعصر ففاتته الفرصة.

وأخذ رسول الله ﷺ طريقًا آخر غير طريقهم فسلك ذات اليمين من أسفل مكة حتى بلغ ثنية المرَّار مهبط الحديبية، فلما بلغها بركت ناقته، فزجرها فلم تقم فقالوا: خلأت القصواء، فقال: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت، فتقدم حتى نزل بالحديبية.

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة - وكانوا ناصحين لرسول الله ﷺ فأخبره، أن قريشًا مستعدون لقتاله وصده عن البيت الحرام، فأخبره رسول الله ﷺ أنه ما جاء إلا للعمرة، وما جاء للقتال، وأنه مستعد للهدنة وللصلح، ولكن إن أبت قريش إلا القتال فإنه يقاتلهم حتى تقطع عنقه، أو ينفذ الله أمره.

بين رسول الله ﷺ وقريش

ولما رجع بديل أبلغ ذلك قريشًا، فأرسلوا مكرز بن حفص، فقال له رسول الله ﷺ مثل ما قال لبديل، فأرسلوا سيد الأحابيش: الحليس بن عكرمة، فلما أشرف على المسلمين قال لهم رسول الله ﷺ: هذا من قوم يعظمون الهدي فابعثوا الهدي في وجهه، ففعلوا واستقبلوه يلبون، فلما رأى الحليس ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، أتحج لخم وجذام وحمير، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب؟ هلكت قريش ورب البيت، إن القوم أتوا معتمرين، فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا: اجلس إنما أنت أعرابي، لا علم لك بالمكايد.

ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي، فجاء وتكلم، فقال له رسول الله ﷺ مثل ما قال لبديل، فقال: أي محمد! أرأيت لو استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى أي الهزيمة لك فإني أرى حولك أوباشًا من الناس جديرون أن يتركوك ويفروا، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه! فلم يستطع أن يرد على أبي بكر، لإحسان أبي بكر إليه من قبل.

وكان عروة يأخذ لحية النبي ﷺ ـ حين يتكلم، فكان المغيرة بن شعبة يضرب يده بنعل السيف ويقول: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فقال له عروة: أي غدر! ألست أسعى في غدرتك؟.

وكان المغيرة ابن أخي عروة، وكان قتل قوماً وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فلم يقبل منه رسول الله ﷺ إلا الإسلام، وكان عروة يسعى في ذلك؛ فأشار بغدرته إلى هذه القضية.

ورأى عروة تعظيم الصحابة للنبي ﷺ فلما رجع قال لقريش: أي قوم! لقد وفدت على الملوك: على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

وخلال المفاوضات تسلل في الليل طائفة من شباب قريش الطائشين: سبعون أو ثمانون، فهبطوا من جبل التنعيم إلى معسكر المسلمين، وأرادوا بذلك القضاء على محاولات الصلح، ولكن المسلمين ألقوا عليهم القبض، ثم أطلقهم النبي ﷺ وعفا عنهم، فكان له أثره على إلقاء الرعب في قلوب قريش، وميلهم إلى الصلح، وفي ذلك أنزل الله قوله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾** [الفتح: ٢٤].

عثمان بن عفان رسولاً إلى قريش وبيعة الرضوان:

وحينئذ قرر رسول الله ﷺ إرسالَ رسولٍ إلى قريش يؤكد لهم أنه ما جاء إلا للعمرة، فأرسل عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وأمره أيضاً أن يأتي المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات بمكة، فيبشرهم بقرب الفتح، وأن الله مظهر دينه حتى لا يستخفي في مكة أحد بالإيمان.

ودخل عثمان ـ رضي الله عنه ـ في مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي، فبلغ الرسالة وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت، فأبى أن يطوف ورسول الله ﷺ ممنوع.

وحبست قريش عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولعلهم أردوا أن يتشاوروا فيما بينهم، ثم يرسلوه مع الجواب وشاع بين المسلمين أنه قتل. وقتلُ الرسول يعني الإعلان عن الحرب، فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك قال: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس وهو تحت شجرة، أن يبايعوه على القتال، فثار الناس إليه، وبايعوه ـ بحماس ـ على الموت، وعلى أن لا يفروا، وأخذ رسول الله ﷺ إحدى يديه بالأخرى، وقال: هذه عن عثمان، ولما انتهت البيعة جاء عثمان ـ رضي الله عنه ـ. وأنزل الله في فضل هذه البيعة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨]. ومن هنا سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان.

عقد الصلح

وسمعت قريش بهذه البيعة فداخلهم رعب عظيم، وأسرعوا بإرسال سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فجاء، وتكلم طويلاً حتى قبل منه رسول الله ﷺ الشروط الآتية:

١ ـ أن الرسول ﷺ يرجع مع المسلمين هذا العام، ولا يدخل مكة، ويدخلها العام القابل، فيقيم بها ثلاثة أيام، ولا يكون معه من السلاح إلا السيف في القراب.

٢ ـ توضع الحرب بين الفريقين عشر سنين.

٣ ـ من أراد أن يدخل في عهد محمد ﷺ دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

٤ ـ من التجأ من قريش إلى المسلمين يرده المسلمون إلى قريش، ومن التجأ من المسلمين إلى قريش لا ترده قريش إلى المسلمين.

ثم دعا عليًّا وأملى عليه أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: ما ندري ما الرحمن. اكتب: باسمك اللهم، فأمره رسول الله ﷺ أن يكتب ذلك، ثم أملى: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال: إني رسول الله وإن كذبتموني. وأمر عليًّا أن يمحو ذلك، ويكتب محمد بن عبد الله، فامتنع علي عن المحو، فمحاه ﷺ بيده الشريفة، وكُتِبَتْ نسختان، نسخة لقريش، ونسخة للمسلمين.

قضية أبي جندل والنساء المهاجرات

وبينما الكتاب يكتب جاء أبو جندل ـ وهو ابن سهيل بن عمرو؛ ممثل قريش في هذا الصلح ـ وهو يحجل في قيوده، فطلب سهيل رده، فقال النبي ﷺ إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال: إذن لا أقاضيك، فقال ﷺ: «فأجزه لي» قال: لا. وضرب سهيل أبا جندل، وصاح أبو جندل: يا معشر المسلمين! أرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال ﷺ: «اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا»، وأغرى عمر بن الخطاب أبا جندل ليقتل أباه سهيلاً فلم يفعل.

حل المسلمين من العمرة وحزنهم على قضية الصلح

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال للمسلمين: قوموا فانحروا، فما قام أحد. حتى قالها ثلاث مرات، فما قام أحد، فدخل على أم سلمة وذكر لها ذلك، فأشارت أن يقوم فينحر بُدْنَه ويحلق رأسه، ولا يكلم أحداً، ففعل، وقد نحر جملاً لأبي جهل كان في أنفه برة من فضة، ليغيظ به المشركين، فلما رأى الناس قاموا فنحروا وحلقوا، وكاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا، وقد نحروا الجمل أو الناقة عن سبعة والبقرة عن سبعة.

وعلى إثر ذلك جاءت نسوة مؤمنات فامتنع عن ردهن كما سيأتي.

وكان حزن المسلمين لسببين اثنين: الأول رجوعهم بغير عمرة، والثاني عدم المساواة بين الطرفين؛ فالمسلمون يردون من جاء إليهم، وقريش لا يردون، فطمأنهم رسول الله ﷺ عن الأول بأنهم سوف يعتمرون العام القادم، فالرؤيا صادقة، وفي هذا الجزء من الصلح مراعاة لمشاعر الفريقين، وطمأنهم عن الثاني بأن من ذهب منا إليهم فقد أبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

وكان قوله ﷺ هذا مبنيًا على نظره البعيد، فإن جماعة من المسلمين لما تَزَلْ في الحبشة، ولم يكن ينطبق عليهم هذا العهد، فكان يمكن اللجوء إليهم للمحبوسين في مكة، لكن ظاهر العهد كان في صالح قريش، فلم يزل له أثر شديد في أعماق مشاعر المسلمين، حتى جاء عمر بن الخطاب، وقال: يارسول الله! ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب! إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري ولن يضيعني أبدًا.

ثم انطلق عمر متغيظًا إلى أبي بكر فقال له ما قال لرسول ﷺ، وأجابه أبو بكر بما أجاب به رسول الله ﷺ. ثم قال لعمر: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

ثم أنزل الله ـ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] الآيات. فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقراه إياها فقال: يا رسول الله! أَوَفَتْحٌ هو؟ قال: نعم: فطابت نفسه، ورجع.

ثم ندم عمر ما فرط منه فعمل لأجله أعمالاً: لم يزل يتصدق ويصوم ويصلي ويعتق حتى رجا الخير.

قضية النساء المهاجرات

وبعد إبرام الصلح، والحل من العمرة، جاءت نسوة مؤمنات فطلب أولياؤهن الكفار من رسول الله ﷺ أن يردهن، فامتنع عن ذلك، بدليل أنهن لم يدخلن في العهد، وأنزل الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ**﴾ [الممتحنة: ١٠]. فحرم المؤمنات على الكفار، والكافرات على المؤمنين.

فكان رسول الله ﷺ يمتحن هؤلاء المهاجرات بما أُمر به في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الممتحنة: ١٢]. فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: قد بايعتك ـ كلامًا دون مصافحة ـ ولم يكن يردهن، وطلق المسلمون أزواجهم الكافرات، وفرقوا بين المسلمات وأزواجهن الكفار.

دخول خزاعة في عهد المسلمين وحل قضية المستضعفين

واختارت خزاعة أن يكونوا مع رسول الله ﷺ في هذا الميثاق فدخلوا في عهده ـ وقد كانوا حلفاء بني هاشم من زمن الجاهلية ـ ودخلت بنو بكر في عهد قريش فكانوا هم السبب في فتح مكة، وسيأتي.

أما المسلمون المعذبون في مكة، فانفلت منهم رجل اسمه أبو بصير، وجاء إلى المدينة، فأرسلت قريش رجلين إلى النبي ﷺ ليرده، فرده، فلما نزل بذي الحليفة قتل أبو بصير أحدهما وفر الآخر حتى انتهى إلى النبي ﷺ، وقال: قتل صاحبي وإني لمقتول. وجاء أبو بصير فزجره النبي ﷺ، فعرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى

أتى سيف البحر، أي ساحله، وانفلت أبو جندل فلحق به، فجعل لا يخرج رجل من قريش قد أسلم إلا لحق به، حتى اجتمعت منهم جماعة، وأخذت تعترض كل عير لقريش تخرج إلى الشام، فتهجم عليها وتأخذ أموالها، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم أن يستقدمهم إلى المدينة، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل إليهم فقدموا، وانحلت المشكلة(١).

أثر الصلح

كان لهذا الصلح أثر كبير في تسيير الدعوة الإسلامية، فقد وجد المسلمون فرصة اللقاء بعامة العرب ودعوتهم إلى الله، فدخل الناس في الإسلام بكثرة، وبلغ عددهم في عامين ما لم يبلغ خلال تسعة عشر عامًا، وقد جاء كبار قريش وخلاصتها: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة إلى رسول الله ﷺ، طائعين راغبين، يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويبايعونه على الإسلام، ويبذلون له كل ما يملكون من غالٍ ورخيص، ويفْدونه بالنفوس والأرواح والمواهب، والقدرات، وقد قال رسول الله ﷺ، حينما جاءوا: «إن مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

* * *

(١) انظر لتفصيل عمرة الحديبية وصلحها صحيح البخاري ١/٣٧٨-٣٨١، ٢/٥٩٨، ٦٠٠، ٧١٧ وصحيح مسلم ٢/١٠٤-١٠٦ وفتح الباري ٧/٤٣٩-٤٥٨ وابن هشام ٢/٣٠٨-٣٢٢ وزاد المعاد ٢/١٢٢-١٢٧ وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٣٩، ٤٠.

مكاتبة الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبي ﷺ خاتمًا من فضة، نقشه: محمد رسول الله، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد سطر، رسول سطر، والله سطر، هكذا: (١).

واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك، وفيما يلي نصوص هذه الكتب، وبعض ما نتج عنها:

١ - كتابه ﷺ إلى النجاشي: أصحمة بن الأبجر ملك الحبشة، كتب فيه.

«هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة.

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الإسلام فإني أنا رسوله، فأسلم تسلم: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤]. فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك».

وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري، فلما أخذه النجاشي وضعه على عينيه، ونزل عن السرير، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وكتب إلى النبي ﷺ:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح البخاري ٢/٨٧٢، ٨٧٣.

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت فروقًا، إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين»(١).

وكان النبي ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجري الحبشة، فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم على النبي ﷺ وهو بخيبر(٢). وتوفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك، ونعاه النبي ﷺ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب، ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبي ﷺ كتابًا آخر. ولا يُدْرَى هل أسلم أم لا؟(٣).

٢ ـ الكتاب إلى المقوقس ملك مصر

وكتب النبي ﷺ إلى جريج بن متَّى(٤) الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط، **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا**

(١) زاد المعاد ٣/٦١.

(٢) ابن هشام ٢/٣٥٩.

(٣) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٢/٩٩.

(٤) هذا على رأي العلامة المنصور فوري في كتابه رحمة للعالمين ١/١٧٨، وقال الدكتور حميد الله: «إن اسمه بنيامين». انظر: رسول أكرم كي سياسي زندكى ص١٤١

نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤](١).

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة. فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك.

فقال المقوقس: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلي الإنجيل، فكل نبي أدرك قومًا فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضالّ، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي ﷺ، فجعله في حق من عاج، وختم عليه، ودفع إلى جارية له، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم» لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد

(١) هذا النص أورده ابن القيم في زاد المعاد ٣ / ٦١، والذي أورده الدكتور حميد الله أخذا من صورة الكتاب الذي عثر عليه في الماضي القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص، ففيه: «فأسلم تسلم يؤتك الله» إلخ، وفيه: «إثم القبط» بدل قوله: «إثم أهل القبط». انظر: رسول أكرم كي سياسي زندكي ص١٣٦، ١٣٧.

علمت أن نبيًّا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك».

ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة دلدل، بقيت إلى زمن معاوية[1]، واتخذ النبي ﷺ مارية سرية له، وهي التي ولدت له إبراهيم. وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري.

٣ ـ الكتاب إلى كسرى ملك فارس

وكتب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلي الناس كافة، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين، ولا ندري هل بعث عظيم البحرين رجلاً من رجالاته، أم بعث عبد الله السهمي، وأيًّا ما كان فلما قُرِئَ الكتاب على كسرى مزقه، وقال في غطرسة: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: مزق الله ملكه، وقد كان كما قال، فقد كتب كسرى إلى بَاذَان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين، فليأتياني به. فاختار بَاذَان رجلين ممن عنده، أحدهما: قهرمانه بانويه، وكان حاسبًا كاتبًا بكتاب فارس. وثانيهما: خرخسرو من الفرس[2]، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمر أن

(١) زاد المعاد ٣/ ٦١.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٧.

ينصرف معه إلى كسرى، فلما قدما المدينة، وقابلا النبي ﷺ، قال أحدهما: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثني إليك لتنطلق معي، وقال قولاً توعده فيه، فأمرهما النبي ﷺ أن يلاقياه غداً.

وفي ذلك الوقت كان قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسه، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع(١)، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك. فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك. قال: نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى! وينتهي إلى منتهى الخف والحافر. وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك من الأبناء، فخرجا من عنده حتى قدما على بَاذَان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه في كتابه: انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمري.

وكان ذلك سببًا في إسلام بَاذَان ومن معه من أهل فارس باليمن(٢).

٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم

روى البخاري ضمن حديث طويل نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل، وهو هذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت

(١) فتح الباري ٨/١٢٧، وتاريخ ابن خلدون ٢/٣٧.

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/١٤٧، فتح الباري ٨/١٢٧، ١٢٨.

فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤](١).

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء(٢)، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فو الله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه.

ثم قال: أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل

---

(١) صحيح البخاري ١/٤، ٥.

(٢) كان قيصر جاء إذ ذاك في إيلياء - بيت المقدس - من حمص، شكراً لما مَنّ الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس (انظر صحيح مسلم ٢/٩٩)، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز، وصالحوا الروم على تسليم جميع ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر، وردوا إليه الصليب الذي تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩م (أي سنة ٧هـ) يضع الصليب في موضعه، ويشكر الله على هذا الفتح المبين.

أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ـ قال: ولم تمكنني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة ـ قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا. قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. فقلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابه حين أخرجنا: لقد أمِرَ

أمْر ابن أبي كبشة(١)، إنه ليخافه ملك بني الأصفر(٢)، فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام(٣).

هذا ما رآه أبو سفيان من إثر هذا الكتاب على قيصر، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة الكلبي، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة، ولما كان دحية بحسمى في الطريق لقيه ناس من جذام، فقطعوها عليه، فلم يتركوا معه شيئًا، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته، فأخبره، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى، وهي وراء وادي القرى، في خمس مئة رجل، فشن زيد الغارة على جذام، فقتل فيهم قتلاً ذريعًا، واستاق نعمهم ونساءهم، فأخذ من النعم ألف بعير، ومن الشاة خمسة آلاف، والسبي مئة من النساء والصبيان.

وكان بين النبي ﷺ وبين قبيلة جذام موادعة، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي ﷺ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق فقبل النبي ﷺ احتجاجه، وأمر برد الغنائم والسبي.

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه السرية قبل الحديبية، وهو خطأ واضح، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديبية. ولذا قال ابن القيم: هذا بعد الحديبية بلا شك(٤).

---

(١) أبو كبشة هو وجز بن غالب الخزاعي جد وهب بن عبد مناف من جهة الأم، ووهب هو جد النبي ﷺ من جهة الأم، كان أبو كبشة مشركًا فذهب إلى الشام فتنصر، فلما خالف النبي ﷺ دين قريش وجاء بالحنيفية شبهوه به ونسبوه إليه للتعيير (دلائل النبوة للبيهقي ١/٨٢، ٨٣، والسيرة النبوية لابي حاتم ص٤٤). ويقال: إن ابا كبشة كنية لزوج السيدة حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ فهو ابوه من الرضاعة فكانوا ينسبونه إليه تصغيراً. والله اعلم.

(٢) بنو الأصفر هم الروم.

(٣) صحيح البخاري ١/٤، وصحيح مسلم ٢/٩٧-٩٩.

(٤) انظر زاد المعاد ٢/١٢٢، وحاشية تلقيح فهوم أهل الأثر ص٢٩.

٥ ـ الكتاب إلى المنذر بن ساوى :

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ : أما بعد يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إليّ في ذلك أمرك، فكتب إليه رسول الله ﷺ :

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك. ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»(١).

٦ ـ الكتاب إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة

وكتب النبي ﷺ إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة :

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك.

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامري، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختوماً أنزله وحياه، وقرأ عليه الكتاب، فرد عليه رداً دون رد،

(١) زاد المعاد ٣ / ٦١، ٦٢، والنص الذي أورده الدكتور حميد الله آخذاً من صورة الكتاب الذي عثر عليه في الماضي القريب يختلف في كلمة واحدة، ففيه «لا إله غيره» بدل قوله : «لا إله إلا هو».

وكتب إلى النبي ﷺ : ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله!، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطًا بجائزة، وكساه أثوابًا من نسج هجر، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال: لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت، باد، وباد ما في يديه. فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات، فقال النبي ﷺ : أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى، يقتل بعدي، فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال: أنت وأصحابك، فكان كذلك(١).

٧ ـ الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق

كتب إليه النبي ﷺ : «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك»، واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة، ولما أبلغه الكتاب رمى به وقال: من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه، ولم يسلم(٢). واستأذن قيصر في حرب رسول الله ﷺ فثناه عن عزمه، فأجاز الحارث شجاع بن وهب بالكسوة والنفقة، ورده بالحسنى.

٨ ـ الكتاب إلى ملك عمان

وكتب النبي ﷺ كتابًا إلى ملك عمان جَيْفَر وأخيه عبد ابني الجلندي، ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد. فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول

---

(١) زاد المعاد ٣/٦٣.

(٢) نفس المصدر ٣/٦٣، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/١٤٦.

على الكافرين. فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما [أن تقرا بالإسلام] فإن ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما».

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه. قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين، وأسهلهما خلقًا - فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه. قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. وبعد حوار جرى بينهما سأله عبد عما يأمر به النبي ﷺ. فقال: يأمر بطاعة الله وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم. وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.

قال عبد: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه!، ولو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا - تابعًا -.

قال عمرو: إن أسلم أخوك مَلَّكَهُ رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم، فقال: إن هذا لخلق حسن، ثم سأله عن الصدقة فأخبره بتفاصيلها، فلما ذكر المواشي قال: ما أرى قومي يرضون بهذا.

ثم إن عبداً أوصل عمراً إلى أخيه جيفر فأعطاه الكتاب فقرأه، ثم أعطاه لأخيه، وسأل عمر عما فعلته قريش. فأخبره أنهم أسلموا، وأنه إن أسلم يسلم، وإلا وطئته الخيل وتبيد خضراءه، وأرجأ جيفر أمره إلى غد، فلما كان الغد أبدى القوة والصمود، ولكنه خلا بأخيه واستشاره، فلما كان بعد الغد أسلم هو وأخوه، وخليا بين عمرو وبين أخذه الصدقة، وكانا عونًا على من خالفه[1].

---

(١) لينظر التفصيل في زاد المعاد ٣/ ٦٢، ٦٣.

أرسل هذا الكتاب إلى عبد وجيفر بعد فتح مكة. وأما بقية الكتب فقد أرسلت بعد عودته ﷺ من الحديبية.

* * *

النشاط العسكري بعد صلح الحديبية

غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بني فزارة قامت بعمل القرصنة في لقاح رسول الله ﷺ.

وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية، وقبل خيبر، ذكر البخاري في ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث، وروى ذلك مسلم مسنداً من حديث سلمة بن الأكوع. وذكر الجمهور من أهل المغازي أنها كانت قبل الحديبية، وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازي(١).

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رباح، وأنا معه بفرس أبي طلحة، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على الظهر، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، فقلت: يا رباح خذ هذا الفرس فأبلغه أبا طلحة، وأخبر رسول الله ﷺ، ثم قمت على أكمة، واستقبلت المدينة، فناديت ثلاثا: يا صباحاه، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز، أقول:

[خذها] أنا ابن الأكوع ... واليوم يوم الرضع

فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إلي فارس جلست في أصل الشجرة، ثم رميته فتعفرت به، حتى إذا دخلوا في تضايق الجبل علوته، فجعلت

(١) انظر صحيح البخاري: باب غزوة ذات قرد ٢/٣٠٦، وصحيح مسلم: باب غزوة ذي قرد وغيرها ٢/١١٣-١١٥، وفتح الباري ٧/٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، وزاد المعاد ٢/١٢٠ ويدل على تأخر هذه الغزوة عن الحديبية حديث آخر رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري: كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها (ح٤٧٥ (١٣٧٤) ٢/١٠٠١).

أرديهم بالحجارة، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحًا يستخفون، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا من الحجارة، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه. حتى أتوا متضايقًا من ثنية، فجلسوا يتغدون، وجلست على رأس قرن، فصعد إليّ منهم أربعة في الجبل، قلت: هل تعرفونني؟ أنا سلمة بن الأكوع، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني، فرجعوا، فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر. فإذا أولهم أخرم، وعلى أثره أبو قتادة، وعلى أثره المقداد بن الأسود، فالتقى عبد الرحمن وأخرم، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله، وولى القوم مدبرين، فتبعتهم أعدو على رجلي، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له ذا قرد، ليشربوا منه، وهم عطاش، فأجليتهم عنه، فما ذاقوا قطرة منه، ولحقني رسول الله ﷺ والخيل عشاء، فقلت: يا رسول الله إن القوم عطاش، فلو بعثتني في مئة رجل استنقذت ما عندهم من السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال: يا ابن الأكوع ملكت فاسجح، ثم قال: إنهم ليقرون الآن في غطفان.

وقال رسول الله ﷺ: خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجّالتنا سلمة. وأعطاني سهمين، سهم الراجل وسهم الفارس، وأردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة.

استعمل رسول الله ﷺ على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو(١).

* * *

(١) انظر المصدرين السابقين، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠.

غزوة خيبر

وفي المحرم سنة سبع من الهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر، وجاء من تخلف عن الحديبية ليؤذن له فنادى في الناس أن لا يخرجوا معه إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة فلا يعطى لهم منها شيء. فلم يخرج معهم إلا أصحاب الشجرة، وكانوا ألفًا وأربع مئة، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري(١).

ثم سلك الادة المعروفة الموصلة إلى خيبر، حتى إذا كان في منتصف الطريق تقريبًا اختار طريقًا آخر يوصله إلى خيبر من جهة الشام ليحول بينهم وبين فرارهم إلى الشام.

وبات الليلة الأخيرة قريبًا من خيبر، ولم تشعر به اليهود، فلما أصبح صلى الفجر بغلس، ثم ركب هو والمسلمون متجهين إلى مساكن خيبر، أما اليهود فقد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم ليعملوا في أرضهم وهم لا يعلمون، فلما رأوا الجيش رجعوا هاربين يقولون: محمد، والله محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»(٢).

وخيبر على بعد ١٧١ كيلو مترًا شمالي المدينة وكانت سكانها منقسمة إلى ثلاثة أشطر: النطاة، والكتيبة، والشق، فالنطاة ثلاثة حصون: حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير. والشق حصنان: حصن أبي، وحصن النزار. والكتيبة ثلاثة حصون: حصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن

(١) انظر زاد المعاد ٢/١٣٣ فتح الباري ٧/٤٦٥.

(٢) انظر صحيح البخاري: باب غزوة خيبر ٢/٦٠٣، ٦٠٤.

السلالم، وكانت في خيبر حصون وقلاع أخرى صغيرة لم تكن تبلغ مبلغ هذه الحصون في القوة والمنعة.

فتح النطاة

عسكر رسول الله ﷺ شرقي حصون النطاة بعيداً عن مدى النبل، وبدأ القتال بفرض الحصار على حصن ناعم، وكان حصنًا منيعًا، رفيعًا صعب المرتقى، وكان خط الدفاع الأول لليهود، وفيه بطلهم مرحب الذي كان يعد بألف رجل، فوقعت المراماة بين الفريقين أيامًا. ثم بشرهم رسول الله ﷺ بالفتح، وقال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنى أن يعطاها، فلما أصبح قال: أين علي؟ قالوا: هو يشتكي عينيه، فأرسل إليه فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرئ، كأن لم يكن بها وجع، فأعطاه الراية، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم(١).

وكان اليهود قد نقلوا نساءهم وذراريهم إلى حصن الشق ليلاً، وقرروا البروز للقتال في ذلك الصباح، فلما ذهب إليهم علي - رضي الله عنه - وجدهم متجهزين للقتال، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورفضوا، ودعا مرحبًا إلى المبارزة، وهو يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب   شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عامر بن الأكوع، وهو يقول:

قد علمت خيبر أني عامر   شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، فذهب عامر ليتناول بسيفه ساق اليهودي، وكان سيفه قصيراً، فلم يصل إليه، بل رجع إلى عامر فأصاب

---

(١) انظر صحيح البخاري: باب غزوة خيبر ٢/٦٠٥، ٦٠٦.

ركبته فمات بسببه فيما بعد، فقال النبي ﷺ فيه: إن له لأجرين، إنه لجاهد مجاهد وقل عربي مشى بها - أي بالأرض - مثله.

أما مرحب فبرز له علي وهو يرتجز:

أنا الذي سمتني أمي حيدره　　　كليث غابات كريه المنظره

أوفيهمُ بالصاع كيل السندره

وضرب رأس مرحب فقتله(١)، ثم خرج أخوه ياسر يدعو إلى المبارزة، فبرز له الزبير بن العوام، وألحقه بأخيه، ثم دار القتال المرير، قتل فيه عدد من سراة اليهود، وانهارت معنوياتهم، فانكشفوا عن مواقفهم، وتبعهم المسلمون حتى دخلوا الحصن بالقوة، وانهزم اليهود إلى الحصن الذي يليه، وهو حصن الصعب، وقد غنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الطعام والتمر والسلاح.

ثم حاصر المسلمون حصن الصعب تحت قيادة الحباب بن المنذر، ودام الحصار ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث دعا رسول الله ﷺ بالفتح والغنيمة، ثم ندب المسلمين بالهجوم فهاجموا بشدة، ووقع البراز والقتال، ودارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة اليهود، وافتتح المسلمون الحصن قبل أن تغرب الشمس، فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام، وكان أكثر الحصون طعامًا وودكًا، وأعظمها غناء للمسلمين، وكان المسلمون قبل ذلك في مجاعة شديدة حتى ذبح ناس الحُمُر، فنهى رسول الله ﷺ عن لحومها، وأمر بالقدور فأكفئت، وهي منصوبة على النيران تطبخ فيها تلك اللحوم.

ولاذ اليهود بقلعة الزبير وتحصنوا فيها، وهي ثالث الحصون وآخرها في شطر النطاة، أما المسلمون ففرضوا عليهم الحصار، وفي اليوم الرابع دل يهودي على

(١) صحيح مسلم، باب: غزوة خيبر ٢/١٢٢، وباب غزوة ذي قرد وغيرها ٢/١١٥، وصحيح البخاري: باب غزوة خيبر ٢/٦٠٣.

جداول ماء كان يستقي منها اليهود؛ فقطعها المسلمون عنهم، فخرجوا وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزموا إلى شطر الشق وتحصنوا بحصن أُبي.

فتح الشق

وتبعهم المسلمون حتى حاصروهم، فخرجوا مستعدين لأشد القتال، وبرز أحد أبطالهم يطلب المبارزة فقتل. ثم برز آخر فقتل، قتله أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري، فلما قتله أسرع إلى اقتحام القلعة، واقتحم معه المسلمون، فجرى القتال داخل القلعة ساعة، ثم فر اليهود إلى الحصن الثاني: حصن النزار، وهو آخر الحصنين في هذا الشطر، وغنم المسلمون في حصن أبي أثاثًا كثيراً ومتاعًا وغنمًا وطعامًا.

ثم تقدموا وحاصروا حصن النزار، وكان على رأس جبل لا سبيل إليه، وقد تمنَّع أهله أشد التمنع، وكانوا على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحامه، ولذلك أقاموا فيه مع الذراري والنساء، وقاوموا أشد المقاومة، رميًا بالنبل والحجارة، فنصب المسلمون المنجنيق، فوقع في قلوبهم الرعب، وهربوا إلى شطر الكتيبة دون أن يعانوا شدة تذكر، ووجد المسلمون غنائم فيها أواني من نحاس وفخار فقال ﷺ اغسلوها واطبخوا فيها.

فتح الكثيبة:

وتقدم المسلمون إلى حصن القموص، أول حصون الكثيبة، فحاصروه أربعة عشر يومًا أو عشرين يومًا.

ثم يقال: إن اليهود طلبوا الأمان.

ويقال: إن المسلمين فتحوا الحصن عنوة، وفر اليهود إلى الحصنين الباقيين: الوطيح والسلالم، فلما سار إليهما المسلمون ليحاصروهما طلب اليهود الأمان على أن يخرجوا من خيبر وأراضيها بنسائهم وذراريهم، فعاهدهم على ذلك، وسمح لهم أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم[١]، إلا الصفراء والبيضاء - أي

(١) انظر لذلك سنن أبي داود: باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٢ /٧٦.

الذهب والفضة ـ والكراع والحلقة ـ أي الخيل والسلاح، وتبرأ منهم الذمة إن كتموا شيئًا، ثم سلموا الحصون الثلاثة أو الحصنين، فغنم المسلمون مئة درع، وأربع مئة سيف، وألف رمح، وخمس مئة قوس عربية، وصحفًا من التوارة أعطوها لمن طلبها.

وغدر بالعهد كنانة بن أبي الحقيق وأخوه فغيبا كثيراً من الذهب والفضة والجواهر، فبرئت منهما الذمة، وقتلا لغدرتهما، كانت صفية بنت حيي بن أخطب تحت كنانة، فجعلت في السبي.

قتلى الفريقين

وبلغ عدد القتلى من اليهود ثلاثة وتسعين قتيلاً، أما المسلمون فقيل: ١٥، وقيل: ١٦، وقيل: ١٨

قدوم مهاجري الحبشة وأبي هريرة وأبان بن سعيد

ولما رجع مهاجرو الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي، اتجه طائفة منهم إلى خيبر، وهم ستة عشر رجلاً فيهم جعفر بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين، فوافوا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، وقبل أن يقسمها، فقبل جعفراً وقال: «والله ما أدري بأيهما أفرح؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»(١)، ولما قسم خيبر أعطاهم من الغنيمة(٢)، وأما بقية مهاجري الحبشة فذهبوا مع نسائهم وذراريهم إلى المدينة رأسًا.

ووافاه أيضًا بخيبر بعد أن تم الفتح أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وكان قد جاء إلى المدينة بعد خروجه ﷺ إلى خيبر، فأسلم، ثم استأذن وخرج إلى خيبر، فأعطاه رسول الله ﷺ من غنيمة خيبر.

---

(١) زاد المعاد ٢/١٣٩، المعجم الصغير للطبراني ١/٩١.

(٢) صحيح البخاري ١/٤٤٣ وانظر أيضًا فتح الباري ٧/٤٨٤-٤٨٧.

ووافاه بعد الفتح أبان بن سعيد، وكان قد خرج بسرية إلى نجد، فلما قضى مهمته جاء إلى خيبر، ولم يعط له ولأصحابه من غنيمة خيبر(١).

قسمة خيبر

ولما حصل اليهود على الأمان جاءوا باقتراح جديد قبل أن يتم جلاؤهم. قالوا: يا محمد! دعنا في هذه الأرض، نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بها منكم، وتعطينا نصف ما يخرج منها من الثمر والزرع، فرضي بذلك على أن يجليهم منها متى شاء. فبقوا على ذلك حتى أجلاهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين سلكوا طريق الشر والخبث.

وقسم رسول الله ﷺ خيبر على ستة وثلاثين سهمًا، كل سهم مجموعه مئة سهم، فعزل منها النصف، وهو ثمانية عشر سهمًا لنوائب المسلمين، وقسم النصف الباقي، وهو أيضًا ثمانية عشر سهمًا، على الغزاة، فأعطى للراجل سهمًا، وللفارس ثلاثة أسهم، سهمًا له وسهمين لفرسه، وكان الفوارس مئتين فصارت لهم ستة أسهم، والرجّالة ألفًا ومئتين فصار لهم اثنا عشر سهمًا(٢).

وكانت خيبر غنية بالتمر والطعام، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر، ورد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم من النخيل بعدما رجعوا من خيبر إلى المدينة(٣).

شاة مسمومة

وبعدما عاد الهدوء، وذهب الخوف عاد اليهود إلى خبثهم، وتآمروا على قتل النبي ﷺ فأهدوا إلى رسول الله ﷺ شاة مسمومة بواسطة امرأة سلام بن مشكم:

---

(١) انظر صحيح البخاري: باب غزوة خيبر ٢/٦٠٨، ٦٠٩.

(٢) انظر زاد المعاد ٢/١٣٧، ١٣٨.

(٣) انظر صحيح البخاري ٢/٦٠٩، وصحيح مسلم ٢/٩٦، وزاد المعاد ٢/١٤٨.

أحد كبرائهم، وقد علمت أن رسول الله ﷺ يعجبه الذراع فأكثرت السم فيه، وتناول منه رسول الله ـ ﷺ ولاكها ثم لفظها وقال: إنها شاة مسمومة، وسأل المرأة واليهود فاعترفوا بجريمتهم، وقالوا: قلنا: إن كان ملكًا نستريح منه، وإن كان نبيًّا لا يضره، فعفا عنهم وعن المرأة، ثم إن بشر بن البراء بن معرور مات من أجل هذا السم فأمر بقتل المرأة قصاصًا(١).

استسلام أهل فدك

كان رسول الله ﷺ قد أرسل محيصة بن مسعود إلى يهود فدك بعد وصوله إلى خيبر؛ ليدعوهم إلى الإسلام، فأبطأوا عليه، فلما سمعوا بفتح خيبر داخلهم الرعب، وطلبوا أن يعامل بهم معاملة أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت أرض فدك خالصة لرسول الله ﷺ. ينفق منها على نفسه، ويعول صغير بني هاشم ويزوج أيمهم(٢).

وادي القرى

وسار رسول الله ﷺ بعد خيبر إلى وادي القرى، ودعا أهلها ـ وهم يهود ـ إلى الإسلام، فلم يسلموا ولم يستسلموا، وخرجوا للقتال، وبرز منهم رجل فقتله.

* * *

(١) انظر صحيح البخاري ١/٤٤٩، ٢/٦١٠، ٨٦٠، وفتح الباري ٧/٤٩٧، وابن هشام ٢/٣٣٧، ٣٣٨، وزاد المعاد ٢/١٣٩، ١٤٠.

(٢) ابن هشام ٢/٣٣٧، ٣٥٣.

غزوة ذات الرقاع

ولما رجع رسول الله ﷺ من خيبر، واطمأن بالمدينة سمع بتجمع البدو من بني أنمار أو بني ثعلبة وبني محارب من غطفان، فأسرع بالخروج إليهم في أربع مئة أو سبع مئة من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له نخل، على بعد يومين من المدينة، ولقي جمعًا من غطفان، فتقاربوا وأخاف بعضهم بعضًا، ولم يكن بينهم قتال، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف، وفي رواية البخاري: وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا؛ وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، وكان للنبي ﷺ أربع، وللقوم ركعتان(١).

وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع، لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا(٢).

وفيه عن جابر: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ فتفرق الناس في الأذى، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، فجاء رجل من المشركين، فاخترط سيف رسول الله ﷺ، فقال: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله. قال جابر: فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئنا،

---

(١) صحيح البخاري ١/٤٠٧، ٤٠٨، ٢/٥٩٣.

(٢) صحيح البخاري: باب غزوة ذات الرقاع ٢/٥٩٢، وصحيح مسلم: باب غزوة ذات الرقاع ٢/١١٨.

فإذا عنده أعرابي جالس. فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا. فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فها هو ذا جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ. وفي رواية أبي عوانة: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال الأعرابي: لا، ولكني أعاهدك على أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلى سبيله، فجاء إلى قومه، فقال جئتكم من عند خير الناس(١).

وفي رواية البخاري: قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم الرجل غورث ابن الحارث(٢) قال ابن حجر: ووقع عند الواقدي في سبب هذه القصة أن اسم الأعرابي دعثور، وأنه أسلم: لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان في غزوتين. والله أعلم(٣).

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلاً، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين ربيئة للمسلمين من العدو، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر، فضرب عبادًا، وهو قائم يصلي، بسهم فنزعه. ولم يبطل صلاته، حتى رشقه بثلاثة أسهم، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحان الله هلا نبهتني، قال: إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها(٤).

وقد استكانت الأعراب بعد هذه الغزوة حتى أسلموا واشتركوا في فتح مكة وغزوة حنين وغيرهما.

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٢٦٤، وانظر فتح الباري ٧/٤١٦.

(٢) صحيح البخاري ٢/٥٩٣.

(٣) فتح الباري ٧/٤٢٨.

(٤) زاد المعاد ٢/١١٢، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة ابن هشام ٢/٢٠٣ إلى ٢٠٩، زاد المعاد ٢/١١٠-١١٢، فتح الباري ٧/٤١٧ إلى ٤٢٨.

أمرهم بذلك ليري المشركين قوته[١] كما أمرهم بالاضطباع، أي أن يكشفوا المناكب اليمنى، ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى.

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون ـ وقد صف المشركون ينظرون إليه ـ فلم يزل يلبي حتى استلم الركن بمحجنه، ثم طاف، وطاف المسلمون، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحًا بالسيف:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله ... في صحف تتلى على رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله ... إني رأيت الحق في قبوله
بأن خير القتل في سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[٢]

وفي حديث أنس فقال عمر: يا ابن رواحة! بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي ﷺ: خلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل[٣].

ورمل رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط، فلما رآهم المشركون قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا[٤].

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعي. وقد وقف الهدي عند المروة، قال: هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر، فنحر عند المروة، وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون. ثم بعث ناسًا إلى يأجج، ليقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا.

---

(١) صحيح البخاري ١/٢١٨، ٢/٦١٠، ٦١١، صحيح مسلم ١/٤١٢.
(٢) اضطربت الأشعار وترتيبها في الروايات فجمعنا بين شتيتها.
(٣) رواه الترمذي، أبواب الاستئذان والأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر ٢/١٠٧.
(٤) صحيح مسلم ١/٤١٢.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثًا، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا عليًّا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ، ونزل بسرف فأقام بها.

ولما أراد الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة، تنادي، يا عم يا عم، فتناولها عليّ، واختصم فيها عليّ وجعفر وزيد، فقضى النبي ﷺ لجعفر؛ لأن خالتها كانت تحته.

وفي هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول في مكة بعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس، وكانت أختها أم الفضل تحته، فزوجها إياه، فلما خرج من مكة خلَّف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشي، فبنى بها بسرف(١).

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء، إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي وقعت في الحديبية، والوجه الثاني رجحه المحققون(٢). وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء: القضاء، والقضية، والقصاص، والصلح(٣).

وقد أرسل رسول الله ﷺ بعد الرجوع من هذه العمرة عدة سرايا أهمها سرية مؤته، فإليك ذكرها.

* * *

(١) زاد المعاد ٢/١٥٢.

(٢) انظر زاد المعاد ١/١٧٢، فتح الباري ٧/٥٠٠.

(٣) انظر نفس المصدر الأخير.

معركة مؤتة

[جمادى الأولى سنة ٨هـ]

سبق في ذكر كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء أن شرحبيل بن عمرو الغساني كان قد قتل الحارث بن عمير - رضي الله عنه -، حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى عظيم بصرى، وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ اشتد عليه، فجهز جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة(١)، وعقد لواءً أبيضَ حمله زيد بن حارثة.

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير فيدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا قاتلوهم، وقال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، فاقتلوا من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً، ولا شجرة، ولا تهدموا بناءً(٢).

وشيع الجيش إلى ثنية الوداع، ثم ودعه، فسار الجيش حتى نزل معان - بجنوب الأردن - فبلغهم أن هرقل نازل بمآب في مئة ألف من الروم. وانضم إليهم من متنصرة العرب مئة ألف. فتشاوروا ليلتين هل يكتبون ذلك إلى رسول الله ﷺ ويطلبون منه المدد، أو يقدمون على الحرب؟ فشجعهم ابن رواحة بأن الذي تكرهونه - وهي الشهادة - إنما خرجتم تطلبونه. ونحن ما نقاتل بعدد ولا قوة

---

(١) انظر صحيح البخاري: باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/٦١١، وفتح الباري ٧/٥١١، وزاد المعاد ٢/١٥٥.

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص٣٢٧، وأصل الحديث مروي في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجة وغيرها.

وكثرة، إنما نقاتل بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. وما هي إلا إحدى الحسنيين، إما الظهور وإما الشهادة، فقالوا: صدق والله ابن رواحة، فتقدموا ونزلوا بمؤتة، وتعبؤوا وتهيؤوا للقتال.

ودارت معركة عنيفة ورهيبة، وعجيبة في تاريخ البشر: ثلاثة آلاف مقاتل يواجهون جيشًا عرمرمًا ـ مئتي ألف ـ ويصمدون في وجهه. وهذا الكم الهائل من المدججين بالسلاح يهجم عليهم طول النهار، ويفقد كثيرًا من أبنائه وأبطاله، ولا ينجح في دحرهم.

أخذ راية المسلمين زيد بن حارثة فقاتل وقاتل، ثم قاتل وقاتل حتى شاط في رماح القوم، وخر شهيداً في سبيل ربه، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل وقاتل حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء وعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، فلم يزل رافعًا لها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه حتى أبقاها تخفق في جو السماء إلى أن قتل بعد أن أصابته بضع وتسعون من طعنه ورمية، كل ذلك فيما أقبل من جسده(١)، وجاءت نوبة عبد الله ابن رواحة فأخذ الراية وتقدم، واقتحم عن فرسه المعمعة ثم لم يزل يقاتل حتى قتل.

وحتى لا تسقط الراية أخذها ثابت بن أرقم وقال للمسلمين: اصطلحوا على رجل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد، وبذلك انتقلت الراية إلى سيف من سيوف الله، وتقدم خالد بن الوليد فقاتل قتالاً منقطع النظير حتى انقطعت في يده تسعة أسياف، وأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بالمدينة في نفس اليوم بمقتل القواد الثلاثة، وبانتقال القيادة إلى خالد بن الوليد، وسماه سيفًا من سيوف الله(٢).

---

(١) انظر لذلك صحيح البخاري ٢/٦١١ وفتح الباري ٧/٥١٢.

(٢) انظر صحيح البخاري ٢/٦١١.

وبانتهاء النهار رجع الفريقان إلي مقرهما، فلما أصبحوا غيَّر خالد ـ رضي الله عنه ـ ترتيب العسكر، فجعل الساقة مقدمة، والمقدمة ساقة، والميسرة ميمنة، والميمنة ميسرة، فظن العدو أن المدد قد وصل للمسلمين فداخله الرعب، وبعد مناوشة خفيفة بدأ خالد يتأخر بالمسلمين، فلم يجترئ العدو على التقدم، خوفًا من أن تكون خدعة، فانحاز المسلمون إلى مؤتة ومكثوا سبعة أيام يناوشون العدو، ثم تحاجز الفريقان وانقطع القتال، لأن الروم ظنوا أن الإمدادات تتوالى على المسلمين، وأنهم يكيدون بهم ليجروهم إلى الصحراء حيث لا يمكنهم التخلص، وبذلك كانت كفة المسلمين راجحة في هذه العزوة(١).

وقتل في هذه الغزوة اثنا عشر رجلاً من المسلمين، أما عدد قتلى العدو فلم يعرف، إلا أنهم قتلوا بكثرة.

سرية ذات السلاسل

ونظراً لموقف عرب الشام في معركة مؤتة رأى رسول الله ﷺ القيام بعمل حكيم يكفهم عن نصرة الرومان والقيام بجانبهم، فأرسل إليهم عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ في ثلاث مئة من الصحابة، ومعهم ثلاثون فرسًا ليستألفهم، لأن أم أبيه كانت من قبيلة بلى: إحدى قبائلهم، فإن أَبَوْا فليلقنهم درسًا على قيامهم بجانب الروم، فلما قرب منهم بلغه أن لهم جمعًا كبيرًا، فاستمد من رسول الله ﷺ فأمده بمئتين من سراة المهاجرين والأنصار، وعليهم أبو عبيدة بن الجراح، وكان عمرو بن العاص هو الأمير العام وإمام الصلاة، فدوخ بلاد قضاعة حتى لقي جمعًا، فلما هجم عليهم فروا وتفرقوا.

والسلاسل بقعة وماء وراء وادي القرى، إليها نسبت هذه السرية، لأن المسلمين نزلوا بها، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ٨هـ . أي بعد الشهر الذي وقعت فيه معركة مؤتة(٢).

(١) انظر فتح الباري ٧/٥١٣، ٥١٤، زاد المعاد ٢/١٥٦.

(٢) انظر ابن هشام ٢/٦٢٣-٦٢٦، وزاد المعاد ٢/١٥٧.

الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة

السبب والاستعداد والإخفاء

وفي رمضان سنة ٨من الهجرة فتح الله تعالى لرسوله ﷺ، مكة المكرمة وهو الفتح الأعظم، أعز الله به دينه ورسوله، وأنقذ به بيته، وبلده، واستبشر به أهل السماء، ودخل به الناس في دين الله أفواجًا.

وسببه أن بني بكر دخلوا مع قريش في عهد الحديبية، وكانت بينهم وبين خزاعة دماء وثارات في الجاهلية اختفت نارها بظهور الإسلام، فلما وقعت هدنة الحديبية اغتنمها بنو بكر، وأغاروا في شهر شعبان سنة ٨هـ على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له: الوتير، فقتلوا منهم ما يربو على عشرين، وطاردوهم إلى مكة حتى قاتلوهم فيها، وأعانتهم قريش سرًا برجال وسلاح.

وكانت خزاعة قد دخلت مع المسلمين في عهد الحديبية، وكان قد أسلم عدد منهم، فأبلغوا رسول الله ﷺ الخبر، فقال: والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه.

وأحست قريش بسوء فعلتها، وخافت نتائجها، فأسرعت بإرسال أبي سفيان إلى المدينة ليشهد العقد ويزيد في المدة، فلما جاء المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ، فطوته عنه، فقال: يا بنية! أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر.

ثم جاء رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد شيئًا، فذهب إلى أبي بكر ليكلم رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل. فأتى عمر فأبى، وشدد في الكلام، فأتى عليًا فاعتذر وأشار عليه أن يجير بين الناس ويرجع، ففعل.

أما رسول الله ﷺ فتجهز للغزو، وأمر أصحابه بذلك، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة وكتم الخبر، ودعا الله: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها».

وزيادة في الكتمان أرسل أبا قتادة ـ رضي الله عنه ـ في أوائل رمضان إلى بطن أضم على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة ليظن الظان أنه يريد هذه الناحية(١).

وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بمسير رسول الله ﷺ إليهم، وأعطاه امرأة على جعل، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء، فأرسل عليًّا والمقداد والزبير ومرثداً الغنوي، وقال: انطلقوا إلى روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، فأتوها وطلبوا منها الكتاب، فقالت: ما معي كتاب. فقالوا: لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فأخرجته من عقاصها، فأتوا به رسول الله ﷺ، قال: ما هذا يا حطب؟ فاعتذر أن له في مكة أهلاً وعشيرة وولداً، وليست له فيهم قرابة يحمونهم لأجلها، فأراد أن يتخذ عندهم يداً يحمون بها أهله، ولم يفعله ارتداداً عن الإسلام ولا رضىً بالكفر، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق. فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم(٢).

في الطريق إلى مكة

ولعشر من رمضان سنة ٨هـ غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهًا إلى مكة ومعه عشرة آلاف من المسلمين، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري.

ولما بلغ الجحفة لقيه عمه العباس مع أهله مسلمًا مهاجراً، وبالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية فأعرض عنهما، لأنه

---

(١) زاد المعاد ٢/١٥٠، وابن هشام ٢/٢٢٦-٢٢٨.

(٢) ينظر لذلك صحيح البخاري ١/٤٢٢، ٢/٦١٢ (ح٣٠٠٧، ٣٠٨١، ٣٩٨٣، ٤٢٨٤، ٤٨٩٠، ٦٢٥٩، ٦٩٣٩).

كان يلقى منهما شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك، وقال علي لأبي سفيان: ائته من قبل وجهه، وقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]. ففعل، فقال ﷺ: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. فأنشده أبو سفيان أبياتًا مدحه فيها واعتذر عما فعل به سابقًا(١).

ولما بلغ كديداً ورأى أن الصوم شق على الناس أفطر، وأمر الناس بالإفطار(٢)، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران عشاءً، فأمر الجيش فأوقد عشرة آلاف نار، كل على حدته، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وخرج أبو سفيان خائفًا يترقب، ولا يعلم شيئًا، ومعه حكيم بن حزام، وبديل ابن ورقاء، فلما رأى النيران قال: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا، قال بديل: هذه خزاعة، قال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ

وكان العباس ـ رضي الله عنه ـ على بغلة رسول الله ﷺ يتجول، فلما سمع الصوت عرفه فقال: أبا حنظلة؟ فقال: أبا الفضل؟ قال: نعم. قال: مالك؟ فداك أبي وأمي. قال: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباحَ قريش والله!.

قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي. قال: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ، فركب، فلما مر بعمر بن الخطاب رآه فقال: أبو سفيان؟ عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، واشتد إلى رسول الله ﷺ، وركض العباس البغلة فسبق إلى رسول الله ﷺ، ثم دخل

(١) زاد المعاد ٢/١٦٢، ١٦٣.

(٢) صحيح البخاري ٢/٦١٣.

عمر واستأذنه في ضرب عنق أبي سفيان، فقال العباس: إني آجرته، وأخذ برأس رسول الله ﷺ وقال: لا يناجيه الليلة أحد دوني. وأكثر عمر، ورسول الله ﷺ ساكت. ثم قال للعباس: اذهب به إلى بيتك. فإذا أصبحت فائتني به.

فلما جاء به في الصبح قال رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله».

قال أبو سفيان: ما أحلمك. وأكرمك وأوصلك، لو كان معه إله غيره لأغنى عني شيئًا بعد.

قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن أن تعلم أني رسول الله».

قال: أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيء.

فقال العباس: أسلم قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

فقال العباس: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا.
قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

دخول رسول الله ﷺ في مكة المكرمة

وفي الصباح تقدم رسول الله ﷺ إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس! من هذه؟ فيقول: بنو فلان. (مثلاً بنو سليم) فيقول: ما لي ولبني فلان: حتى مرت كتيبة الأنصار يحمل رايتها سعد بن عبادة، فقال: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال: يا عباس! حبذا يوم الذمار.

ثم مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحديد، فقال: سبحان الله ! يا عباس ! من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في

المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولاطاقة. لقد أصبح ابن أخيك عظيماً. قال العباس: يا أبا سفيان! إنها النبوة. قال: نعم إذن.

ثم أخبر رسول الله ﷺ بمقالة سعد، فقال ﷺ: «كذب سعد. هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة». وأخذ الراية من سعد، ودفعها لابنه قيس.

وبعد مروره ﷺ أسرع أبو سفيان حتى دخل مكة وصرخ بأعلى صوته يا معشر قريش! هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله. وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، فأسرع الناس إلى بيوتهم وإلى المسجد الحرام.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ذي طوى أمر خالد بن الوليد قائد الميسرة أن يدخل مكة من أسفلها من طريق كدي، وإن عرض له أحد يحصده حصداً حتى يوافيه على الصفا. وأمر الزبير قائد الميمنة وحامل راية رسول الله ﷺ أن يدخل مكة من أعلاها من كداء، ويغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه رسول الله ﷺ، وأمر أبا عبيدة قائد الرجالة ومن لا سلاح له أن يأخذ بطن الوادي حتى ينزل بمكة بين يدي رسول الله ﷺ.

ووبشت قريش أوباشًا بالخندمة، قالوا: إن كان لهم شيء كنا معهم، وإلا أعطينا الذي سئلنا. فلما مر بهم خالد حصد اثني عشر منهم في مناوشة خفيفة. وفر الباقون. ثم تقدم خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا، وقتل من رجاله اثنان ضلا الطريق وشذا عنه.

أما الزبير فنصب الراية بالحجون عند مسجد الفتح، وضرب قبة فيها أم سلمة وميمونة ـ رضي الله عنهما ـ، ولم يبرح حتى جاء رسول الله ﷺ، فاستراح قليلاً،

ثم سار، وبجانبه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يحادثه، وهو يقرأ سورة الفتح، حتى دخل المسجد الحرام، وحوله المهاجرون والأنصار، فاستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت وهو على الراحلة، ولم يكن محرمًا، وكان حول البيت ثلاث مئة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩]، والأصنام تتساقط على وجوهها.

تطهير الكعبة والصلاة فيها

فلما فرغ من الطواف دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، وأمر بفتحها، ثم أمر بما فيها من الأصنام فأخرجت وكسرت، وأمر بما فيها من الصور فمحيت، ثم دخلها هو وأسامة بن زيد وبلال، فأغلق الباب، واستقبل الجدار الذي يقابله، وهو على بعد ثلاث أذرع، وعن يساره عمود وعن يمينه عمودان، ومن ورائه ثلاثة أعمدة، فصلى ركعتين، ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله.

لا تثريب عليكم

ثم فتح الباب، وكانت قريش قد ملأت المسجد الحرام صفوفًا، فأخذ بعضادتي الباب فخطب خطبة بليغة بيّن فيها كثيراً من أحكام الإسلام، وأسقط أمور الجاهلية وأعلن عن ذهاب نخوتها، ثم قال:

«يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم». قالوا: خيرا. أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: «لاتثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم نزل وجلس في المسجد الحرام، ورد المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وقال: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم.

البيعة

ثم أتى الصفا فعلا عليه حيث ينظر إلى البيت فرفع يديه يدعو، ثم بايع الناس على الإسلام. ممن أسلم يومئذ أبو قحافة والد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ففرح رسول الله ﷺ بإسلامه، ثم بايع النساء بعد الرجال على: «أن لا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينه في معروف».

وممن بايع يومئذ من النساء هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، جاءت متنقبة متنكرة خوفًا على نفسها مما كانت قد فعلت بنعش حمزة، فلما تمت لها البيعة قالت: يا رسول الله! ما كان على وجه الأرض خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على وجه الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من أهل خبائك، فقال رسول الله: «وأيضًا والذي نفس محمد بيده»(١).

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد جلس أسفل من مجلس رسول الله ﷺ يبلغ الناس ويبايعهم عنه، وكانت بيعة النساء كلامًا بغير مصافحة.

وقد جاء بعض الناس ليبايعوا رسول الله ﷺ على الهجرة فقال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها، لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا».

أناس أهدرت دماؤهم

وكان رسول الله ﷺ قد أهدر يومئذ دماء أناس عظمت ذنوبهم، وكبرت جرائمهم، فأمر بقتلهم حتى ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب وقتل، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم، فأما الذين قتلوا فهم: ابن خطل، ومقيس بن صبابة، والحارث بن نفيل، وقينة لابن خطل، أربعة نفر، يقال: وأيضًا الحارث ابن طلاطل الخزاعي، وأم سعد، مع احتمال أن تكون أم سعد هي مولاة ابن خطل، فإذن خمسة أو ستة نفر.

(١) انظر لذلك صحيح البخاري ح٣٨٢٥، ٧١٦١ (فتح الباري ٧/ ١٧٥، ١٣/ ١٤٨).

وأما الذين أسلموا - وكانوا قد هربوا أو اختفوا، ثم استؤمن لهم فجاؤوا وأسلموا - فهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وقينة أخرى لابن خطل، أربعة نفر، قيل: وأيضاً كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان. سبعة نفر.

واختفى آخرون خوفًا على أنفسهم دون أن يكون قد أهدرت دماؤهم، منهم صفوان بن أمية، وزهير بن أبي أمية، وسهيل بن عمرو، ثم أسلم هؤلاء كلهم، ولله الحمد.

صلاة الفتح

ودخل رسول الله ﷺ ضحى في بيت أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنها -، فاغتسل وصلى ثمان ركعات صلاة الفتح، يسلم في كل ركعتين، وكانت أم هانئ قد أجارت حموين لها، وأراد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن يقتلهما، فسألت رسول الله - ﷺ، فقال: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ.

بلال يؤذن على ظهر الكعبة

وحان وقت صلاة الظهر فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن على ظهر الكعبة، وكان ذلك بمثابة إعلان عن ظهور الإسلام، وقد راع ذلك المسلمين بقدر ما أغاظ المشركين، والحمد لله رب العالمين.

إقامة رسول الله ﷺ بمكة:

ولما تم فتح مكة تخوف الأنصار أن يقيم بها رسول الله ﷺ لأنها بلده وبلد عشيرته وقومه - وذلك حين كان رسول الله ﷺ على الصفا، رافعًا يديه يدعو - فلما فرغ من الدعاء قال لهم: «معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم». فاطمأن الأنصار وذهب خوفهم وفرحوا.

نعم. بقي رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يجدد معالم الإسلام، ويطهرها من آثار الجاهلية، وقد جدد أنصاب الحرم، ونادى مناديه: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره.

هدم عزى وسواع ومناة

ولخمس وعشرين من رمضان بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارسًا إلى نخلة، ليهدم العزى وهيكلها، فتوجه إليها، وهدمها، وكانت أكبر أصنامهم.

ثم أرسل عمرو بن العاص في رمضان نفسه لهدم سواع، وهو أعظم صنم لهذيل، كان هيكله برهاط على قرابة ١٥٠ كيلو مترًا شمال شرقي مكة فذهب إليه وهدمه، وأسلم سادنه لما رأى من عجزه.

ثم بعث سعد بن زيد الأشهلي أيضًا في رمضان نفسه إلى مناة في عشرين فارسًا وكانت بالمشلل عند قديد، وهي صنم كلب وخزاعة وغسان والأوس والخزرج، فأتاها وكسرها، وهدم هيكلها.

بعث خالد إلى بني جذيمة

ثم بعث خالد بن الوليد في شهر شوال إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام، ومعه ثلاث مئة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فلما دعاهم إلى الإسلام قالوا: صبأنا، صبأنا، فقتلهم وأسرهم. ثم أمر يومًا أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه ذلك، ولما رجعوا ذكروا ذلك للنبي فرفع يديه وقال مرتين: اللهم أبرأ إليك مما صنع خالد، ثم بعث عليًّا ـ رضي الله عنه ـ بمال فودى قتلاهم، وأعطى بدل ما ضاع من أموالهم، وفضل فضل فتركه لهم.

وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر لأجل ما فعله خالد، فلما رجعوا وأخبروا رسول الله ﷺ، بذلك قال: «مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان أحد ذهبًا ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته»(١).

* * *

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢/٣٨٩-٤٣٧، وصحيح البخاري ج١ كتاب الجهاد وكتاب المناسك ٢/٦١٢-٦١٥، ٦٢٢، وفتح الباري ٨/٣-٢٧، وصحيح مسلم ١/٤٣٧-٤٣٩، ٢/١٠٢، ١٠٣، ١٣٠، وزاد المعاد ٢/١٦٠-١٦٨.

غزوة حنين

ولما تم فتح مكة اجتمعت أشراف قبائل قيس عيلان للشورى، وفي مقدمتها هوازن وثقيف، فقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه. ولا ناهية له عنا، فلنغزوه قبل أن يغزونا، فأجمعوا أمرهم للحرب، واختاروا لقيادتها مالك بن عوف النصري، فتحشد جمع كبير، ونزل بأوطاس، ومعهم نساؤهم وذراريهم وأموالهم، وكان فيهم دريد بن الصمة المشهور بأصالة الرأي، فلما سمع أصوات الصبيان والحيوان سأل مالكًا عن ذلك، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم. فقال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، وأشار أن يردهم إلى بلادهم، فلم يقبل مالك رأيه، وجمعهم في وادي أوطاس، وانتقل بالمقاتلين إلى وادي حنين، بجانب وادي أوطاس، ونصب فيه كمائن.

وعلم رسول الله ﷺ بتجمعهم فخرج من مكة يوم السبت السادس من شهر شوال، ومعه اثنا عشر ألف مقاتل، واستعار من صفوان بن أمية مئة درع بأداتها، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد.

وفي الطريق رأى المسلمون سدرة عظيمة كانت تعلق عليها العرب أسلحتهم ويذبحون ويعكفون عندها، يقال لها: ذات أنواط. فقال بعضهم لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون إنها السنن. لتركبن سنن من كان قبلكم»(١).

---

(١) روى ذلك أحمد في مسنده ٥/٢١٨، والترمذي: كتاب الفتن، باب لتركبن سنن من كان قبلكم (٤/٤١٢).

وقال بعضهم نظراً لكثرة الجيش: لن نغلب اليوم. فشق ذلك على رسول الله ﷺ ولما كان عشية جاء فارس وأخبره بخروج هوازن بظعنهم ونعمهم وشائهم، فتبسم وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله(١).

وفي الليلة العاشرة من شهر شوال سنة ٨هـ وصل رسول الله ﷺ إلى وادي حنين. فعبأ جيشه سَحَرًا قبل أن يدخل فيه، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، وأعطى ألوية القبائل الأخرى. ولبس درعين والبيضة والمغفر، ثم بدأت مقدمة الجيش تنحدر بالوادي، وهي لا تعلم بوجود كمائن العدو فيه، فبينما هي تنحط فيه إذ العدو يمطر عليهم النبال كأنها جراد منتشر، وشد عليها شدة رجل واحد، فاضطربت مقدمة الجيش بهذه المفاجأة، وانكشف عامة من كان فيها من المسلمين، وتبعهم من كان خلفهم، فصارت هزيمة عامة.

وسر ذلك بعض المشركين وبعض حديثي العهد بالإسلام، فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال أخ لصفوان: ألا بطل السحر اليوم. وقال له آخر: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبدا. فغضب عليهما صفوان - وهو مشرك - وعكرمة بن أبي جهل - وهو حديث العهد بالإسلام - وأقهراهما.

أما رسول الله ﷺ فثبت في قليل من المهاجرين والأنصار، وطفق يركض بغلته ليتقدم نحو العدو، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب　　　أنا ابن عبد المطلب

وأخذ أبو سفيان بن الحارث بلجام بغلته، والعباس بركابه لئلا يسرع نحو العدو، فنزل رسول الله ﷺ عن البغلة ودعا ربه واستنصره، وأمر العباس، وكان جهوري الصوت، أن ينادي أصحابه، فنادى - وملأ الوادي بصوته - ألا! أين

(١) انظر سنن أبي داود: كتاب الجهاد، فضل الحرس في سبيل الله ٢/ ١٠.

أصحاب السمرة؟ فعطفوا نحو الصوت عطفة البقر على أولادها، يقولون: لبيك، لبيك[1]، حتى إذا اجتمع منهم مئة استقبلوا العدو، واقتتلوا.

وصرفت الدعوة إلى الأنصار، ثم إلى بني الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين، واحدة تلو الأخرى، حتى اجتمع حوله ﷺ جمع عظيم، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم يروها، فكر المسلمون واحتدم القتال، فقال ﷺ: «الآن حمي الوطيس» وأخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه القوم، وقال: شاهت الوجوه، فملأ أعينهم تراباً، فلم يزل حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً، حتى تفرقوا وهربوا، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، حتى أخذوا النساء والذراري، وأسروا كثيراً من المحاربين، وجرح يومئذ خالد بن الوليد جراحات بالغة. وأسلم كثير من مشركي مكة لما رأوا من عناية الله برسوله.

مطاردة المشركين

ولما هرب المشركون تفرقوا ثلاث فرق. فرقة لحقت بالطائف، وهم الأكثر، وفرقة لحقت بنخلة. وفرقة عسكرت بأوطاس، فأرسل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أوطاس أبا عامر الأشعري، عم أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ في جماعة من المسلمين، فبددهم، وظفر بما كان معهم من الغنائم، وقد استشهد أبو عامر الأشعري في هذه المعركة، وخلفه أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ، فرجع مظفراً منصوراً.

وطاردت طائفة من فرسان المسلمين فلول المشركين المنهزمين إلى نخلة، فأدركت دريد بن الصمة، وقتلته.

أمر رسول الله ﷺ بجمع الغنائم والسبي، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وستة آلاف سبي، فجمع ذلك كله بالجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري.

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٠٠.

غزوة الطائف

ثم تقدم إلى الطائف، ومر في الطريق بحصن لمالك بن عوف النصري فأمر بهدمه، ولما وصل إلى الطائف وجد العدو قد تحصن به، ومعه قوت سنة، ففرض عليه الحصار، وكان المسلمون نازلين قريباً من العدو، فرشقهم بالنبال حتى أصيب عدد من المسلمين بجراحات، فارتفعوا إلى محل مسجد الطائف اليوم.

واختار المسلمون عدة تدابير لإرغام العدو على النزول، لكنها لم تنجح، كان خالد بن الوليد يخرج كل يوم يدعوهم إلى المبارزة، فلم يخرج منهم أحد، ونصب عليهم المنجنيق فلم يؤثر. ودخل جمع من أبطال المسلمين تحت دبابتين لينقبوا في جدار الحصن فرمى العدو عليهم قطعات من حديد محماة بالنار، فاضطروا إلى الرجوع، ولم يتمكنوا من نقب الجدار وقطعت أعنابهم ونخيلهم فناشدوا الله والرحم فتركت، ونادى منادي رسول الله ﷺ أيما عبد نزل إليها من الحصن فهو حر، فنزل ثلاثة وعشرون فيهم أبو بكرة، - تسور حصن الطائف، وتدلى منه ببكرة يستقى عليها، فكناه رسول الله ﷺ بأبي بكرة - فشق فرار هؤلاء العبيد عليهم.

وطال الحصار دون جدوى - فقد دام نحو عشرين يومًا. وقيل شهراً كاملاً - فاستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي، فقال: هم ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأمر بالرحيل. وطلب بعض المسلمين أن يدعو عليهم فقال: اللهم اهد ثقيفاً وَأْتِ بهم مسلمين.

تقسيم الغنائم والسبي

وعاد رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجعرانة. فمكث بها بضعة عشر يومًا لا يقسم الغنائم، يبتغي أن يقدم هوازن تائبين، فيحرزوا أموالهم وسباياهم، فما جاء أحد، فأخرج الخمس من الغنيمة، وأعطاها لأناس ضعفاء الإسلام، يتألفهم،

ولأناس لم يسلموا بعد، ليحبب إليهم الإسلام، فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية من الفضة ومئة من الإبل، وأعطى مثل ذلك لابنه يزيد، ثم لابنه الآخر معاوية، وأعطى صفوان بن أمية مئة ثم مئة ثم مئة - أي ثلاث مئة - من الإبل، وأعطى كلا من حكيم بن حزام، والحارث بن الحارث بن كلدة، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وعلقمة بن علاثة، ومالك بن عوف، والعلاء بن حارثة، والحارث بن هشام، وجبير بن مطعم، وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وغيرهم مئة مئة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين خمسين، وأربعين أربعين، حتى شاع بين الناس أن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، فازدحم الأعراب يطلبون منه، حتى ألجأوه إلى شجرة فتعلق بها رداؤه، فقال: ردوا عليَّ ردائي، فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم لا تجدونّي بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا.

ثم أخذ وبرة من سنام بعير وقال: والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة، فرد الناس ما كانوا أخذوه من الغنيمة، ولو كان شيئًا زهيداً.

ثم أمر زيد بن ثابت بتقسيم الغنيمة، والذي يصيب الرجل الواحد بعد إخراج الخمس هو نحو بعير ونصف بعير، وشاتين ونصف شاة وعشرة دراهم، وثلث السبى الواحد، فإذا صرف نصيب الرجل إلى أحد هذه الأشياء، بعد إعطائه عشرة دراهم، يصير له إما أربعة من الإبل فقط، وإما أربعون شاة فقط، وإما ثلثا السبي الواحد فقط.

شكوى الأنصار وخطبة رسول الله ﷺ:

واستغرب الأنصار ما فعله رسول الله ﷺ، حيث أعطى المؤلفة قلوبهم عطايا جزيلة لا تقاس، ولم يعط الأنصار شيئًا، فقال بعضهم: إن هذا لهو العجب، يعطي

قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فأبلغه ذلك سعد بن عبادة رئيس الأنصار، فأمره بجمعهم وحدهم، فلما اجتمعوا أتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

ثم قال: ألا تجيبونّي يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال: أما والله لو شئتم لقلتم، فصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ. وتفرقوا(١).

قدوم وفد هوازن

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلمًا، وهم أربعة عشر رجلاً، ورأسهم زهير بن صرد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فأسلموا وبايعوا ثم قالوا: يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات، والعمات والخالات، وهن مخازي الأقوام:

(١) ابن هشام ٢/٤٩٩، ٥٠٠، وروى مثل ذلك البخاري ٢/٦٢٠، ٦٢١.

فامنن علينا رسـول الله في كـرم   فإنك المـرء نرجـوه وننتظـر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها   إذ فوك تملؤه مـن محضهـا الدرر

وذلك في أبيات، فقال: إن معي من ترون، وإن أحب الحديث إليّ أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا. فقال: إذا صليت الغداة - أي صلاة الظهر - فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك. فقال رسول الله ﷺ: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال العباس بن مرداس: وهنتموني.

فقال رسول الله ﷺ: إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سبيهم، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئًا. فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا، فقال الناس: قد طيبنا لرسول الله ﷺ. فقال: إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض. فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه أبى أن يرد عجوزًا صارت في يديه منهم، ثم ردها بعد ذلك. وكسا رسول الله ﷺ قبطية(١).

---

(١) لينظر في قصة سبي هوازن البخاري مع الفتح ٥ / ٢٠١.

عمرة الجعرانة

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم أحرم للعمرة ـ وهي عمرة الجعرانة ـ فاعتمر، ثم قفل راجعا إلى المدينة، فبلغها لست أو ثلاث بقين من ذي القعدة(١).

تأديب بني تميم ودخولهم في الإسلام

وفي المحرم سنة ٩هـ نقلت الأخبار إلى المدينة بأن بني تميم يحرضون القبائل على منع الجزية، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ خمسين فارساً بقيادة عيينة بن حصن الفزاري، فهجم عليهم في الصحراء فأسر منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيًّا، وجاء بهم إلى المدينة، فجاء عشرة من رؤسائهم ورغبوا في المباهاة، فخطب خطيبهم عطارد بن حاجب فأجابه ثابت بن قيس، ثم أنشد شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأجابه حسان بن ثابت، فاعترفوا بفضل خطيب الإسلام وشاعره فأسلموا. فرد عليهم رسول الله ﷺ سباياهم وأحسن جائزتهم.

هدم فلس بني طيئ وإسلام عدي بن حاتم

وفي شهر ربيع الآخر سنة ٩هـ أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في مئة وخمسين رجلاً على مئة بعير وخمسين فرسًا ليهدم صنم بني طيئ المعروف بالفلس، وكان مع علي ـ رضي الله عنه ـ راية سوداء ولواء أبيض فشن الغارة على محلة حاتم الطائي المعروف بالجود والكرم، فأصاب نعمًا وشاة وسباء، وفيها سفانة بنت حاتم الطائي، فلما جاءوا بها إلى المدينة منَّ عليها رسول الله ﷺ فأطلقها بغير فدية، وأكرمها وأعطاها الراحلة، فذهبت إلى الشام، وكان أخوها عدي بن حاتم قد هرب إليها، فقالت له عن رسول الله ﷺ: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، ائته

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٨ وانظر لتفصيل هذه الغزوات ـ فتح مكة وحنين والطائف وما وقع خلالها ـ زاد المعاد ٢/ ١٦٠-٢٠١، وابن هشام ٢/ ٣٨٩-٥٠١، وصحيح البخاري: أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ٢/ ٦١٢-٦٢٢، وفتح الباري ٨/ ٣-٥٨.

راغبًا أو راهبًا، فجاء عدي بغير أمان ولا كتاب، فلما كلم رسول الله ﷺ أسلم مكانه.

وبينا هو عند رسول الله ﷺ جاء رجل يشكو إليه الفاقة، ثم جاء آخر يشكو قطع السبيل، فقال: يا عدي! هل رأيت الحيرة؟ فلئن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه، وقد رأى عدي خروج الظعينة، وحضر في فتح كنوز كسرى[1].

* * *

(١) روى ذلك البخاري في صحيحه ١/٥٠٧ ح١٤١٣، ١٤١٧، ٣٥٩٥، ٦٠٢٣، ٦٥٣٩، ٦٥٤٠، ٦٥٦٣، ٧٤٤٣، ٧٥١٢.

غزوة تبوك

إن الصراع القائم بين المسلمين والوثنيين كان قد انتهى بعد الفتح بصفة عامة، وكاد المسلمون يستريحون من تعب الحروب وعنائها، ولكن الذي استجد قبل الفتح بقليل هو اتجاه القوات المسيحية المتمركزة في الشام نحو المسلمين، والذي كان من نتائجها معركة مؤتة، وكانت هذه القوات متغطرسة جداً لأجل انتصاراتها المتواصلة ضد الفرس، ففتحت باب اللقاء الدامي بينها وبين المسلمين، كان من نتائجه غزوة تبوك في حياة النبي ﷺ، ثم فتوح الشام في زمن الخلفاء الراشدين.

سبب المعركة

كانت لمعركة مؤتة سمعة سيئة للرومان، وقواتهم، فقد كان لنجاح المسلمين ـ وهم ثلاثة آلاف فقط ـ في ردع مئتي ألف من قوات الرومان أثر بالغ في نفوس القبائل العربية المجاورة للشام، وأخذت هذه القبائل تتطلع إلى الاستقلال، فرأى الرومان أن يقوموا بغزوة حاسمة يقضون بها على المسلمين في عقر دارهم، المدينة المنورة.

تهيؤ المسلمين للقاء الرومان

وسمع رسول الله ﷺ بتجمعهم واستعدادهم، فاستنفر المسلمين من كل مكان، وأعلن عن جهة الغزوة صراحة ليأخذ الناس عدتهم الكاملة؛ إذ كان الزمان زمان حر شديد، وكانت الشقة بعيدة، وكان الناس في عسر وجدب، وقد طابت الثمار، والظلال، فكانوا يحبون المقام فيها.

وحث رسول الله ﷺ الموسرين على تجهيز المعسرين، فتقدم المسلمون بما لديهم، وأول من جاء بماله أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ جاء بكل ماله، وهو أربعة آلاف

درهم، فقال ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئًا؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بنصف ماله، وأنفق عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتابها، وأعطى خمسين فرسًا، ويقال: إنه أعطى تسع مئة بعير ومئة فرس، وقد قال فيه النبي ﷺ، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمئتي أوقية، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة وغيرهم بأموال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم، كل على قدره، حتى أنفق بعضهم مدًّا أو مدين، لم يستطع غيره، وأرسلت النساء ما قدرن عليه من الحلي.

وجاءه ﷺ فقراء الصحابة يطلبون أن يحملهم، فقال: ﴿لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] فجهزهم عثمان والعباس وغيرهما ـ رضي الله عنهم ـ.

وتكلم المنافقون، فلمزوا من أنفق الكثير، وسخروا ممن أنفق القليل، وسخروا من رسول الله ﷺ على جرأته على لقاء الرومان، فلما سئلوا قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، وجاء المعذرون من المنافقين والأعراب واستأذنوا النبي ﷺ في التخلف، محتالين بأعذار شتى فأذن لهم. وتخلف بعض المسلمين المخلصين تكاسلاً.

الجيش الإسلامي في تبوك

واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة، وخلف عليّ بن أبي طالب على أهله، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق، وفرق الرايات على رجال، فأعطى الزبير راية المهاجرين، وأعطى أسيد بن حضير راية الأوس، والحباب ابن المنذر راية الخزرج، وتحرك من المدينة يوم الخميس ومعه ثلاثون ألف مقاتل

يريد تبوك، وكانت قلة شديدة في الظهر والزاد، فكان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بعيراً واحداً، وأكل الناس أوراق الشجر حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير ليشربوا ما في فرشه من الماء.

وبينما الجيش في طريقه إلى تبوك إذ لحقه علي بن أبي طالب، سمع طعون المنافقين فلم يصبر حتى خرج، فرده رسول الله ﷺ وقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي.

وكان الناس قد نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود ـ الحجر ـ فاستقوا من بئرها واعتجنوا به، فأمرهم أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة.

ولما مر بتلك الديار ـ ديار ثمود ـ قال لهم أيضًا : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها؛ أن يصيبكم ما أصابهم، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاز الوادي(١).

وفي الطريق كان رسول الله ﷺ يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، جمع التقديم والتأخير.

ولما نزل تبوك لحقه أبو خيثمة، وكان مؤمنًا صادقًا تخلف بغير عذر، فلما دخل بستانه ـ وكان يومًا شديد الحر ـ وجد زوجتيه قد رشت كل واحدة منهما عريشتها، وهيأت طعامًا وماءً باردًا فقال: رسول الله ﷺ في الحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وماء مهيأ، وامرأة حسناء؟ ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ـ ﷺ، فَهَيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم ركب بعيره، وأخذ سيفه ورمحه، وخرج يسير حتى صادف رسول الله ﷺ حين نزل بتبوك.

(١) انظر لذلك صحيح البخاري: باب نزول النبي ﷺ الحجر ٢ / ٦٣٧.

عشرون يومًا في تبوك

وعلمت الروم بنزول رسول الله ﷺ في تبوك فخارت عزائمهم، ولم يجترئوا على اللقاء، فتفرقوا في داخل بلادهم، وبقي رسول الله ﷺ عشرين يومًا يرهب العدو ويستقبل الوفود، وقد جاءه يوحنا بن رؤبة حاكم أيلة، وصحبته أهل جرباء وأذرح، وأهل ميناء، فصالحوه على إعطاء الجزية، ولم يسلموا، وكتب رسول الله ﷺ ليوحنا كتابًا فيه الأمان له ولأهل أيلة، وفيه الذمة لسفنهم وسياراتهم في البحر والبر، وفيه حرية التنقل والنزول، وإن من أحدث حدثًا فلا يحول ماله دون نفسه.

وكتب لأهل جرباء وأذرح كتابًا أعطاهم فيه الأمان، وأن عليهم مئة دينار في كل رجب، وصالحه أهل ميناء على ربع ثمارها.

أسر أكيدر دومة الجندل

وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل، في أربع مئة وعشرين فارسًا، وقال له: إنك ستجده يصيد البقر، فسار خالد حتى إذا كان بمنظر العين في حصنه خرجت بقرة تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر ليصيدها، فتلقاه خالد في خيله، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفي بعير، وثمان مئة رأس، وأربع مئة درع، وأربع مئة رمح، وأقر بإعطاء الجزية على قضية أيلة وميناء.

العودة إلى المدينة

وبعد عشرين يومًا تحرك رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد استغرق الذهاب والعودة ثلاثين يومًا، فجملة ما غاب رسول الله ﷺ عن المدينة خمسون يومًا.

وفي الطريق مر الجيش بعقبة، فأخذ الناس بطن الوادي، وسلك رسول الله ﷺ طريق العقبة، ولم يكن معه إلا عمّارٌ، آخذًا بزمام الناقة، وحذيفة بن اليمان،

يسوقها، فتبعه اثنا عشر رجلاً من المنافقين يريدون اغتياله، واقتربوا منه جداً، وهم متلثمون، فبعث رسول الله ﷺ إليهم حذيفة، ليضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه، فضربها فأرعبهم الله، وأسرعوا بالفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ حذيفة بأسمائهم، وبما أرادوه، فسمي بصاحب سر رسول الله ﷺ.

هدم مسجد الضرار

وكان المنافقون قد بنوا بقباء مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقًا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي لهم فيه، وذلك عندما كان يستعد للخروج إلى تبوك، فقال: إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله، فلما كان في مرجعه من تبوك، ونزل بذي أوان، وليس بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم، نزل جبريل عليه السلام بخبر المسجد، فبعث رسول الله ﷺ من أحرقه وهدمه.

استقبال رسول الله ﷺ من قبل أهل المدينة

ولما لاحت للنبي ﷺ معالم المدينة قال: «هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه». وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان، والولائد يستقبلونه وينشدون:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

حتى دخل ﷺ المسجد فصلى فيه ركعتين وجلس للناس.

المخلفون

وجاء المتخلفون من المنافقين يعتذرون ويحلفون، فقبل علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وجاء ثلاثة من المؤمنين الصادقين، كانوا قد تخلفوا عنه، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فصدقوا، ولم يعتذروا، فأمرهم

أن ينتظروا حتى يقضي الله فيهم، وأمر المسلمين أن لا يكلموهم، فتغير لهم الناس، وتنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم أنفسهم، وأظلمت عليهم الدنيا، فلما تم على ذلك أربعون يومًا أمرهم أيضًا أن لا يقربوا نساءهم، حتى إذا تم خمسون يومًا أنزل الله توبتهم فقال: ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١١٨].

ففرح المسلمون، واستبشر المخلفون، فبشروا وأبشروا، وأجازوا وتصدقوا، وكان أسعد يوم في حياتهم.

ونزلت آيات فضحت المنافقين، وكشفت سرائر الكاذبين، وبشرت المؤمنين الصادقين، فالحمد لله رب العالمين(١).

كان رجوعه ﷺ من تبوك في شهر رجب سنة ٩هـ، وتوفي النجاشي أصحمة بن الأبحر ملك الحبشة في هذا الشهر فصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب في المدينة.

ثم توفيت ابنته أم كلثوم ـ رضي الله عنها ـ في شهر شعبان سنة ٩هـ فصلى عليها ودفنها بالبقيع، وحزن عليها حزنًا شديداً، وقال لعثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: «لو كانت عندي ثالثة لزوجتكها».

وفي ذي القعدة سنة ٩هـ توفي رأس المنافقين عبد الله بن أبي، فاستغفر له رسول الله ﷺ وصلى عليه، وقد حاول عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يمنعه عن الصلاة عليه فأبى، ثم نزل القرآن ينهى عن الصلاة على المنافقين.

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢/٥١٥-٥٣٧، وزاد المعاد ٣/٢-١٣، وصحيح البخاري ٢/٦٣٣-٦٣٧ و١/٢٥٢، ٤١٤ وغيرها، وصحيح مسلم مع شرحه للنووي ٢/٢٤٦، وفتح الباري ٨/١١٠-١٢٦.

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غـزوات النبي ﷺ وبعثـه وسراياه لا يمكن لنا ولا لأحـد ممن ينظر في أوضاع الحـروب وآثارها وخلفياتـها. . . لا يمكن لنا إلا أن نقـول : إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا، وأشدهـم وأعمقهـم فراسة وتيـقظا، إنه صاحب عبـقرية فذة في هذا الوصف، كمـا كان سيـد الرسل وأعظمـهـم في صفـة النبـوة والرسالة، فلم يخض معركـة من المعارك إلا في الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيـهما الحزم والشجاعة والتدبير. ولذلك لـم يفشل في أي معركة من المعارك التي خاضـها لغلطة في الحكمة وما إليـها من تعبئة الجيش وتعيينه على المراكز الاستراتيجية، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة، واختيار أفضل خطة لإدارة دفة القتال. بل أثبت في كل ذلك أن له نوعا آخر من القيادة غير ما عرفتـها، وتعرف الدنيا في القـواد. ولـم يقع ما وقع في أحد وحنين إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش ـ في حنين ـ أو من جـهـة معـصـيتهم أوامره، وتركـهـم التـقيـد والالتـزام بـالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية ـ في أحد ـ.

وقد تجلت عبـقريتـه ﷺ في هاتين الغـزوتين عند هزيمة المسلمين، فقـد ثبت مجابها للعدو، واستطاع بحكـمته الفـذة أن يخيبهم في أهدافهم ـ كما فعل في أحد ـ أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصاراً ـ كما في حنين ـ مع أن مثل هذا التطور الخطير، مثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم.

هذه من ناحيـة القـيادة العسكرية الخالصة. أما من نواح أخرى، فإنه استطاع بهـذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام، وإطفاء نار الفتنة، وكسر شوكة الأعداء

في صراع الإسلام والوثنية، وإلجائهم إلى المصالحة، وتخلية السبيل؛ لنشر الدعوة. كما استطاع أن يتعرف على الصحابة المخلصين وعلى من يبطن النفاق، ويضمر نوازع الغدر والخيانة.

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد، الذين لاقوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفة القتال، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون وزورع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين.

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات، أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشاغل للمسلمين، حتى تقصى من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار، وهيأ السلاح والكراع والعدة والنفقات. حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغي والعدوان على عباد الله.

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوتر، وكبت الضعيف وتخريب العمران وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض - في الجاهلية - إذ صارت هذه الحرب - في الإسلام - جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية وغايات محمودة، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان. فقد صارت الحرب جهاداً في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى نظام العدالة والنصف، من نظام يأكل فيه القوي الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوى ضعيفًا حتى يؤخذ منه، وصارت جهاداً في تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون

ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًّا، واجعل لنا من لدنك نصيراً، وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال. روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، فلا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً،... الحديث. وكان يأمر بالتيسير ويقول: يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا(١). وكان إذا جاء قومًا بليلٍ لم يغر عليهم حتى يصبح، ونهى أشد النهى عن التحريق في النار. ونهى عن قتل الصبي، وقتل النساء وضربهن، ونهى عن النهب حتى قال: إن النهبى ليست بأحل من الميتة. ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة. ولا يبقى سواه سبيل، وقال عند فتح مكة: لا تُجْهِزَنَّ على جريح ولا تتبعن مدبراً ولا تقتلن أسيراً، وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل، وشدد في النهي عن قتل المعاهدين حتى قال: من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً .. إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي طهرت الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهاداً مقدسًا(٢).

* * *

(١) صحيح مسلم ٢/٨٢، ٨٣، والمعجم الصغير للطبراني ١/١٢٣، ١٨٧.

(٢) انظر ذلك مفصلاً في زاد المعاد ٢/٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨.

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفي ذي القعدة أو ذي الحجة من نفس السنة (٩هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج، ليقيم بالمسلمين المناسك.

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض المواثيق ونبذها على سواء، فبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليؤدي عنه ذلك، وذلك تمشيًا منه على عادة العرب في عهود الدماء والأموال، فالتقى علي بأبي بكر بالعرج أو بضجنان، فقال أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال علي: لا، بل مأمور. ثم مضيا، وأقام أبو بكر للناس حجهم، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب عند الجمرة، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأجل لهم أربعة أَشْهُرٍ، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئًا، ولم يظاهروا عليهم أحداً فأبقى عهدهم إلى مدتهم.

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجالاً ينادون في الناس: ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب، وأنها لا تبدئ ولا تعيد بعد هذا العام[١].

* * *

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٢٠، ٤٥١، ٢/ ٦٢٦، ٦٧١)، زاد المعاد (٣/ ٢٥، ٢٦)، ابن هشام (٢/ ٥٤٣، ٥٤٦).

الناس يدخلون في دين الله أفواجا

الوفود

كان العرب ينتظرون نتيجة الصراع القائم بين قريش والنبي ﷺ، وكانوا يعتقدون أن الباطل لا يمكن أن يسيطر على المسجد الحرام بالقوة والفتح، ولم تكن قصة أصحاب الفيل عنهم ببعيدة، فلما أكرم الله رسول الله ﷺ بإدخاله في المسجد الحرام وبتسليطه على كفار مكة لم يبق عندهم أدنى شك في كونه رسولاً حقًّا، فبدأت القبائل العربية تتوافد إليه تترى. تؤمن برسالته وتقر بطاعته، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا. وخلال فترة قصيرة اتسعت رقعة الدولة الإسلامية من ساحل البحر إلى سواحل اليمن وعمان، وأخذ النبي ﷺ ينظم أمور هذه البلاد الشاسعة فيرسل الدعاة وينصب الولاة، ويبعث جباة الصدقات، ويوفر ما يحتاج إليه نظام العباد والبلاد من القضاة والعمال، وسنمر بشيء من كل ذلك حسب المقام قريباً إن شاء الله.

والوفود التي توافدت إلى رسول الله ﷺ يزيد عددها على سبعين وفداً، حسب ما ذكره عامة أهل السير، وقد حاول بعض أهل العلم استقصاء هذه الوفود ـ سواء ثبتت الرواية بها أو لم تثبت ـ فأبلغها قريبًا من مئة وفد.

وكانت الوفادة إليه ﷺ قد بدأت قبل الفتح،وقد توافد إليه البعض في أوائل سنوات الهجرة، بل قد جاءه بعض الوفود قبل الهجرة، إلا أن الوفادة العامة، وفي صورة متوالية مستمرة إنما وقعت بعد الفتح في السنة التاسعة، وقد امتدت إلى السنة العاشرة، بل وإلى ما بعدها أيضًا، ولذلك سميت السنة التاسعة بسنة الوفود.

ومعظم هذه الوفود كان أعضاؤها سادات القبائل، ورؤساءها، ورجالاً من أهل الحل والعقد منها، وربما توافد الرجل وحده أو توافد ومعه رهط صغير.

أما الغرض المطلوب من الوفادة فكان يختلف من وفد إلى وفد، فمنهم من جاء يريد رد السبايا والمأخوذين، كما تقدم في وفد هوازن، ووفد تميم، ومنهم من جاء يريد الأمان لنفسه فقط، أو لنفسه وقومه كليهما، ومنهم من جاء يفاخر ويباهي أو يناظر ويجادل، ومنهم من جاء يطلب رد الجيش الإسلامي كيلا يهجم على قومه، ومنهم من جاء يقر بالطاعة والجزية، ومنهم من جاء يبدي رغبته في الإسلام، ويبدي رجاء ذلك من قومه، ومنهم من جاء مسلماً طائعًا ممثلاً لقومه، يرغب في معرفة تعاليم الإسلام وأحكامه.

وكان رسول الله ﷺ يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق، يجيزهم بما يرضيهم، ويرغبهم في الإسلام، ويعلمهم الإيمان والشرائع؛ ليعلموا من وراءهم، وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لإظهار الدين بين الأعراب في البوادي، فقد كانت نتائج هذه الوفادات، مع تنوعها واختلاف أغراضها، إسلام المتوافدين، ثم إسلام قومهم عاجلاً أو بعد فترة قصيرة، ولم يشذ عن ذلك إلا البعض فقط، مثل بني حنيفة ومسيلمة الكذاب، وفيما يلي نذكر بعض الوفود المهمة.

١ ـ **وفد عبد القيس**: كانت لهذه القبيلة وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك. كان رجل منهم يقال له منقذ بن حيان، يرد المدينة بالتجارة، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ، وعلم الإسلام أسلم، وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وكان كبيرهم الأشج العصري الذي قال فيه رسول الله ﷺ: إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة.

والوفادة الثانية كانت في سنة الوفود، وكان عددهم فيها أربعين رجلاً، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدي، وكان نصرانيًا فأسلم وحسن إسلامه(١).

٢ ـ وفد دوس: كانت وفادة هذه القبيلة في أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخيبر، وقد قدمنا حديث إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة، ثم رجع إلى قومه، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام، ويبطئون عليه حتى يئس منهم، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فطلب منه أن يدعو على دوس، فقال: اللّهم اهد دوسًا. ثم أسلم هؤلاء، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتًا من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع ورسول الله ﷺ بخيبر فلحق به.

٣ ـ رسول فروة بن عمرو الجذامي: كان فروة قائداً عربيًّا من قواد الرومان، عاملاً لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام، أسلم بعد ما رأى من جلد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨هـ، ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الردة والموت، فاختار الموت على الردة، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء، وضربوا عنقه(٢).

٤ ـ وفد صداء: جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨هـ، وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثًا من أربع مئة من المسلمين، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صداء. وبينما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن الحارث الصدائي، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: جئتك وافداً على من ورائي، فاردد الجيش وأنا لك بقومي. فرد الجيش من صدر قناة، وجاء الصدائي إلى قومه فرغبهم في القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عليه خمسة عشر رجلاً منهم،

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١/ ٣٣)، فتح الباري (٨/ ٨٥، ٨٦).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٥).

وبايعوه على الإسلام، ثم رجعوا إلى قومهم، فدعوهم ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مئة رجل في حجة الوداع.

٥ ـ قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى: كان من بين الشعراء، ومن أشعر العرب، وكان يهجو النبي ﷺ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨هـ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بجير بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، ومن بقي من شعراء قريش هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فصر إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً، وإلا فانج إلى نجاتك. ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب، وأشفق على نفسه، فجاء المدينة، ونزل على رجل من جهينة، وصلى معه الصبح، فلما انصرف أشار عليه الجهني، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فرضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال: يا رسول إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال: نعم. قال :أنا كعب بن زهير، فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه، فقال: دعه عنك، فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه.

وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها، لم يفد مكبول

قال فيها ـ وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ، ويمدحه:

نُبِّئْتُ أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تَأْخُذَنِّي بأقوال الوُشَاة ولم ... أذنب، ولو كثرت فِيَّ الأقاويل

لقد أقوم مَقَامًا لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

لَظَلَّ يُرْعَدُ، إلا أن يكون له ... في كف ذي نقامت قيله القيل

حتى وضعت يميني ما أنازعه ... من الرسول بإذن الله تَنْوِيل

فَلهو أخْوَفُ عندي إذ أكلِّمه ... وقيل: إنك منسوب ومسئول

من ضَيْغَم بضراءِ الأرض مَخْدَرُهُ ... في بَطْن عَثَّر غِيلٌ دونَه غِيل

إن الرسول لنورٌ يُسْتَضاء به ... مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلول

ثم مدح المهاجرين من قريش؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل في كعب حين جاء إلا بخير، وعرض في أثناء مدحهم على الأنصار لاستئذان رجل منهم في ضرب عنقه، قال:

يمشون مَشْيَ الجمال الزُّهْرِ يعصمهم ... ضَرْبٌ إذا عَرَّد السُّودُ التَّنَابِيل

فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار في قصيدة له، وتدارك ما كان قد فرط منه في شأنهم، قال في تلك القصيدة:

من سره كَرَمُ الحياة فلا يَزَلْ ... في مِقْنَبٍ من صالحي الأنصار

ورثوا المكارم كابراً عن كابر ... إن الخيار هم بنو الأخيار

٦ ـ **وفد عذرة**: قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩هـ، وهم اثنا عشر رجلاً فيهم حمزة بن النعمان. قال متكلمهم حين سئلوا «من القوم»: نحن بنو عذرة، إخوة قصي لأمه، نحن الذين عضدوا قصيًّا، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر، لنا قرابات وأرحام، فرحب بهم النبي ﷺ، وبشرهم بفتح الشام، ونهاهم عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها. وأسلموا وأقاموا أيامًا ثم رجعوا.

٧ ـ **وفد بلي**: قدم في ربيع الأول سنة ٩هـ ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثًا، وقد سأل رئيسهم أو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة، وسأل عن وقت الضيافة، فقال:

ثلاثة أيام، وسأل عن ضالة الغنم، فقال: هي لك أو لأخيك أو للذئب، وسأل عن ضالة البعير. فقال: ما لك وله؟ دعه حتى يجده صاحبه.

٨ ـ وفد ثقيف: كانت وفادتهم في رمضان سنة ٩هـ، وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفي جاء إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من غزوة الطائف في ذي القعدة سنة ٨هـ قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم عروة، ورجع إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام ـ وهو يظن أنهم يطيعونه، لأنه كان سيداً مطاعاً في قومه، وكان أحب إليهم من أبكارهم ـ فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه، ثم أقاموا بعد قتله أشهراً، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ـ الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا ـ فأجمعوا أن يرسلوا رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فكلموا عبد يليل بن عمرو، وعرضوا عليه ذلك فأبى، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة. وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان أحدثهم سنًّا.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية المسجد، لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ، وهو يدعوهم إلى الإسلام، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف، يأذن لهم فيه بالزنا وشرب الخمور وأكل الربا، ويترك لهم طاغيتهم اللات، وأن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أصنامهم بأيدهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئًا من ذلك، فخلوا وتشاوروا فلم يجدوا محيصًا عن الاستسلام لرسول الله ﷺ، فاستسلموا وأسلموا، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات، وأن ثقيفًا لا يهدمونها بأيديهم أبدًا. فقبل ذلك، وكتب لهم كتابًا، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي، لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم الدين والقرآن. وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى

رسول الله ﷺ، ويخلفون عثمان بن أبي العاص في رحالهم، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبي العاص إلى رسول الله ﷺ فاستقرأه القرآن، وسأله عن الدين، وإذا وجده نائمًا عمد إلى أبي بكر لنفس الغرض (وكان من أعظم الناس بركة لقومه في زمن الردة، فإن ثقيفًا لما عزمت على الردة قال لهم: يا معشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلامًا، فلا تكونوا أول الناس ردة، فامتنعوا عن الردة، وثبتوا على الإسلام).

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة، وخوفهم بالحرب والقتال، وأظهر الحزن والكآبة، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم. فأخذت ثقيفًا نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد: ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل. وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر، وأظهروا ما صالحوا عليه، فأسلمت ثقيف.

وبعث رسول الله ﷺ رجالاً لهدم اللات، أمر عليهم خالد بن الوليد، فقام المغيرة بن شعبة، فأخذ الكرزين وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين، ثم سقط يركض، فارتج أهل الطائف، وقالوا أبعد الله المغيرة، قتلته الربة، فوثب المغيرة فقال: قبحكم الله، إنما هي لكاع، حجارة ومدر، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا أعلى سورها، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها. وأخرجوا حليها ولباسها، فبهتت ثقيف، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه(١).

٩ ـ رسالة ملوك اليمن: وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حمير، وهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، قيل ذي رعين وهمدان ومعافر، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرهاوي، بعثوه بإسلامهم

---

(١) زاد المعاد (٣/٢٦–٢٨)، ابن هشام (٢/٥٣٧ إلى ٥٤٢).

ومفارقتهم الشرك وأهله، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابًا بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطى فيه المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية، وبعث إليهم رجلاً من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل. وجعله على الكورة العلياء من جهة عدن بين السكون والسكاسك، وكان قاضيًا وحاكمًا في الحروب، وعاملاً على أخذ الصدقة والجزية، ويصلي بهم الصلوات الخمس، وبعث أبا موسى الأشعري رضي الله عنه على الكورة السفلي: زبيد ومأرب وزمع والساحل، وقال: يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا. وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله ﷺ أما أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقدم عليه ﷺ في حجة الوداع.

١٠ ـ وفد همدان: قدموا سنة ٩هـ، بعد مرجعه ﷺ من تبوك، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا أقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك بن النمط، واستعمله على من أسلم من قومه، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، ثم بعث علي بن أبي طالب، وأمره أن يقفل خالداً فجاء علي إلى همدان، وقرأ عليهم كتابًا من رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا، وكتب علي ببشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ الكتاب خر ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان».

١١ ـ وفد بني فزارة: قدم هذا الوفد ٩هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، قدم في بضعة عشر رجلاً جاءوا مقرين بالإسلام، وشكوا جدب بلادهم فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فرفع يديه واستسقى، وقال: اللهم اسق بلادك، وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللّهم اسقنا غيثًا مغيثًا، مريئًا مريعًا، طبقًا واسعًا، عاجلاً غير آجل، نافعًا غير ضار، اللهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللّهم اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء(١).

(١) زاد المعاد (٣/٤٨).

١٢ ـ وفد نجران: (نجران، بفتح النون وسكون الجيم: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسيرة يوم للراكب السريع(١)، وكان يؤلف مئة ألف مقاتل كانوا يدينون بالنصرانية).

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩هـ، وقوام الوفد ستون رجلاً منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران: أحدهم العاقب، كانت إليه الإمارة والحكومة، واسمه عبد المسيح. والثاني السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية، واسمه الأيهم أو شرحبيل. والثالث الأسقف، وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية، واسمه أبو حارثة بن علقمة.

ولما نزل الوفد بالمدينة، ولقي النبي ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول في عيسى عليه السلام فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾** [آل عمران: ٥٩ ـ ٦١].

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى بن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا في أمرهم، فأبوا أن يقروا بما قال في عيسى. فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاورا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًا فلاعننا لا نفلح

(١) فتح الباري (٨/ ٩٤).

نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم، فجاءوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألتنا. فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفي حلة: ألف في رجب، وألف في صفر، ومع كل حلة أوقية، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله. وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلاً أمينًا، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال الصلح.

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران، وأن النبي ﷺ بعث إليهم عليًّا؛ ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين(١).

١٣ ـ وفد بني حنيفة: كانت وفادتهم سنة ٩هـ، وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلمة الكذاب(٢) ـ وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة ـ نزل هذا الوفد في بيت رجل من الأنصار ثم جاءوا إلى النبي ﷺ فأسلموا، واختلفت الروايات في مسيلمة الكذاب، ويظهر بعد النظر في جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلي الإمارة، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ، وأن النبي ﷺ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً. فلما رأي أن ذلك لا يجدي فيه نفعًا تفرس فيه الشر.

وكان النبي ﷺ قد أرى قبل ذلك في المنام أنه أتي بخزائن الأرض، فوقع في يديه سواران من ذهب، فكبرا عليه وأهماه، فأوحي إليه أن انفخهما فنفخهما

(١) فتح الباري (٨/٩٤، ٩٥)، وزاد المعاد (٣/٣٨-٤١)، وقد اضطربت الروايات في بيان كيفية وفد نجران، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين. وقد ذكرنا ـ ملخصًا ـ ما ترجح عندنا في هذا الوفد.

(٢) فتح الباري (٨/٨٧).

فذهبا، فأولهما كَذَّابَيْن يخرجان من بعده، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف ـ وقد كان يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته ـ جاءه رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من جريد، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خلينا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، والله إني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني، ثم انصرف(١).

وأخيراً وقع ما تفرس فيه النبي ﷺ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقي يفكر في أمره حتى ادعى أنه أشرك في الأمر مع النبي ﷺ، فادعى النبوة، وجعل يسجع السجعات، وأحل لقومه الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي، وافتتن به قومه فتبعوه، وأصفقوا معه، حتى تفاقم أمره، فكان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم. وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه: إني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر، ولقريش نصف الأمر، فرد عايه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه: «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»(٢).

وعن ابن مسعود: جاء ابن النواحة، وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ، فقال لهما: أتشهدان أني رسول الله؟ فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. فقال النبي ﷺ: آمنت بالله ورسوله. لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما(٣).

كان ادعاء مسليمة النبوة سنة عشر، وقتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ربيع الأول سنة ١٢هـ .

(١) انظر صحيح البخاري، باب: وفد بني حنيفة، وباب: قصة الأسود العنسي (٢/٦٢٧، ٦٢٨)، وفتح الباري (٨/٨٧ إلى ٩٣).

(٢) زاد المعاد (٣/٣١، ٣٢).

(٣) رواه الإمام أحمد، مشكاة المصابيح (٢/٣٤٧).

قتله وحشي قاتل حمزة، وأما المتنبئ الثاني، وهو الأسود العنسي الذي كان باليمن، فقتله فيروز، واحتز رأسه قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة، فأتاه الوحي فأخبره به أصحابه، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر رضي الله عنه(١).

١٤ ـ وفد بني عامر بن صعصعة: كان فيهم عامر بن الطفيل عدو الله وأربد بن قيس ـ أخو لبيد لأمه ـ وخالد بن جعفر، وجبار بن أسلم، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم، وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر معونة، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تآمر عامر وأربد، واتفقا على الفتك بالنبي ﷺ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبي ﷺ، ودار أربد خلفه، واخترط سيفه شبراً، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله، وعصم الله نبيه، ودعا عليهما النبي ﷺ فلما رجعا أرسل الله على أربد وجمله صاعقة فأحرقته، وأما عامر فنزل على امرأة سلولية، فأصيب بغدة في عنقه فمات وهو يقول: أغدة كغدة البعير، وموتا في بيت السلولية؟.

وفي صحيح البخاري: أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين خصال ثلاث: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء، فطعن في بيت امرأة فقال: أغدة كغدة البعير، في بيت امرأة من بني فلان؟، ائتوني بفرسي فركب، فمات على فرسه.

١٥ ـ وفد تجيب: قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم، وكان الوفد ثلاثة عشر رجلاً، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها، ولم يطيلوا اللبث، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلاماً كانوا خلفوه في رحالهم، فجاء الغلام، وقال: والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غناي في قلبي، فدعا

(١) فتح الباري (٨/ ٩٣).

له بذلك. فكان أقنع الناس، وثبت في الردة على الإسلام، وذكر قومه ووعظهم فثبتوا عليه، والتقى أهل الوفد بالنبي ﷺ مرة أخرى في حجة الوداع سنة ١٠هـ .

١٦ ـ وفد طيئ: قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل، فلما كلموا النبي ﷺ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم. وقال رسول الله ﷺ عن زيد: ما ذكر لي رجل من العرب بفضل، ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه، وسماه زيد الخير.

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة في سنتي تسع وعشر، وقد ذكر أهل المغازي والسير منها وفود أهل اليمن، والأزد وبني سعد هذيم من قضاعة، وبني عامر بن قيس، وبني أسد، وبهراء، وخولان ومحارب، وبني الحارث بن كعب، وغامد، وبني المنتفق، وسلامان، وبني عبس، ومزينة، ومراد، وزبيد، وكندة، وذي مرة، وغسان، وبني عيش، ونخع ـ وهو آخر الوفود، توافد في منتصف محرم سنة ١١هـ في مئتي رجل ـ وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ٩و ١٠هـ وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١هـ[١].

* * *

(١) انظر في تفاصيل الوفود التي ذكرناها أو أشرنا إليها صحيح البخاري (١/١٣، ٢/٦٢٦-٦٣٠)، وابن هشام (٢٢/٥٠١-٥٠٣، ٥١٠-٥١٤، ٥٣٧-٥٤٢، ٥٦٠-٦٠١)، وزاد المعاد (٣/٢٦-٦٠)، وفتح الباري (٨/٨٣-١٠٣).

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله، ونفيها عن غيره، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ، وكأن هاتفًا خفيًّا انبعث في قلب رسول الله ﷺ، يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية، حتى إنه حين بعث معاذًا على اليمن سنة ١٠هـ قال له فيما قال: يا معاذ إنها عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى، فبكى معاذ جَزَعًا لفراق رسول الله ﷺ، وشاء الله أن يرى رسول الله ﷺ ثمار دعوته، التي عانى في سبيلها ألوانًا من المتاعب بضعة وعشرين عامًا، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة.

أعلن النبي ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة، فقدم المدينة بَشَرٌ كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ(١). وفي يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة تهيأ النبي ﷺ للرحيل(٢)، فترجل وأدهن ولبس إزاره ورداءه وقلد بُدْنه، وانطلق بعد الظهر، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلي العصر، فصلاها ركعتين، وبات هناك حتى أصبح. فلما أصبح قال لأصحابه: أتاني الليلة آت من ربي فقال: صل في هذا الوادى المبارك وقل: عمرة في حجة(٣).

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة وطيب فيه مسك، في بدنه ورأسه، حتى كان وبيص الطيب يُرى في مفارقه ولحيته، ثم

(١) روى ذلك مسلم عن جابر، باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٤.

(٢) انظر لتحقيق ذلك فتح الباري ٨/١٠٤.

(٣) رواه البخاري عن عمر ١/٢٠٧.

استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أَهَلَّ بالحج والعمرة في مصلاه، وقرن بينهما، ثم خرج، فركب القصواء، فأهل أيضًا، ثم أهل لما استقلت به على البيداء.

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة، فبات بذي طوى، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٠هـ ـ وقد قضى في الطريق ثمان ليال، وهي المسافة الوسطى ـ فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يحل، لأنه كان قارنًا قد ساق معه الهدى، فنزل بأعلى مكة عند الحجون، أقام هناك، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج.

وأمر من لم يكن معه هَدْي من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة، فيطوفوا بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم يحلوا إحلالاً تامًّا، فترددوا، فقال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت، فحل من لم يكن معه هدي، وسمعوا وأطاعوا.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة ـ وهو يوم التروية ـ توجه إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ـ خمس صلوات ـ ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، فأجاز حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي، وقد اجتمع حوله مئة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفًا من الناس، فقام فيهم خطيبًا، وألقى هذه الخطبة الجامعة.

«أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا(١).

---

(١) ابن هشام ٢/٦٠٣.

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا! كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ـ وكان مسترضعًا في بني سعد. فقتلته هذيل ـ وربا الجاهلية موضوع، وأول ربًا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي إن اعتصمتم به، كتاب الله(١).

أيها الناس، إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا أُولي أمركم، تدخلوا جنة ربكم(٢).

وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد» ثلاث مرات(٣).

وكان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ ـ وهو بعرفة ـ ربيعة بن أمية ابن خلف(٤).

(١) صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٧.

(٢) معدن الأعمال ح١١٠٨، ١٠٠٩ ورواه ابن جرير وابن عساكر.

(٣) مسلم ١/٣٩٧.

(٤) ابن هشام ٢/٦٠٥.

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. لما نزلت بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟»، قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، قال: «صدقت»(١).

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يُصَلِّ بينهما شيئًا، ثم ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص.

وأردف أسامة، ودفع حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله، وكبره، وهلله، ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جداً.

فدفع - من المزدلفة إلى منى - قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محسر، فحرك قليلاً. ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة - وهى الجمرة الكبرى نفسها، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان، وتسمى بجمرة العقبة وبالجمرة الأولى - فرماها بسبع حصيات، يكبِّر مع كل حصاة منها، مثل حصى الخذف، رمى من بطن الوادى، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثًا وستين بدنة بيده، ثم أعطى عليًّا فنحر ما غبر - وهى سبع وثلاثون بدنة، تمام المئة - وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر، فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها.

(١) رواه ابن أبي شيبة وابن جرير، انظر تفسير ابن كثير (٢/٥)، والدر المنثور (٢/٤٥٦).

ثم ركب رسول الله ﷺ، فأفاض إلى البيت، فصلى بمكة الظهر، فأتى على بني عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم، فناولوه دلواً فشرب منه(١).

وخطب النبي ﷺ يوم النحر ـ عاشر ذي الحجة ـ أيضًا حين ارتفع الضحى، وهو على بغلة شهباء، وعليّ يعبر عنه، والناس بين قائم وقاعد وأعاد(٢) في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس، فقد روى الشيخان عن أبي بكرة قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».

وقال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى؟ قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا».

«وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلاّلاً يضرب بعضكم رقاب بعض».

«ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد. فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع»(٣).

(١) رواه مسلم عن جابر، باب حجة النبي ﷺ ١/٣٩٧-٤٠٠.

(٢) روى ذلك أبو داود، باب أي وقت يخطب يوم النحر ١/٢٧٠.

(٣) صحيح البخاري، باب الخطبة أيام منى ١/٢٣٤ وغيرها.

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة: «ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به»(١).

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدي المناسك ويعلم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم، ويمحو آثار الشرك ومعالمها، وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضًا، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نبهان قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرءوس، فقال: «أليس هذا أوسط أيام التشريق»(٢)، وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر.

وفي يوم النفر الثاني - الثالث عشر من ذي الحجة - نفر النبي ﷺ من منى، فنزل بخيف بني كنانة من الأبطح، وأقام هناك بقية يومه ذلك، وليلته، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع، وأمر به الناس.

ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة، لا ليأخذ حظًا من الراحة، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفي سبيل الله(٣).

آخر البعوث

كان كبرياء دولة الروم قد جعلها تأبى حق الحياة على من آمن بالله ورسوله، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل في الإسلام، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان واليًا على معان من قبل الروم.

---

(١) رواه الترمذي ٢/٣٨، ١٣٥، وابن ماجه في الحج، مشكاة المصابيح ١/٢٣٤.

(٢) أبو داود: باب - أي يوم يخطب بمنى، ١/٢٦٩.

(٣) انظر لتفصيل حجة النبي ﷺ صحيح البخاري: كتاب المناسك ج١ و٢/٦٣١، وصحيح مسلم: باب حجة النبي ﷺ، وفتح الباري ج٣ من شرح كتاب المناسك وج٨/١٠٣ إلى ١١٠، وابن هشام ٢/٦٠١ إلى ٦٠٥، وزاد المعاد ١/١٩٦ س٢١٨ إلى ٢٤٠.

ونظراً إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشًا كبيراً في صفر سنة ١١هـ . وأمَّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، يبغي بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الحتوف فحسب. وتكلم الناس في قائد الجيش لحداثة سنة، واستبطأ في بعثه، فقال رسول الله ﷺ : «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان من أحب الناس إليّ، وإن هذا من أحب الناس إليّ بعده»(١).

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة، وينتظمون في جيشه، حتى خرجوا ونزلوا الجرف، على فرسخ من المدينة، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ ألزمتهم التريث، حتى يعرفوا ما يقضي الله به، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبى بكر الصديق(٢).

* * *

(١) صحيح البخاري: باب بعث النبي ﷺ أسامة ٢/٦١٢.

(٢) المصدر السابق وابن هشام ٢/٦٠٦، ٦٥٠.

إلى الرفيق الأعلى

طلائع التوديع

ولما تكاملت الدعوة وسيطر الإسلام على الموقف، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره ﷺ، وتتضح بعباراته وأفعاله.

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يومًا، في حين كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب، ودارسه جبريل القرآن مرتين، وقال في حجة الوداع: إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، وقال: وهو عند جمرة العقبة: خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا»، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، وأنه نعيت إليه نفسه.

وفي أوائل صفر سنة ١١هـ خرج النبي ﷺ إلى أحد، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»(١).

وخرج ليلة - في منتصفها - إلى البقيع، فاستغفر لهم وقال: «السلام عليكم يا أهل المقابر. ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، والآخرة شر من الأولى» - وبشرهم قائلاً: «إنا بكم للاحقون».

(١) متفق عليه، صحيح البخاري ٢/٥٨٥ مع فتح الباري ٣/٢٤٨ ح١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٤٢، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠.

بداية المرض

وفي اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ - وكان يوم الاثنين - شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع. فلما رجع، وهو في الطريق أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجدون سورتها فوق العصابة التي يعصب بها رأسه.

وقد صلى النبي ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يومًا، وجميع أيام المرض كانت ١٣، أو ١٤ يومًا.

الأسبوع الأخير

وثقل برسول الله ﷺ المرض، فجعل يسأل أزواجه: «أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟» ففهمن مراده، فأذنّ له يكون حيث شاء، فانتقل إلى بيت عائشة، يمشي بين الفضل ابن عباس وعلي بن أبي طالب، عاصبًا رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيتها، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته.

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ، فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

قبل الوفاة بخمسة أيام

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة، اتقدت حرارة العلة في بدنه، فاشتد به الوجع وغمي، فقال: هريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم، فأقعدوه في مخضب، وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول: «حسبكم، حسبكم».

وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد متعطفًا ملحفة على منكبيه قد عصب رأسه بعصابة دسمة حتى جلس على المنبر، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إليّ، فثابوا إليه، فقال - فيما قال -:

«لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبورا أنبيائهم مساجد» ـ وفي رواية: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١). وقال: «لا تتخذوا قبري وثنًا يعبد»(٢).

وعرض نفسه للقصاص قائلاً: «من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه».

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها. فقال رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: أعطه يا فضل، ثم أوصى بالأنصار قائلاً:

«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزا عن مسيئهم». وفي رواية أنه قال: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم»(٣).

ثم قال: «إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده» قال أبو سعيد الخدري: فبكى أبو بكر. قال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا! فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا(٤).

ثم قال رسول الله ﷺ: «إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً. ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر»(٥).

(١) صحيح البخاري ١/ ٦٢، موطا الإمام مالك ص٣٦٠.
(٢) موطا الإمام مالك ص٦٥.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٥٣٦.
(٤) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٢/ ٥٤٦.
(٥) صحيح البخاري ١/ ٥١٦.

قبل أربعة أيام

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال ـ وقد اشتد به الوجع ـ : هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده ـ وفي البيت رجال فيهم عمر ـ فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبكم كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: قوموا عني(١).

وأوصى ذلك اليوم بثلاث: أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، أما الثالث فنسيه الراوي. ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو إنفاذ جيش أسامة، أو هي «الصلاة وما ملكت أيمانكم».

والنبي ﷺ ـ مع ما كان به من شدة المرض ـ كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم ـ يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام ـ وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات عرفًا(٢).

وعند العشاء زاد ثقل المرض، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد، قالت عائشة: فقال النبي ﷺ: أصلى الناس؟ قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك. قال: ضعوا لي ماءً في المخضب، ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه. ثم أفاق، فقال: أصلى الناس؟ ـ ووقع ثانيًا وثالثًا ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء ـ فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام(٣) ١٧ صلاة في حياته ﷺ، وهي صلاة العشاء من يوم الخميس وصلاة الفجر من يوم الاثنين، وخمس عشرة صلاة فيما بينها(٤).

(١) صحيح البخاري ١/٢٢، ٤٢٩، ٤٤٩، ٢/٦٣٨.

(٢) رواه البخاري عن أم الفضل: باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٣٧.

(٣) متفق عليه، مشكاة المصابيح ١/١٠٢.

(٤) البخاري مع الفتح ٢/١٩٣ ح٦٨١ مسلم: كتاب الصلاة ١/٣١٥ ح١٠٠، ومسند أحمد ٦/٢٢٩.

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث مرات أو أربعًا؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر حتى لا يتشاءم به الناس(١)، فأبى، وقال: إنكن لأنتن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليصل بالناس(٢).

قبل ثلاثة أيام

قال جابر: سمعت النبي ﷺ قبل موته بثلاث وهو يقول: ألا لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله(٣).

قبل يوم أو يومين

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بأن لا يتأخر، قال: أجلساني إلى جنبه، فأجلساه إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ، ويسمع الناس التكبير(٤).

قبل يوم

وقبل يوم من الوفاة ـ يوم الأحد ـ أعتق النبي ﷺ غلمانه، وتصدق بستة أو سبعة دنانير كانت عنده(٥)، ووهب للمسلمين أسلحته، وفي الليل أرسلت عائشة بمصباحها إلى امرأة من النساء وقالت: أقطري لنا في مصباحنا من عكتك السمن(٦)، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير(٧).

(١) ينظر له البخاري مع الفتح ٧/٧٤٧ ح٤٤٤٥ ومسلم: كتاب الصلاة ١/٣١٣ ح٩٣، ٩٤.

(٢) صحيح البخاري ١/٩٩.

(٣) طبقات ابن سعد ٢/٢٥٥، مسند أبي داود الطيالسي ص٢٤٦ ح١٧٧٩، ومسند أبي يعلي ٤/١٩٣ ح٢٢٩٠.

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢/١٩٥، ٢٣٨، ٢٣٩ ح٦٨٣، ٧١٢، ٧١٣.

(٥) طبقات ابن سعد ٢/٢٣٧، وتفيد بعض الروايات أنه تصدق بها ليلة الاثنين أو يوم الاثنين، أي في آخر يوم من حياته.

(٦) طبقات ابن سعد ٢/٢٣٩.

(٧) انظر صحيح البخاري ٢٠٦٨، ٢٠٩٦، ٢٢٠٠، ٢٢٥١، ٢٢٥٢، ٢٣٨٦، ٢٥٠٩، ٢٥١٣، ٢٩١٦، ٤١٦٧، وفي أواخر المغازي: توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة، وعند أحمد فما وجد ما يفتكها به (فتح الباري ٥/١٦٩).

آخر يوم من الحياة

روى أنس بن مالك: أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين - وأبو بكر يصلي بهم لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة. فقال أنس: وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم، فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر(١).

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى.

ولما ارتفع الضحى، دعا النبي ﷺ فاطمة فسارها بشيء فبكت. ثم دعاها، فسارها بشيء فضحكت، قالت عائشة: فسألنا عن ذلك - أى فيما بعد - فقالت: سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت(٢).

وبشر النبي ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين(٣).

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه. فقالت: واكرب أبتاه! فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم(٤).

ودعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيراً. ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن.

---

(١) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ٢/١١٩٣ ح٦٨٠، ٨٦١، ٧٥٤، ١٢٠٥، ٤٤٤٨.

(٢) صحيح البخاري ٢/٦٣٨.

(٣) ويدل بعض الروايات على أن هذا الحوار والبشارة لم يكن في آخر يوم من حياته، بل في آخر أسبوع. رحمة للعالمين ١/٢٨٢.

(٤) صحيح البخاري ٢/٦٤١.

وطفق الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخيبر حتى كان يقول: يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم(١).

وقد طرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: (وكان هذا من آخر ما تكلم وأوصى به الناس) «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ـ يحذر ما صنعوا ـ (لا يبقين دينان بأرض العرب»(٢).

وأوصى الناس فقال: «الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم». كرر ذلك مراراً(٣).

الاحتضار

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري. وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته. دخل عبد الرحمن ـ ابن أبي بكر ـ وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فتناولته فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فلينته، فأمره ـ وفي رواية أنه استن به كأحسن ما كان مستناً ـ وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح به وجهه، يقول: لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات ـ الحديث ـ(٤).

(١) نفس المصدر ٢/٦٣٧.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ١/٦٣٤ ح٤٣٥، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٣٤٥٤، ٤٤٤١، ٤٤٤٣، ٤٤٤٤، ٥٨١٥، ٥٨١٦، وطبقات ابن سعد ٢/٢٥٤.

(٣) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤٠.

(٤) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤٠.

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه فأصغت إليه عائشة وهو يقول: مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم، الرفيق الأعلى(١).

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ. وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

تفاقم الأحزان على الصحابة

وتسرب النبأ الفادح، وأظلمت على أهل المدينة أرجاؤها وآفاقها. قال أنس: ما رأيت يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ، وما رأيت يومًا كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ(٢).

ولما مات قالت فاطمة: يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه، جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه(٣).

موقف عمر

ووقف عمر بن الخطاب يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات. لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن

---

(١) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ وباب آخر ما تكلم النبي ﷺ ٢/٣٦٨-٦٤١.

(٢) رواه الدارمي، مشكاة المصابيح ٢/٥٤٧، وعن أنس قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي، وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا (جامع الترمذي ٥/٥٨٨، ٥٨٩).

(٣) صحيح البخاري، باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤١.

عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات[١].

موقف أبي بكر

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

ثم خرج أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتشهد أبو بكر، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. قال الله: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٤٤] قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيب: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات[٢].

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ. فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأخيراً

---

(١) ابن هشام ٢/٦٥٥.

(٢) صحيح البخاري ٢/٦٤٠، ٦٤١.

اتفقوا على خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومضى في ذلك بقية يوم الاثنين حتى دخل الليل، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ حتى كان آخر الليل - ليلة الثلاثاء - مع الصبح، وبقي جسده المبارك على فراشه مغشى بثوب حبرة، قد أغلق دونه الباب أهله.

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل العباس وعليًّا، والفضل وقُثَمَ ابني العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأوس بن خولى. فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس أسنده إلى صدره(١). وقد غسل ثلاث غسلات بماء وسدر، وغسل من بئر يقال لها الغرس لسعد بن خيثمة بقباء، وكان يشرب منها(٢).

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب يمانية بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة(٣). أدرجوه فيها إدراجًا.

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض، فرفع أبو طلحة فراشه الذي توفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحداً.

ودخل الناس الحجرة أرسالاً عشرة فعشرة، يصلون على رسول الله ﷺ أفذاذًا لا يؤمهم أحد، وصلى عليه أولاً أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الصبيان، ثم النساء، أو النساء ثم الصبيان(٤).

---

(١) لينظر ابن ماجه ١/٥٢١.

(٢) لينظر في طبقات ابن سعد ٢/٢٧٧-٢٨١.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب الثياب البيض للكفن (فتح الباري ٣/١٦٢، ١٦٧، ١٦٨ ح١٢٦٤، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٣٨٧، وصحيح مسلم، الجنائز: باب كفن الميت ح٤٥.

(٤) لينظر موطأ الإمام مالك: كتاب الجنائز، باب: ما جاء في دفن الميت ١/٢٣١، وطبقات ابن سعد ٢/٢٨٨-٢٩٢.

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً، ومعظم ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي(١) من جوف الليل (وفي رواية: من آخر الليل) ليلة الأربعاء(٢).

* * *

(١) جمع مسحاة: ما يجرف به الطين.

(٢) مسند أحمد ٦/٦٢، ٢٧٤، وانظر لتفصيل لحوقه بالرفيق الأعلى: صحيح البخاري، باب مرض النبي ﷺ وعدة أبواب بعده مع فتح الباري، وصحيح مسلم، ومشكاة المصابيح: باب وفاة النبي ﷺ، وابن هشام ٢/٦٤٩ إلى ٦٦٥، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص٣٨، ٣٩، ورحمة للعالمين ١/٢٧٧ إلى ٢٨٦ وتعيين عامة الأوقات من المرجع الأخير.

البيت النبوي

(١) كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام، ومن زوجته خديجة بنت خويلد، تزوجها وهو في خمس وعشرين من سنه، وهي في الأربعين، وهي أول من تزوجها من النساء، ولم يتزوج عليها غيرها، وكان له منها أبناء وبنات، أما الأبناء، فلم يعش منهم أحد. وأما البنات فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى. وأما فاطمة فتزوجها عليّ بن أبي طالب بين بدر وأحد، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم.

ومعلوم أن النبي ﷺ كان يمتاز على أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات؛ لأغراض كثيرة، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة، منهن تسع مات عنهن، واثنتان توفيتا في حياته، إحداهما خديجة، والأخرى أم المساكين زينب بنت خزيمة، واثنتان لم يدخل بهما. وها هي أسماؤهن، وشيء عنهن.

(٢) سودة بنت زمعة، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بنحو شهر، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو، فمات عنها. توفيت بالمدينة في شوال سنة ٥٤هـ.

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق، تزوجها في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة، بعد زواجه بسودة بسنة، وقبل الهجرة بسنتين وخمسة أشهر، تزوجها وهي بنت ست سنين، وبنى بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة، وهي بنت تسع سنين، وكانت بكراً، ولم يتزوج بكراً غيرها، وكانت أحب الخلق إليه،

وأفقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق، فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، توفيت في ١٧ من رمضان سنة ٥٧ هـ أو ٥٨هـ ودفنت بالبقيع.

(٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب: تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة السهمي بين بدر وأحد فلما حلت تزوجها رسول الله ﷺ في شعبان سنة ٣هـ. توفيت في شعبان سنة ٤٥هـ بالمدينة، ولها ستون سنة، ودفنت بالبقيع.

(٥) زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى أم المساكين، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، كانت تحت عبد الله بن جحش، فاستشهد في أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤هـ. ماتت بعد الزواج بنحو ثلاثة أشهر في آخر ربيع الآخر سنة ٤هـ، فصلى عليها النبي ﷺ، ودفنت بالبقيع.

(٦) أم سلمة هند بنت أبي أمية: كانت تحت أبي سلمة، وله منها أولاد، فمات عنها في جمادى الآخرة سنة ٤هـ فتزوجها رسول الله ﷺ في ليال بقين من شوال من نفس السنة، وكانت من أفقه النساء وأعقلهن، توفيت سنة ٥٩هـ، وقيل: ٦٢هـ ودفنت بالبقيع، ولها ٨٤ سنة.

(٧) زينب بنت جحش بن رياب من بني أسد بن خزيمة، وهي بنت عمة رسول الله ﷺ، وكانت تحت زيد بن حارثة ـ الذي كان يعتبر ابنًا للنبي ﷺ ـ فطلقها زيد. فلما انقضت العدة أنزل الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبني ـ وسنأتي على ذكرها ـ تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة. وقيل سنة ٤هـ. وكانت أعبد النساء وأعظمهن صدقة، توفيت سنة ٢٠هـ ولها ٥٣ سنة، وكانت أول أمهات المؤمنين وفاة بعد رسول الله ﷺ، صلى عليها عمر بن الخطاب، ودفنت بالبقيع.

(٨) جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة، كانت في سبي بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها. فقضى رسول الله ﷺ

كتابتها، وتزوجها في شعبان سنة ٦هـ . وقيل: سنة ٥هـ فأعتق المسلمون مئة أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ فكانت أعظم النساء بركة على قومها. توفيت في ربيع الأول سنة ٥٦ وقيل ٥٥هـ ولها ٦٥ سنة.

(٩) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، كانت تحت عبيد الله بن جحش، فولدت له حبيبة فكنيت بها. وهاجرت معه إلى الحبشة، فارتد عبيد الله وتنصر وتوفي هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة ٧هـ . خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه، وأصدقها من عنده أربع مئة دينار، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة. فابتنى بها النبي ﷺ بعد رجوعه من خيبر. توفيت سنة ٤٢هـ أو ٤٤هـ أو ٥٠هـ.

(١٠) صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير من بني إسرائيل، كانت من سبي خيبر، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧هـ . وابتنى بها بسد الصهباء على بعد ١٢ ميلاً من خيبر في طريقه إلى المدينة. توفيت سنة ٥٠هـ وقيل: ٥٢هـ. وقيل: سنة ٣٦هـ ودفنت بالبقيع.

(١١) ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث، تزوجها في ذي القعدة سنة ٧هـ ، في عمرة القضاء بعد أن حل منها على الصحيح، وابتنى بها بسرف على بعد ٩ أميال من مكة، وقد توفيت بسرف سنة ٦١هـ وقيل: ٦٣هـ وقيل: ٣٨هـ ودفنت هناك، ولا يزال موضع قبرها معروفًا.

فهؤلاء إحدى عشرة امرأة تزوج بهن الرسول ﷺ، وبنى بهن وتوفيت منهن اثنتان، خديجة وزينب أم المساكين ـ في حياته، وتوفي هو عن التسع البواقي.

وأما الاثنتان اللتان لم يبن بهما فواحدة من بني كلاب، وأخرى من كندة، وهي المعروفة بالجونية. وهناك خلافات لا حاجة إلى بسطها.

وأما السرارى فالمعروف أنه تسرى باثنتين:

إحداهما مارية القبطية، أهداها له المقوقس، فأولدها ابنه إبراهيم، الذى توفي صغيراً بالمدينة في حياته ﷺ، في ٢٨ أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠هـ وافق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢م.

والسرية الثانية هى ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية، كانت من سبايا قريظة، فاصطفاها لنفسه، وقيل: بل هي من أزواجه ﷺ، أعتقها فتزوجها. والقول الأول رجحه ابن القيم، وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين، جميلة، أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش(١).

هذا، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين في غاية الشرف والنبل والسمو والحسن، كما كن في أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزوج، مع أنه كان في شظف من العيش لا يطيقه أحد. قال أنس: ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفًا مرققًا حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطًا بعينه قط(٢).

وقالت عائشة: إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال؛ ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار. فقال لها عروة: ما كان يعشيكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء(٣). والأخبار بهذا الصدد كثيرة.

ومع هذا الشظف والضيق لم يصدر منهن ما يوجب العتاب إلا مرة واحدة ـ حسب مقتضى البشرية، وليكون سببًا لتشريع الأحكام ـ فأنزل الله آية التخيير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ

(١) انظر زاد المعاد ١/٢٩.

(٢) صحيح البخاري ٢/٩٥٦.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٨-٢٩]. وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا.

وكذلك لم يقع منهن ما يقع بين الضرائر مع كثرتهن إلا شيئًا يسيراً من بعضهن حسب اقتضاء البشرية، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى، وهو الذي ذكره الله في سورة التحريم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ﴾ [التحريم:١] إلى تمام الآية الخامسة.

* * *

صفات النبي ﷺ وأخلاقه

كان النبي ﷺ يمتاز من جمال خَلْقه وكمال خُلُقه بما لا يحيط بوصفه البيان، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله، والرجال تفانوا في حياطته وإكباره، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذي يحب عادة لم يرزق بمثلها بشر - وفيما يلي نورد ملخص الروايات في بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة -.

جمال الخَلْق:

قالت أم معبد الخزاعية عن رسول الله ﷺ - وهي تصفه لزوجها، حين مر بخيمتها مهاجراً -: ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعَبه ثجلة، ولم تزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطح، أحور، أكحل، أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق، فضل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن، ربعة، لا تقحمه عين من قصر، لا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود، محشود، لا عابس ولا مفند(١).

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٤، والوضاءة: الجمال، أبلج الوجه: مشرقه ومضيئه. الثجلة: كبر البطن أو كبر الرأس. لم تزريه: لم تعبه، والصعلة: صغر الرأس، والوسيم القسيم: الحسن الجميل، والدعج: شدة سواد الحدقة، وفي أشفاره وطف: في شعر أجفانه طول، والصحل: بحة يسيرة، سطح: طول، أحور: شديد بياض العينين في شدة سوادهما، أزج: متقوس الحاجبين، أقرن: ملتقي الحاجبين بين العينين، لا نزر ولا هذر: لا قليل ولا كثير بل هو وسط الكلام، محفود: الذي يخدمه أصحابه ويسرعون إلى امتثال أمره، محشود: الذي يجتمع إليه الناس، ولا مفند: أي لا يفند أحداً، أي لا يهجنه ولا يستقل عقله.

وقال علي بن أبي طالب - وهو ينعت رسول الله ﷺ -: لم يكن بالطويل الممغط، ولا القصير المتردد، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط، ولا بالسبط، وكان جعداً رجلاً، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم، وكان في الوجه تدوير، وكان أبيض مشربًا، أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، دقيق المسربة، أجرد، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب، وإذا التفت التفت معًا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين، أجود الناس كفًّا، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول نعاته: لم أر قبله ولا بعده مثله، ﷺ(١).

وفي رواية عنه: أنه كان ضخم الرأس، ضخم الكراديس، طويل المسربة، إذا مشا تكفأ تكفيًا كأنما ينحط من صبب(٢).

وقال جابر بن سمرة: كان ضليع الفم، أشكل العينين، منهوس العقبين(٣).

وقال أبو الطفيل: كان أبيض، مليح الوجه، مقصداً(٤).

وقال أنس بن مالك: كان بسط الكفين. وقال: كان أزهر اللون، ليس بأبيض أمهق، ولا آدم، قبض وليس في رأسه ولحيته إلا عشرون شعرة بيضاء(٥).

---

(١) ابن هشام ١/٤٠١، ٤٠٢، وجامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٤/٣٠٣ والممغط: المفرط في الطول. الجعد القطط: شديدة الجعودة، وهي التواء وانقباض في الشعر، والسبط: مسترسل الشعر، والمطهم: الممتلئ الجسم، والمكلثم: شديد تدوير الوجه، أهدب الأشفار: طويل شعر الأجفان، جليل المشاش: عظيم رؤوس العظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين، والكتد: الكاهل وما يليه من الجسد، المسربة: خط الشعر من اللبة إلى السرة، أجرد: خال من الشعر، الشثن: الغليظ، تقلع في مشيته: أي شديد المشي، الصبب: ما انحدر من الأرض.

(٢) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٤/٣٠٣، والكراديس جمع كردوس: رؤوس العظام، وقيل: ملتقى كل عظمتين ضخمين كالركبتين والمرفقين.

(٣) صحيح مسلم ٢/٢٥٨ ضليع الفم: واسعه، أشكل العين: طويل شق العين، منهوس العقب: قليل لحم العقب.

(٤) نفس المصدر.

(٥) صحيح البخاري ١/٥٠٢، والأبيض الأمهق: كريه البياض كلون الجص.

وقال: إنما كان شيء - أي من الشيب - في صدغيه. وفي رواية: وفي الرأس نبذ(١).

وقال أبو جحيفة: رأيت بياضًا تحت شفته السفلى، العنفقة(٢).

وقال عبد الله بن بسر: كان في عنفقته شعرات بيض(٣).

وقال البراء: كان مربوعًا، بعيد ما بين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة أذنيه، رأيته في حلة حمراء، لم أر شيئًا قط أحسن منه(٤).

وكان يسدل شعره أولاً؛ لحبه موافقة أهل الكتاب، ثم فرق رأسه بعد(٥).

قال البراء: كان أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خلقًا(٦).

وسئل: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا بل مثل القمر. وفي رواية: كان وجهة مستديراً(٧).

وقالت الربيع بنت معوذ: لو رأيته رأيت الشمس طالعة(٨).

وقال جابر بن سمرة: رأيته في ليلة إضحيان، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر- وعليه حلة حمراء - فإذا هو أحسن عندي من القمر(٩).

وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث(١٠).

---

(١) نفس المصدر، وصحيح مسلم ٢/٢٥٩.
(٢) صحيح البخاري ١/٥٠١، ٥٠٢.
(٣) نفس المصدر ١/٥٠٢.
(٤) نفس المصدر.
(٥) صحيح البخاري ١/٥٠٣.
(٦) صحيح البخاري ١/٥٠٢، وصحيح مسلم ٢/٢٥٨.
(٧) صحيح البخاري ١/٥٠٢، وصحيح مسلم ٢/٢٥٩.
(٨) رواه الدارمي... مشكاة المصابيح ٢/٥١٧.
(٩) رواه الترمذي في الشمائل ص٢، والدارمي... مشكاة المصابيح ٢/٥١٨.
(١٠) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٤/٣٠٦، مشكاة المصابيح ٢/٥١٨.

وقال كعب بن مالك: كان إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر(١).

وعرق مرة وهو عند عائشة رضي الله عنها يخصف نعلاً، وهي تغزل غزلاً، فجعلت تبرق أسارير وجهه، فلما رأته بهتت وقالت: والله لو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره من غيرك:

وإذا نظـرت إلى أسـرة وجهـه برقـت كبرق العارض المتهلل(٢)

وكان أبو بكر إذا رآه يقول:

أميـن مصطفى بالخير يدعـو كضـوء البـدر زايله الظلام(٣)

وكان عمر ينشد قول زهير في هرم بن سنان:

لو كنت مـن شـيء سـوى البشـر كنـت المضـيء لليلـة البـدر

ثم يقول: كذلك كان رسول الله ﷺ(٤).

وكان إذا غضب احمر وجهه، حتى كأنما فُقِئَ في وجنتيه حب الرمان(٥).

وقال جابر بن سمرة: كان في ساقيه حموشة، وكان لا يضحك إلا تبسمًا. وكنت إذا نظرت إليه قلت: أكحل العينين، وليس بأكحل(٦).

وقال عمر بن الخطاب: وكان من أحسن الناس ثغرًا(٧).

قال ابن عباس: كان أفلج الثنيتين، إذا تكلم رُئِيَ كالنور يخرج من بين ثناياه(٨).

(١) صحيح البخاري ١/٥٠٢.
(٢) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٣٢٥.
(٣) خلاصة السير ص٢٠.
(٤) خلاصة السير ص٢٠.
(٥) مشكاة المصابيح ١/٢٢، ورواه الترمذي في أبواب القدر: باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٢/٣٥.
(٦) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٤/٣٠٦.
(٧) صحيح مسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء ٣/١١٠٧، ح١٤٧٩.
(٨) رواه الدارمي... مشكاة المصابيح ٢/٥١٨.

وأما عنقه فكأنه جيد دمية في صفاء الفضة، وكان في أشفاره عطف، وفي لحيته كثافة، وكان واسع الجبين، أزج الحواجب في غير قرن، بينهما عِرْقٌ يُدِرّه الغضبُ، أقنى العرنين، سهل الخدين، من لبته إلى سرته شعر يجري كالخط، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، سواء البطن والصدر، مسيح الصدر عريضه، طويل الزند، رحب الراحة، سبط القصب، خمصان الأخمصين، سائل الأطراف، إذا زال زال قلعًا، يخطو تكفيًا ويمشي هونًا(١).

وقال أنس: ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحًا قط أو عرفًا قط، وفي رواية: ما شممت عنبرًا قط ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ(٢).

وقال أبو جحيفة: أخذت بيده، فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك(٣).

وقال جابر بن سمرة ـ وكان صبيًا: ـ مسح خدي فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جونة عطار(٤).

وقال أنس: كأن عرقه اللؤلؤ. وقالت أم سليم: هو من أطيب الطيب(٥).

وقال جابر: لم يسلك طريقًا فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرفه. أو قال: من ريح عرقه(٦).

وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده، وكان عند ناغض كتفه اليسرى، جمعًا عليه خيلان كأمثال الثآليل(٧).

---

(١) خلاصة السير ص١٩، ٢٠.
(٢) صحيح البخاري ١/٥٠٣، صحيح مسلم ٢/٢٥٧.
(٣) صحيح البخاري ١/٥٠٢.
(٤) صحيح مسلم ٢/٢٥٦.
(٥) نفس المصدر.
(٦) رواه الدارمي... مشكاة المصابيح ٢/٥١٧.
(٧) صحيح مسلم ٢/٢٥٩، ٢٦٠ خيلان جمع خال. والثآليل جمع ثؤلول: خراج يكون بجسم الإنسان، صلب مستدير.

كمال النفس ومكارم الأخلاق

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، وكان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي.

وكان الحلم والاحتمال، والعفو عند المقدرة، والصبر على المكاره، صفات أدبه الله بها، وكل حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً، قالت عائشة: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها(١). وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضاً.

وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقادر قدره، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، قال ابن عباس: كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فَلَرسُولُ الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة(٢). وقال جابر: ما سئل شيئًا قط فقال: لا(٣).

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يجهل، كان أشجع الناس، حضر المواقف الصعبة، وفرّ عنه الكماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح،

(١) صحيح البخاري ١/٥٠٣.

(٢) نفس المصدر ١/٥٠٢.

(٣) نفس المصدر ١/٥٠٢.

ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة سواه، قال علي: كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه(١). قال أنس: فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عري، في عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا(٢).

وكان أشد الناس حياءً وإغضاءً، قال أبو سعيد الخدري: كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، وإذا كره شيئًا عرف في وجهه(٣). وكان لا يثبت نظره في وجه أحد، خافض الطرف. نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس، وكان لا يسمي رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه، بل يقول: ما بال أقوام يصنعون كذا. وكان أحق الناس بقول الفرزدق:

يغضي حياءً ويغضى من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم

وكان أعدل الناس، وأعفهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له بذلك محاوره وأعداؤه، وكان يسمى قبل نبوته الأمين، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام، وروى الترمذي عن علي أن أبا جهل قال له: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣](٤). وسأل هرقل أبا سفيان، هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

---

(١) انظر الشفاء للقاضي عياض ١/٨٩، ومثل ذلك روى أصحاب الصحاح والسنن.

(٢) صحيح مسلم ٢/٢٥٢، وصحيح البخاري ١/٤٠٧.

(٣) صحيح البخاري ١/٥٠٤.

(٤) مشكاة المصابيح ٢/٥٢١.

وكان أشد الناس تواضعًا، وأبعدهم عن الكبر، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك، وكان يعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس في أصحابه كأحدهم، قالت عائشة: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته، وكان بشراً من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه(١).

وكان أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم، وأعظمهم شفقة ورأفة ورحمة بالناس، أحسن الناس عشرة وأدبًا، وأبسط الناس خلقًا، أبعد الناس من سوء الأخلاق، لم يكن فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا لعانًا، ولا صخابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، وكان لا يدع أحداً يمشي خلفه، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس، ويخدم من خدمه، ولم يقل لخادمه أف قط، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه، وكان يحب المساكين ويجالسهم، ويشهد جنائزهم، ولا يحقر فقيراً لفقره. كان في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: عليّ ذبحها، وقال آخر: عليّ سلخها، وقال آخر: عليّ طبخها، فقال ﷺ: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نحن نكفيك. فقال: قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه، وقام وجمع الحطب(٢).

ولنترك هند بن أبي هالة يصف لنا رسول الله ﷺ؛ قال هند ـ فيما قال ـ: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ـ لا بأطراف فمه ـ ويتكلم بجوامع الكلم، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير، دمثًا ليس بالجافي ولا بالمهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئًا، ولم يكن يذم ذواقًا ـ ما يطعم ـ ولا يمدحه،

(١) مشكاة المصابيح ٢ / ٥٢٠.

(٢) خلاصة السير ص٢٢.

ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها ـ سماحة ـ وإذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه. يؤلف أصحابه ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره.

يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر، غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره.. الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن ـ لا يميز لنفسه مكانًا ـ إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق متقاربين، ويتفاضلون عنده بالتقوى، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن في الحرم ـ لا تخشى فلتاته ـ يتعاطفون بالتقوى، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عيّاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه. قد ترك

نفسه من ثلاث: الرياء والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحداً، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، ويقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ[1].

وقال خارجة بن زيد: كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئًا من أطرافه، وكان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يعرض عمن تكلم بغير جميل، كان ضحكه تبسمًا، وكلامه فصلاً، لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم؛ توقيراً واقتداء به[2].

وعلى الجملة فقد كان النبي ﷺ محلى بصفات الكمال المنقطعة النظير، أدبه ربه فأحسن تأديبه، حتى خاطبه مثنيًا عليه فقال: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** [القلم: ٤] وأنت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس، وحببه إلى القلوب، وصيّره قائداً تهوي إليه الأفئدة، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء، حتى دخلوا في دين الله أفواجًا.

وهذه الخلال التي أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته، أما حقيقة ما كان عليه من الأمجاد والشمائل فأمر لا يُدرَك كنهُه، ولا يسبَر غورُه، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر في الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال، استضاء بنور ربه، حتى صار خلقه القرآن؟ اللهم صل على محمد وعلى

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/١٢١ – ١٢٦، وانظر أيضًا شمائل الترمذي.

(٢) الشفا ١/١٠٧.

آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

* * * * *



الرسول محمد ﷺ

الجزء الأول

الفصل الثاني

محمد ﷺ

في التوراة والإنجيل

وفي كتب الأولين

تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فهذه الرسالة شاهد من أهل الكتاب على أنفسهم، من باب قول الله تعالى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:٢٦].

أما دليلهم إلى الإسلام، فالإسلام يكفيهم من أن يلتفتوا إلى أي شيء آخر.

هذا.. وبين أيديهم ما يرشدهم إلى الاطلاع على أدلة دين الله تعالى، والبينات التي أرسل الله بها رسوله محمداً ﷺ دون إعراض أو تعنت..

رغم ما حرفوه وضيعوه مما استحفظوا من كتاب الله..

وعند قراءتي لنبأ في القرآن الكريم أو السنة المطهرة، فإنني أتذكر قول الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل:٩٣].

وأنا على يقين، بأن هذا النبأ سوف يراه الناس بأعينهم، إن لم يكونوا قد رأوه.. وعند قراءتي لقول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

كنت أتمنى أن يضع المنصفون منهم أيديهم على النصوص في الكتب التي قبل القرآن الكريم، والتي يسهل بها رؤية قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

حتى يسّر الله لي الإطلاع على عدد من الكتب التي كتبها علماؤهم الذين أكرمهم الله بنعمة الإسلام؛ مثل كتاب «محمد ﷺ في الكتاب المقدس»

للبروفيسور عبد الأحد داود، وكتاب «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم» للبروفيسور موريس بوكاي(١).

فاستخرت الله في كتابة هذا الموضوع؛ وهو من باب:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:٢٦].

وإذا سألنا.. لماذا تكفل الله بحفظ القرآن كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، إلى يوم القيامة، وأوكل حفظ الكتب السابقة لأهل كل كتاب، أرسل إليهم؟

فالجواب: أن الكتب السابقة مخصوصة بأقوام مرسلين، وما يضيعه الناس فإن الرسل تأتي من بعدهم ليبينوه لهم، أما القرآن الكريم فهو رسالة الله الخاتمة للناس كافة، والباقية إلى جميع الأجيال إلى قيام الساعة؛ فلا نبي بعد رسول الله محمد ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]

إن الملايين والملايين الذين أسلموا من أهل الكتاب، وغيرهم يخبرون بالنصوص القاطعة بأن الدين عند الله الخالق هو الإسلام، وأن الرسول محمداً ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، ولا تخلو منه كتب الأولين..

ومن هذه النصوص:

١ ـ أن الله تعالى قال لموسى ـ عليه السلام ـ:

«أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به». [التثنية ١٨:١٨]

---

(١) من أهم مراجع هذا الموضوع: كتاب «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» لابن القيم ـ وكتاب «ماذا تقول التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ» لديدات ـ وكتاب «إظهار الحق» لوحيد الدين خان ـ وكتاب «محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن» لإبراهيم الخليل (وكان قسيساً وأسلم) ـ وكتاب «المسيح إنسان أم إله» لمحمد مجدي مرجان (وقد أكرمه الله بنعمة الإسلام).

وهذه النصوص تدلهم على أن هذا النبي ﷺ ليس من بني إسرائيل، ولكنه من إخوة بني إسرائيل؛ وهم بنو إسماعيل .

ولذلك كان الأحبار والرهبان (علماء اليهود والنصارى) يعرفون جيداً أن هذا النبي ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام (وهم العرب) . . . .

وهـذا هو السر في دخـول أهل المدينـة المنورة في الإسلام قبل هجرة النبي ﷺ إليها؛ من كثرة ما سمعوا عن النبي ﷺ من الأحبار والرهبان(١) .

---

(١) ولأن العرب هم بنو إسماعيل عليه السلام ، فقد كان سلمان الفارسي رضي الله عنه ممن ذهبوا إلى بلاد العرب؛ انتظاراً للنبي ﷺ ، وترك رغد العيش في بلاد فارس والرومان .

ومن كتاب ديدات « ماذا تقول التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ » :

لماذا محمد ﷺ هو النبي الذي مثل موسى عليه السلام، والمبشر به في التوراة والإنجيل؟

كان اليهود ينتظرون إلياً ، ومسيحاً ،ونبيًّا مثل موسى ﷺ . . . .

وقد سألوا يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) « هل أنت المسيح »، « هل أنت إيليا » ، « هل أنت النبي ﷺ » (يوحنا ١-٢٥) .. وذلك لأنهم كانوا ينتظرون مسيحاً وإيليا ونبياً مثل موسى ﷺ .

١ - وإيليا : هو يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) .

٢ - والمسيح : هو عيسى بن مريم عليه السلام (وقد أُطلق اسم المسيح على عدد من الأنبياء، مثل المسيح هارون، والمسيح اليشع، والمسيح داود، والمسيح سليمان، والذين يمسحون الناس والأماكن بالزيت المقدس لتكون مباركة، ويعتقد اليهود أنهم يخلونهم من أيدي الفلسطينيين وغيرهم) [محمد مجدي مرجان في كتابه « المسيح إنسان أم إله » وقد هداه الله للإسلام]

والبشارة في التوراة عن نبيٍّ مثل موسى عليه السلام من وسط إخوة بني إسرائيل (أي من بني إسماعيل)، لا يجوز إجراؤها على عيسى عليه السلام ، لأن عيسى ليس مثل موسى ، ثم إنه ليس من بني إسرائيل ولا من بني إسماعيل ، فقد خلقه الله من مريم بدون أب أصلاً ..

إن النبي المنتظر مثل موسى عليه السلام هو النبي محمد ﷺ كما بالتوراة في سفر أشعيا ٢٩/١٢ « يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له اقرأ هذا، فيقول : لا أعرف الكتابة . . » .

إنه رسول الله محمد ﷺ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ..

وقد أخبر موسى عليه السلام أنه ﷺ مثله ، وأنه من بني إسماعيل وليس من بني إسرائيل ..

وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل عليه السلام ؛ وهم العرب الذين يسكنون برية فاران التي سكنها إسماعيل عليه السلام، وقد نصت التوراة أن إسحاق عليه السلام وأبناءه (بني إسرائيل) هم إخوة لإسماعيل عليه السلام كما جاء في سفر التكوين ١٦/١٢ « وأمام إخوته يسكن . . » هكذا بين =

٢ ـ وقد علموا يقيناً مهبط الوحي للنبي ﷺ ..

كما بنص التوراة: «تجلى الله من طور سيناء، وأشرف من ساعير، واستعلى من جبال فاران». [سفر التثنية ٣٣:٢]

وجبال فاران هي جبال مكة المكرمة؛ هكذا نصت التوراة.

«وأقام إسماعيل في برية فاران». [سفر التكوين ٢١:٢١]

وقد شرفه الله برفع قواعد الكعبة المشرفة مع أبيه إبراهيم عليهما السلام (باتفاق كل الأديان) . . . كما تنص التوراة التي يؤمن بها اليهود والنصارى؛ كيف عاش إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام، في برية فاران، والتي تفجرت فيها بئر زمزم بمكة المكرمة، وذلك بالتمام. [بسفر التكوين٢١: ١٤-٢١]

«وعاد إبراهيم فأخذ الغلام وأخذ خبزاً وسقاء من ماء، ودفعه إلى هاجر وحمله عليها، وقال لها: اذهبي، فانطلقت هاجر، ونفد الماء الذي كان معها، فطرحت الغلام تحت شجرة وجلست مقابلته على مقدار رمية الحجر لئلا تبصر الغلام حين يموت، ورفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الغلام حيث هو، فقال لها الملك. قومي فاحملي الغلام وشُدِّي يدك به فإني جاعله لأمة عظيمة، وفتح الله عينها فبصرت ببئر ماء، فسقت الغلام وملأت سقاها، وكان الله مع الغلام فتربى وسكن في برية فاران».

= أيديهم أن إخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، ولذلك أتى رسول الله محمد ﷺ من بني إسماعيل، وليس من بني إسرائيل، كما أخبر موسى عليه السلام..

وكذلك تكون أمة النبي ﷺ الذي من نسل إسماعيل عليه السلام أمة عظيمة كما نصت التوراة «أن الله قال لإبراهيم إني جاعل ابنك إسماعيل لأمة عظيمة إذ هو من زرعك». سفر التكوين ٢١:١٨

وقول الملك لهاجر أم إسماعيل عليهما السلام: «فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة وها أنت تحبلين وتلدين ابناً اسمه إسماعيل» سفر التكوين ١٦: ٨-١١.

٣ ـ إنه النبي ﷺ الذي لا يتكلم إلا بالوحي .. كما بنص التوراة: «وأجعل كلامي في فمه».. «كلامي الذي يتكلم به باسمي».. فهو لا يتكلم من نفسه، ولكن يتكلم بما يوحي إليه ربه.

ونفس الصفة يخبر بها المسيح عيسى عليه السلام:

«وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به». [يوحنا ١٦:١٢]

وفي نص آخر: «إني ذاهب، وسيأتيكم الفارقليط(١) روح الحق لا يتكلم من نفسه إنما هو كما يُقال له». [يوحنا ١٤، ١٥]

فالذي يأتي بعد المسيح عيسى عليه السلام لا يتكلم من نفسه، إنما كلامه يكون بالوحي (هكذا بين أيديهم)..

وهي نفس بشارة التوراة: «وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به».

إنه رسول الله محمد ﷺ الذي لا يتكلم إلا بالوحي، قال الله تعالى:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

٤ ـ النبي الأمّي ﷺ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل؛ كما بنص التوراة في سفر أشعيا:

«يدفع الكتاب إلى من لا يعرف الكتابة فيقال له اقرأ هذا، فيقول لا أعرف الكتابة». [أشعيا ٢٩:١٢]

فمن هذا النبي الأمي، والأمة التي قال لهم عنها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: «إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها»؟؟

عجيب.. كيف يضلون؟!

---

(١) الفارقليط: أي المعزي، والمحامي ،والكثير الحمد.. وفي كثير من الطبعات الحديثة يحذفون كلمة الفارقليط ويكتبون معناها.. لأن مجموع إعداد حروفها هي: محمد ﷺ.

٥ ـ كذلك يقرءون بين أيديهم عن قول عيسى عليه السلام:

«الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع، ويكلمكم ويسوسكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب». [يوحنا ٢٥:١٦]

أ- هل يوجد غير النبي محمد ﷺ الذي بعثه الله إلى (العالم) كل العالم، وليس لبني إسرائيل خاصة مثل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، والذي قال: «فإني لم أبعث إلا لخراف بني إسرائيل الضالة».. أو المسيح داود، أو المسيح سليمان، أو المسيح اليشع - عليهم السلام جميعا -.

ب - «**ويسوسكم بالحق**».. فقد مكّن الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يحكم الناس بكتاب الله: ﴿**فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ وكذلك مكّن الله لموسى عليه السلام أن يحكم بين الناس؛ (فيعرفوا البشارة بين أيديهم: «أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك»).

ج - «**ويخبركم بالحوادث والغيوب**».. إنه رسول الله محمد ﷺ الذي أخبرنا بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة .. [صحيح البخاري]

وقد أخبر المسيح عيسى عليه السلام أن الفارقليط بعده تكون رسالته خالدة وشاملة؛ «إني سائل له أن يبعث إليكم فارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد، وهو يعلمكم كل شيء». [يوحنا ١٤:١٦]

٦ ـ وهذا الفارقليط الآخر دلتهم عليه مخطوطات البحر الميت[1] بالنص: «إن عيسى كان مسيا المسيحيين وأن هناك مسيا آخر (ومسيا بالآرمية: تعني رسولاً)... ولذلك أخبرهم المسيح عيسى عليه السلام قائلاً:

---

(١) يقول القس أ. باول ديفن (رئيس كنيسة بواشنطن): «إن مخطوطات البحر الميت - وهي من أعظم الاكتشافات منذ قرون عديدة - قد تغير الفهم التقليدي للإنجيل..».

(أفلا يَتُوبُونَ إلى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وهذه النصوص تدلهم على أن هذا النبي ﷺ ليس من بني إسرائيل، ولكنه من إخوة بني إسرائيل؛ وهم بنو إسماعيل .

ولذلك كان الأحبار والرهبان (علماء اليهود والنصارى) يعرفون جيداً أن هذا النبي ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام (وهم العرب) . . . .

وهذا هو السر في دخول أهل المدينة المنورة في الإسلام قبل هجرة النبي ﷺ إليها؛ من كثرة ما سمعوا عن النبي ﷺ من الأحبار والرهبان(١) .

---

(١) ولأن العرب هم بنو إسماعيل عليه السلام ، فقد كان سلمان الفارسي رضي الله عنه ممن ذهبوا إلى بلاد العرب؛ انتظاراً للنبي ﷺ ، وترك رغد العيش في بلاد فارس والرومان .

ومن كتاب ديدات « ماذا تقول التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ » :

لماذا محمد ﷺ هو النبي الذي مثل موسى عليه السلام، والمبشر به في التوراة والإنجيل؟

كان اليهود ينتظرون إلياً ، ومسيحاً ,ونبيًّا مثل موسى ﷺ . . . .

وقد سألوا يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) « هل أنت المسيح » ، « هل أنت إيليا » ، « هل أنت النبي ﷺ » (يوحنا ١–٢٥) .. وذلك لأنهم كانوا ينتظرون مسيحاً وإيليا ونبياً مثل موسى ﷺ .

١ - وإيليا : هو يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) .

٢ - والمسيح : هو عيسى بن مريم عليه السلام (وقد أُطلق اسم المسيح على عدد من الأنبياء، مثل المسيح هارون، والمسيح اليشع، والمسيح داود، والمسيح سليمان، والذين يمسحون الناس والأماكن بالزيت المقدس لتكون مباركة، ويعتقد اليهود أنهم يخلونهم من أيدي الفلسطينيين وغيرهم) [محمد مجدي مرجان في كتابه « المسيح إنسان أم إله » وقد هداه الله للإسلام]

والبشارة في التوراة عن نبيٍّ مثل موسى عليه السلام من وسط إخوة بني إسرائيل (أي من بني إسماعيل)، لا يجوز إجراؤها على عيسى عليه السلام ، لأن عيسى ليس مثل موسى ، ثم إنه ليس من بني إسرائيل ولا من بني إسماعيل ، فقد خلقه الله من مريم بدون أب أصلاً ..

إن النبي المنتظر مثل موسى عليه السلام هو النبي محمد ﷺ كما بالتوراة في سفر أشعيا ٢٩ / ١٢ « يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له اقرأ هذا، فيقول : لا أعرف الكتابة . . » .

إنه رسول الله محمد ﷺ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ..

وقد أخبر موسى عليه السلام أنه ﷺ مثله ، وأنه من بني إسماعيل وليس من بني إسرائيل ..

وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل عليه السلام ؛ وهم العرب الذين يسكنون برية فاران التي سكنها إسماعيل عليه السلام، وقد نصت التوراة أن إسحاق عليه السلام وأبناءه (بني إسرائيل) هم إخوة لإسماعيل عليه السلام كما جاء في سفر التكوين ١٦ / ١٢ « وأمام إخوته يسكن . . » هكذا بين =

٥ ـ كذلك يقرءون بين أيديهم عن قول عيسى عليه السلام:

«الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع، ويكلمكم ويسوسكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب». [يوحنا ١٦:٢٥]

أ- هل يوجد غير النبي محمد ﷺ الذي بعثه الله إلى (العالم) كل العالم، وليس لبني إسرائيل خاصة مثل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، والذي قال: «فإني لم أبعث إلا لخراف بني إسرائيل الضالة».. أو المسيح داود، أو المسيح سليمان، أو المسيح اليشع – عليهم السلام جميعا –.

ب – «**ويسوسكم بالحق**».. فقد مكّن الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يحكم الناس بكتاب الله: ﴿**فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ وكذلك مكّن الله لموسى عليه السلام أن يحكم بين الناس؛ (فيعرفوا البشارة بين أيديهم: «أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك»).

ج – «**ويخبركم بالحوادث والغيوب**».. إنه رسول الله محمد ﷺ الذي أخبرنا بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة .. [صحيح البخاري]

وقد أخبر المسيح عيسى عليه السلام أن الفارقليط بعده تكون رسالته خالدة وشاملة؛ «إني سائل له أن يبعث إليكم فارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد، وهو يعلمكم كل شيء». [يوحنا ١٦:١٤]

٦ ـ وهذا الفارقليط الآخر دلتهم عليه مخطوطات البحر الميت(١) بالنص: «إن عيسى كان مسيا المسيحيين وأن هناك مسيا آخر (ومسيا بالآرمية: تعني رسولاً).. .. ولذلك أخبرهم المسيح عيسى عليه السلام قائلاً:

(١) يقول القس أ. باول ديفن (رئيس كنيسة بواشنطن): «إن مخطوطات البحر الميت ـ وهي من أعظم الاكتشافات منذ قرون عديدة ـ قد تغير الفهم التقليدي للإنجيل..».

(أفلا يَتُوبُونَ إلى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

«ابن البشر ذاهب، والفارقليط من بعده يجيء لكم بالأسرار، ويفسر لكم كل شيء وهو يشهد لي كما شهدت له، فإني أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل». [يوحنا ١٤:١٦]

وأقول لمن يريدون الهدى: هو؛ من هو؟ ..

الذي لا يتكلم إلا بالوحي، ويفسر كل شيء، والذي بيّن الله.

به كل شيء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

إنه رسول الله محمد ﷺ الذي يرشد البشرية إلى كل الحق كما بالنص، وبدقة النص؛ يقرءون:

«وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية» [يوحنا ١٦:١٣].

وصدق أصحاب النبي الكرام، حيث تواتر حديثهم:

«حدثنا رسول الله ﷺ بما كان وما يكون إلى يوم القيامة، فأعلمنا أحفظنا».

[رواه مسلم]

٧ ـ حتمية تحويل لواء الهداية .. إلى أمة أخرى:

تعجب معي كيف يقرءون النصوص بين أيديهم:

«ألم تروا أن الحجر الذي أخره البناءون صار أُسًّا للزاوية من عند الله، كان هذا عجيبًا في أعيننا ومن أجل ذلك أقول لكم إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها ومن سقط على هذا الحجر ينشدخ». [متى١:٤٢]

٨ ـ وهذه الأمة الأخرى هي الأمة الأمية التي مَنَّ الله عليها، وعلمها برسوله ﷺ كما بنص التوراة: «هم أغاروني بما ليس بإله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة وأنا أيضًا أغيرهم بما ليس شعبًا، وبشعب جاهل أغضبهم».

[إصحاح ٣٢ سفر الاستثناء ١١]

هكذا ترجمتهم. وهي الأمة الأمية كما في قول الله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾** [الجمعة:٢].

وهكذا من أمة جاهلية(١) في ضلال مبين إلى أمة هداية، تحمل لواء هداية البشر إلى خالقها سبحانه، كما أجاب أحد أصحاب النبي ﷺ لملك الفرس حين سأله: من أنتم؟ .. فقال: «نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء، من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

فكانت أمة الإسلام التي أكرمها الله بحمل لواء هداية البشر إلى خالقهم سبحانه .فيرون بأعينهم ما يقرءونه:

«إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها».

وكما في صحيح البخاري؛ قال رسول الله ﷺ: «مثل المسلمين، واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يومًا إلى الليل، على أجر

---

(١) يقول الأستاذ بشرى زخاري في كتابه (محمد رسول الله): «قد حاول بعض علماء اللاهوت رد هذه الجاهلية إلى الشعب اليوناني ,ولكن من الواضح أن اليونان قبل ظهور المسيح بمئات السنين، كانوا متفوقين في العلوم والفنون ن وكانوا ـ شعباً ـ واقفين على أحكام التوراة وسائر كتب العهد القديم . (عن كتاب التوحيد للزنداني)

ومن ينظر في التاريخ فسيجد الأمة العربية الإسلامية، لم تكن شعباً قبل بعثة النبي ﷺ .. بل قبائل متفرقة متناحرة، بغير ملك أو رئيس.. فيُعرف يقيناً أنها الأمة المذكورة في التوراة والإنجيل، والتي ينتقل لواء الهداية إليها، ويغتاظ بهم الضالون من بني إسرائيل.. حيث يعرفون أن العرب من نسل قيذار الذي من نسل إسماعيل؛ فيقرؤون ويغتاظون: «إن الله مظهرهم عليكم، وباعث فيهم نبياً، وينزل عليه كتاباً ويملكهم رقابكم، فيقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال من بني قيذار في جماعات الشعوب معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين يوقعون بكم، وتكون عاقبتكم إلى النار». إصحاح حزقيال ٢١

(وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم، فقال :أكملوا بقية يومكم هذا، ولكم ما شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين العصر قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال لهم: أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير، واستأجر قوماً أن يعملوا بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليْهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور».

«... ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها...».

وهكذا أتم الله الدين برسوله محمد ﷺ حيث قال: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأتمَّها، إلا موضع لبنة منها، فجعل الناس يطوفون بها ويعجبون منها ويقولون: هلا وضعت تلك اللبنة؟! فكنت أنا تلك اللبنة».

[البخاري ومسلم والترمذي]

إنه رسول الله ﷺ الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم: «ألم تروا إلى الحجر الذي أخره البناءون صار أسًّا للزاوية من عند الله». [متى٢١:٤٢]

«ومن سقط على هذا الحجر ينشدخ..».

وكما بنص التوراة : «وأن الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أنتقم منه».

هكذا يقرءون بين أيديهم... وليتهم يسمعون: **﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾** [النساء:٤٢].

٩ ـ نداء ممن هداهم الله للإسلام(١):

تحويل القبلة من بيت المقدس أمر حتمي بعد:

(١) إنه إبراهيم الخليل، الذي كان قسيساً وأسلم والحمد لله (في كتابه: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن).

« يا أهل الكتاب كفاكم دوراناً حول هذا الجبل، واتجهوا إلى الصراط المستقيم أما جاءت تلك المرأة السامرية وأخذت تحاور المسيح ابن مريم حتى قالت له :آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون :إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه، قال لها يسوع يا امرأة صدقيني، إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم تسجدون لله، الله روح والذين يسجدون له، فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا ». [يوحنا ٤ :٢٠-٢٣]

ويقول الله في كتابه الكريم: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥].

وصدق الله العظيم: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤].

١٠ ـ الامتحان الحاسم:

بعد مناظرة للشيخ ديدات مع أحد القساوسة(١) .. كان على أثرها أن دعاه ذلك القسيس ليلقي كلمة في الكنيسة...!!

كتب الشيخ ديدات، تحت عنوان الامتحان الحاسم:

«إلى أتباع عيسى بن مريم عليه السلام أقول: لماذا لا نطبق الامتحان الحاسم الذي أراد عيسى عليه السلام منكم أن تطبقوه على أي شخص يدعي النبوة ؟ (إذا كان نبيًا بصدق أم لا).

قال المسيح بن مريم عليه السلام: «من ثمارهم تعرفونهم، أيثمر الشوك عنبًا، أم العليق تينًا ؟. كل شجرة جيدة تحمل ثمرًا جيداً، وكل شجرة رديئة تحمل ثمرًا

(١) قسيس من الكنيسة الهولندية في جمهورية جنوب إفريقيا ويدعى (فان هيدرن).

رديئًا، فما من شجرة جيدة تحمل ثمراً رديئًا، وما من شجرة رديئة تحمل ثمراً جيداً». [متى ٧:٢٠]

يقول الشيخ: لماذا تهابون من تطبيق هذا الامتحان على تعاليم نبي الله محمد ﷺ؟

فإننا نجد في القرآن الكريم رسالة كاملة متممة لما جاء على لسان موسى وعيسى عليهما السلام ....

ثم استشهد بكتاباتهم أنفسهم من باب ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ..﴾ ومنها: قول برنارد شو: لو أن شخصًا مثل محمد ﷺ تولى الحكم المطلق للعالم لاستطاع أن يعالج مشاكل العالم، ويوفر له السلام والسعادة لأن العالم في أَمَسِّ الحاجة لهما ..

ثم عن مجلة التايمز ١٥ /٧ / ١٩٧٤ دراسة قامت بها لمعرفة آراء الكثيرين من المؤرخين والكتاب ورجالات الجيش والأعمال، حول موضوع: من هو أعظم قادة العالم ؟

فكانت دراسة العالم النفساني الأمريكي جولز ماسرمان، عبارة عن وضع ضوابط علمية أساسية[١] ... تم من خلالها قال ما نصه: «ولعل أعظم قائد في التاريخ هو محمد ﷺ الذي جمع بين الضوابط الثلاثة، وموسى عليه السلام تقريبًا جمع بينهم كذلك».

---

(١) الضوابط الأساسية التي وضعها هي:

١ ـ القائد العظيم يوفر الخير والسعادة لأمته.

٢ ـ يوفر نظاماً اجتماعياً متكاملاً يعطي الشعور بالأمان للأمة.

٣ ـ يوفر للأمة معتقدات ومبادئ يؤمنون بها .. ..

(وكل من دخل الإسلام يعلن أنه لم يعرف السعادة إلا بعد إسلامه ـ ويكفينا بلد لا يخاف أصحاب المحلات فيها إذا تركوها مفتوحة، وبين بلد آخر يخاف الرجل على أمواله وهو يمشي وسط الناس – وأما المعتقدات فما أعظم الذي أنزل إلينا من ربنا ..والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة).

وهكذا يشهدون أن محمداً ﷺ وموسى عليه السلام مثل بعضهما . وما زاد قولهم عن قول موسى عليه السلام:

« سيقيم الله لكم نبيًا من إخوتكم مثلي ».

لمن يريدون الهدى:

لقد سجلت التوراة والأناجيل نصوصًا كثيرة عن صفات الذي يأتي بعد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وأن الذي يأتي بعده لا يتكلم إلا بالوحي ويخبر بالحوادث والغيوب ... إلخ

ولكن .. لا بديل من دعاء الخالق سبحانه أن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، فهو سبحانه الذي جعلنا نرى، وهو يرانا دائماً، وهو سبحانه الذي جعلنا نسمع، وهو يسمعنا دائماً؛ فندعوه سبحانه أن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يهدينا إلى رضاه.. فإن رضاه سعادة إلى الأبد..

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾.

فندعوا الخالق سبحانه، هو يهدينا،[1].

١١ ـ سؤال عميق ممن هداهم الله للإسلام[2]:

لماذا اعتمد أباطرة الرومان فكرة التثليث وعذبوا الموحدين؟؟!

لأنها تتوافق مع وثنيتهم وآراء الفلاسفة لهم...

فكرة الثالوث معدومة في أناجيل متى ولوقا ومرقص ..أما يوحنا فقد كتب خصيصًا لتقريرها وإثباتها بعد أن اتجهت شكاوى الأساقفة إلى يوحنا من اعتراض

(١) إنك إذا طلبت من إنسان أن يهديك طريقاً ، فإنه يدلك ، فكيف إذا طلبت من الله سبحانه الكريم.. ! لقد قال الله عز وجل: « يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم » صحيح مسلم .

(٢) إنه محمد مجدي مرجان ، في كتابه « المسيح إنسان أم إله ».

الجيل الأول من المسيحيين الموحدين عليها، والذين آمنوا بعيسى رسول الله، وآمنوا بكل رسل الله الذين قالوا جميعًا .

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

ثم إن الأناجيل التي نقلت أقوال المسيح وأفعاله وتعاليمه منذ طفولته إلى نهاية بعثته، لم تنقل عنه قولاً واحداً يدعو فيه إلى نفسه أو اعتباره الأقنوم الابن لله (وسبحان الله) بل كل ما قاله: إنه إنسان من خلق الله، وقد جعله الله رسولاً نبيًّا حتى في يوحنا قول عيسى عليه السلام لليهود « تريدون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله . . » ولو يعلم تلاميذه ومرافقوه أنه إله أو ابن إله، لسارعوا إلى عبادته والاتجاه إليه في صلواتهم، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث , بل في صريح الأناجيل أنهم كانوا يلقبونه بـ « المعلم » و « النبي » . . وما هذه الصفات من صلاته ونومه وأكله وشربه... إلخ إلا شاهد على ذلك .

١٢ ـ كلمة حق يصدع بها من هداهم الله للإسلام ..

إنه لا يستطيع عاقل أن ينكر تضييع أهل الكتاب لما استحفظوا من كتاب الله؛ من التوراة والإنجيل ..

فالتوراة ـ التي يقولون: كتبها موسى ـ تقول لهم: « ولما مات موسى رجل الرب ودفن في أرض معاد » . [سفر التثنية :اصحاح ٣٤]

فكيف يكتب موسى عليه السلام أنه مات ودفن؟! . . .

أما الأناجيل فيكفي نظرة واحدة إلى الأنساب التي ينسبونها للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام وتضاربها واختلافاتها(١) . . وكل هذا وهم يقرون أنه ولد من مريم بدون أب أصلاً . . . !!

---

(١) النسب حسب إنجيل متى: داود – سليمان – رحيعام – أبيا – آسا – يهوشافاط – يورام – عريا – يوتام – أجاز – حزقيا – منسا – أمون – يوشيا – يكنيا – شالتئيل – زربابل – ابيهود – الياقيم – عازور – صادق – اكيم – اليهود – العازر – منام – يعقوب – يوسف – عيسى عليه السلام =

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

١٣ ـ الله سبحانه هو الذي يؤيد بالمعجزات:

لقد تكرر في جميع الأناجيل أن عيسى عليه السلام يتجه ويصلي لله تعالى، طالباً أن يؤيده الله، ومن هذه النصوص:

« ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء »(١).

« أخذ السبع خبزات والسمك وشكر (أي صلى) وكسر».

فلمن يشكر ويصلي ؟؟ .. .. إن الناس من حول عيسى عليه السلام وتلاميذه يعرفون جيداً أنه يصلي لله، ويتجه لله سبحانه، والدليل أنهم شكروا الله، وعبدوا الله، ولم يتجه أحد منهم بعبادة للمسيح بن مريم أو أمه عليهما السلام.

١٤ ـ هكذا يفهم الناس من معجزات الرسل أن الله هو الذي يؤيدهم:

ـ « فانتهر يسوع الروح النجس، وشفى الصبي، وسلمه إلى أبيه؛ فبُهت الجميع من عظمة الله ». [لوقا ٩: ٣٧-٤٣]

نعم بهت الناس من عظمة الله، وليس تعظيما للمسيح ابن مريم ؛ لأن عيسى عليه السلام لم يقل إلا أنه رسول من الله وأن الله هو الذي يؤيده بالمعجزات. فلذلك يفهم الناس من الرسل أنهم يمجدون الله .

= النسب حسب إنجيل لوقا: داود – ناثان – متانا – مليا – الياقيم – يونان – يوسف – يهوذا – شمعون – لاوي – منات – يوريوم – عازر – يوسي – غير – الودام – موسام – آديملكي – نيري – شالتنيل – زربايل – ريسا – يوحنا – يهوذا – يوسف – شمعي – منتبا – بآت – نجاي – حسلي – ناجوم – عاموس – متتا – يوسف – نيا – ملكي – لاوي – مثات – غالي – يوسف – عيسى عليه السلام .

(موريس بوكاي في كتاب القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم)

(١) تكررت نصوص توجه المسيح عيسى عليه السلام إلى الله تعالى بالدعاء والصلاة، في كثير من المواضع منها؛ في متى: ٥:١٤-٢١، وفي مرقص ٦:٢٤-٤٤، لوقا ٩:٧-١١ يوحنا ٦:٥-٧.

ـ « فلما رآها يسوع، دعاها وقال لها يا امرأة إنك محلولة من ضعفك، ووضع عليها يديْه ففي الحال استقامت ومجدت الله » . [لوقا ١٣:١١]

نعم مجدت الله ولم تمجد عيسى بن مريم عليه السلام لأن الناس يعرفون أن المعجزات التي على يد عيسى عليه السلام إنما هي تأييد له من الله .

١٥ ـ يتعجبون ويمجدون الله تعالى، أما أتباع الشياطين فإنهم يشركون بالله ..

ـ « حينئذ قال: قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك، فقام ومضى إلى بيته، فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله » . [متى٩:٨] .. .. نعم مجدوا الله؛ لأنه لم يفهم أحد من أتباع عيسى –عليه السلام– ولا من أعدائه أنه إله أو ابن إله ولكنْ رسول من الله، ومعجزاته تأييد له من الله .

١٦ ـ وهكذا كان الناس يلقبون عيسى عليه السلام:

« يا معلم، نعلم أنك قد أتيت من الله معلما، لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات والمعجزات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه » . [يوحنا ٣:١–٢]

هكذا تقرر كل الأناجيل أن كل الذين عاصروا المسيح ابن مريم عليه السلام يعرفون أنه رسول من الله، عندما يرون المعجزات ويؤمنون بها..

« فلما قام عيسى عليه السلام بإحياء ابنة أرملة نابين؛ أخذ الجميع خوف، ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم » . [لوقا ٧:١١–١٧]

نعم يفهم الناس حين يؤمنون؛ أن عيسى عليه السلام نبي ورسول من عند الله.

وبالتمام عندما رأى الناس معجزات الرسول محمد ﷺ مثل نبع الماء من بين أصابعه، ليملأ كل الجيش آنيتهم (البخاري) لم يَدَّعِ أحد من أصحاب النبي ﷺ أنه

إله أو ابن إله، بل الجميع عظموا الله تعالى.. ولم يقولوا إلا أن محمداً ﷺ رسول من عند الله.

ومن معجزات النبي ﷺ:

في الصحيحين من حديث أنس، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما، وروى الإمام أحمد من حديث جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا :سحرنا محمد، فقالوا :انظروا ما يأتيكم به السفار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال :فجاء السفار فأخبروهم بذلك». [أبو داود الطيالسي عن ابن مسعود]

ومن عجائب معجزات النبي ﷺ حنين الجذع شوقًا إليه، فقد روى الكثير من الصحابة من طرق كثيرة، كما جاء في البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى نخلة، فقالت امرأة من الأنصار: ألا نجعل لك منبرا؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبراً فلما كان الجمعة رفع إلى المنبر، فصاحت النخلة، فنزل رسول الله ﷺ وضمها إليه، فجعلت تَئِنُّ أنين الصبي الذي يسكن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها، قال القاضي: حديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر به متواتر، خرَّجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر.

ومن آياته ﷺ: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ.. قال القرطبي: نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ قد تكرر في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، وورد من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ، وقد نقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال: «نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر، حيث ضربه موسى بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم» انتهى.

وفي الصحيحين عن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ، وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوَضوء في إناءٍ، فوضع يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضأوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم، وفي لفظ: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى توضأ القوم، فقلت لأنس . كم كنتم؟ قال: ثلاث مئة ..

وفي الصحيحين أيضاً: عن جابر – رضي الله عنه – قال: عطش الناس يوم الحديبية، فأتوا رسول الله ﷺ وبين يديْه ركوة، فقالوا: ليس عندنا ما نتوضأ به، ولا نشرب إلا ما في ركوتك، فوضع ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فتوضأنا وشربنا، قيل لجابر :كم كنتم يومئذ؟ قال :لو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئة.

وموقف آخر في صحيح مسلم: نبع الماء في غزوة بواط أيضًا وفيه قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة، واستدارت حتى امتلأت، وأمر الناس بالاستقاء، فاستقوا حتى رووا وموقف آخر.. في الصحيحين عن ابن مسعود قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في سفر، وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ اطلبوا من معه فضل ماء، فأتي بماء، فصبه في إناء ثم وضع كفه فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام، وهو يأكل.

[أخرجه البخاري والترمذي والنسائي]

وموقف آخر .. روى مسلم في صحيحه عن معاذ – رضي الله عنه – قصة عين تبوك أنهم جاءوها وهي تبض بشيء من ماء مثل الشراك قال ثم غرفوا من العين قليلا قليلا حتى اجتمع في شيء، ثم غسل وجهه ويديه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس.

وموقف آخر .. في صحيح البخاري في غزوة الحديبية من حديث المسور بن مخرمة، ومروان أنهم نزلوا بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس

تبرضًا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش بالري حتى صدروا عنه .

وروى البخاري ومسلم عن أنس – رضي الله عنه – قال : أصاب الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ . . فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة، قام أعرابي فقال : يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال؛ فادع الله لنا فرفع ﷺ يديه وما نرى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيده ما وضعها، حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر عن لحيته ﷺ فمُطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، وبعد الغد، حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي، فقال : يا رسول الله، هدم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا فرفع يديه، وقال : اللهم حوالينا ولا علينا، فما يشير إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة في مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهراً، ولم يجئ أحد من ناحيته إلا حدّث بالجود.

ومن آياته ﷺ تكثير الطعام القليل ببركته ودعائه : في الصحيحين عن جابر في حديثه ـ في غزوة الخندق ـ قال : فانكفأت إلى امرأتي فقلت هل عندك شيء، فإني رأيت بالنبي ﷺ خمصًا شديداً، فأخرجت جرابًا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن، فذبحتها وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ فساررته، فقلت : يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا، وطحنّا صاعا من شعير فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبيﷺ « يا أهل الخندق إن جابراً صنع سؤداً، فحي هلا بكم، وقال ﷺ : « لا تنزلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى آتي » فأخرجت له عجينًا فبصق فيه، وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال : ادعي خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم، ولا تنزلوها، وهم ألوف، فأقسم بالله إنهم أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليُخبز كما هو . .

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة قال: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقال عمر: يا رسول الله ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع الله لهم بالبركة، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيحجب عن الجنة ..».

وفي الصحيحين عن أنس قصة إطعام النبي ﷺ أصحابه وكانوا زهاء ثلاث مئة رجل من (حيس) أرسلت به أم سليم مع أنس، وأنهم أكلوا عشرة عشرة حتى شبعوا، فقال أنس: فما أدري حين وضعت كانت أكثر، أم حين رفعت؟ .

ومن آياته ﷺ إجابة دعائه ﷺ؛ وهذا باب واسع جدا، وإجابة دعوة النبي ﷺ متواتر على الجملة، معلوم ضرورة، وقد جاء في حديث حذيفة: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده، ففي البخاري دعاء النبي ﷺ لأنس رضي الله عنه قال: اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما آتيته، قال أنس: فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليعادون اليوم على نحو المئة، قال القاضي أبو الفضل: ومن هذا؛ دعاؤه ﷺ لمعاوية بالتمكين في البلاد، فنال الخلافة، ولسعد بن أبي وقاص أن يجيب الله دعوته فما دعا على أحد إلا استجيب له، ودعا بعز الإسلام بعمر، أو بعمرو بن هشام فاستجيب له في عمر، قال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وأصاب الناس في بعض مغازيه عطش، فدعا ﷺ فجاءت سحابة فسقتهم حاجتهم، ثم أقلعت، ودعا في الاستسقاء فسقوا، ثم شكوا إليه ضرر المطر، فدعا فضحوا، وقال للنابغة: لا يفض

الله فاك، فما سقطت له سن، وعاش عشرين ومئة سنة، ودعا لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل «فسمي بعد» الحبر، وترجمان القرآن».

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه فما اشترى شيئًا إلا ربح فيه، ودعا للمقداد بالبركة فكان عنده غرائر من المال، ودعا لأم أبي هريرة، فأسلمت، ودعا لعلي - رضي الله عنه - أن يكفى الحر والقر، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حر ولا برد..

وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه لما ذهب إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فقال: اللهم نور له، فسطع له نور بين عينيه، فقال: يا رب أخاف أن يقولوا مُثْلة، فتحول إلى طرف سوطه فكان يضيء في الليلة المظلمة فسمي ذا النور، ودعا على مضر فأقحطوا حتى استعطفته قريش فدعا لهم فسقوا، ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه فلم تبق له باقية.

وفي الصحيحين من رواية ابن مسعود في دعائه على قريش حين وضعوا السلى على رقبته وهو ساجد وسماهم قال: فوالذي بعث محمدا بالحق لقد رأيت الذي سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر.

وفي حديث أبي سعيد في غزوة خيبر أن رسول الله ﷺ قال: أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا يا رسول الله هو يشتكي عينيه، قال فأرسل إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، أخرجه البخاري.

وأصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إن لي امرأة أحبها وأخشى إن رأتني تقندني، فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردها إلى موضعها، قال: اللهم اكسه جمالاً، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظراً، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى، ومثل ذلك كثير وكثير من تأييدات الله تعالى لرسوله ﷺ.

ومعجزات النبي ﷺ أكثر من أن تـحصى.. ودائماً؛ يفهم الذين رأوها أنها تأييد من الله، فيعظمون الله، ويمجدون الله .. . .

ذلك لأنه لا يأتي نبي من الأنبياء، ثم يدّعي شريكا لله ..

قال الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩].

نعم ﴿**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ .. .. وهكذا قال عيسى عليه السلام [كما في متى ٥: ١٧-١٨]

«ما جئت لأبطل، بل لأكمل، الحق أقول لكم، قبل أن تزول السماء والأرض لن يزول حرف أو نقطة من الشريعة حتى يتم كل شيء.. ..» وهذه هي الحقيقة؛ أن عيسى عليه السلام لم يأت بدين غير دين الأنبياء. بل جاء بما جاء به كل الأنبياء عليهم الصلاة السلام: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾.

وهكذا يؤمن جميع المؤمنين؛ بما أنزل الله تعالى على جميع رسله الكرام .. . . قال الله تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٦].

١٧ ـ أمثلة كثيرة تدلهم على أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لم يخالف دينه دين الأنبياء؛

أ ـ اختتان عيسى عليه السلام اتباعًا للتوراة، أما الضالون فإنهم لا يتبعون .. ..

ففي السفر الأول من التوراة الفصل ١٧: ١٠-١١ أن الله قال لإبراهيم: «وأنت عهدي تحفظ أنت ونسلك بعدك لأجيالهم، هذا عهدي الذي تحفظه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك أن يختتن كل ذكر منكم»..

فما معنى هذا النص؟ . . . أليس صريحا في أن شرع الختان ثابت على ذرية إبراهيم عليه السلام وأتباعه ؟

فكيف يجعلون من شريعة عيسى عليه السلام إبطال الختان لمجرد متابعة دين قسطنطين!! (وقد عمل على تحريف تعاليم المسيح عليه السلام)

ب ـ فكرة توارث الخطيئة مرفوضة في الكتاب المقدس :

في سفر التثنية ٢٤ : ١٦ . . «لا تقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل».

وفي حزقيال ١٨ : ٢٠ . . «النفس التي تخطئ هي تموت، والابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون» . . فكيف إذن يرى أصحاب الخطيئة غير ذلك ؟ ويقولون : بالخطيئة حبلت بنا أمهاتنا »!! . . . رغم أن آدم عليه السلام قد اجتباه ربه وتاب عليه، وهو نبي الله . . . وهكذا

يضطرون ويقرون حجة الله تعالى : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾

[النجم: ٣٦-٤١]

١٨ ـ من حفر حفرة لأخيه وقع فيها :

في يوحنا ١٨ : ٦ . . «لما قال لهم : إني أنا هو، رجعوا إلى الوراء، وسقطوا على الأرض» وهكذا يعرفون أن عيسى عليه السلام ينجيه ربه دائماً . . . فما الذي حدث؟؟ . . .

في برنابا ٢١٣ : ٢٤-٢٦ . . «إن واحداً منكم سيسلمني، فأُباع كالخروف، ولكن ويل له، لأنه سيتم ما قاله داود أبونا عنه أنه سيسقط في الهوة التي أعدها للآخرين».

وفي برنابا ٢١٣:٢٤-١٤.. «اعلم يا برنابا أنه سيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود، وإني على يقين من أن مَن يبيعني يقتل باسمي لأن الله سيبعدني من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي».. .. وهكذا يعرفون ولا ينكرون ؛ أنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

١٩ ـ ولا ينكرون أن عيسى عليه السلام معصوم :

ففي يوحنا ٧:٤٤.. «وكان قوم منهم يريدون أن يمسكوه، لكن لم يلق أحد عليه الأيادي».. .. في ٨:٥٩ «فرفعوا حجارة ليرموه، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا».

وفي ١٠:٢٩ «فطلبوا أيضا أن يمسكوه فخرج من أيديهم».

وذلك لأن الله تعالى كفّ بني إسرائيل عن عبده عيسى عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾ [المائدة:١١١].

والحقيقة واحدة :

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨].

٢٠ ـ الله تعالى لا تدركه الأبصار، حقيقة وردت في كافة الكتب السماوية ..

ففي التوراة أن موسى عليه السلام طلب أن يرى وجه الله فأجابه سبحانه : «لا تقدر أن ترى وجهي؛ لأن الإنسان لا يراني ويعيش» خروج ٣٣:٢٠ كذلك يقرر يوحنا ١:١٨ «الله لم يره أحد».. .. حتى بولس قد أقر بذلك «الله لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» تيموثاوس ٦ : ١٦.

وهكذا يعرفون ولا ينكرون؛ أن الله تعالى: ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾.

٢١ ـ وأن عيسى عليه السلام لم يقل إلا أنه إنسان:

فلقد تكرر لفظ «ابن الإنسان» على لسان عيسى عليه السلام؛ ففي متّى: ٣٠:٨، ١١:١٩، ١٢:٣٢–٤٠، ٢٠:٢٨، ٢٤:٣٠ و٢٥:٣١، ٢٦:٢٤. وفي مرقص: ٢:٢٨، ٤:٤١.. وفي لوقا: ٩/٥٦/١٧:٢٤، ٨:٨.. وفي يوحنا ٣:١٣، ٥:٢٧/١٣:٣١، ٦:٢٧.

٢٢ ـ وعيسى عليه السلام رسول الله، لا يصنع إلا ما أمره الله:

في يوحنا ٦: ٣٨ يقول عيسى عليه السلام «ما أتيت لأصنع مشيئتي بل مشيئة من أرسلني».. وفي يوحنا ٧:١٦؛ «كما أن تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» فمن أرسل عيسى عليه السلام؟ إن الذي أرسله هو سيده ومولاه، الله سبحانه وتعالى.

٢٣ ـ وهكذا يخبرهم عيسى عليه السلام أنه نبي من أنبياء الله تعالى:

في لوقا ١١:٣٠ «وكما كان يونان (يونس عليه السلام) آية لأهل نينوى، كذلك يكون ابن الإنسان أيضًا لهذا الجيل».

.... (الكلام الفصل) ....

إن تلاميذ عيسى عليه السلام الذين كانوا لا يفارقونه الليل والنهار، والذين كانوا يعرفون من أمور عيسى ما لا يعرفه العامة، ماذا عرفوا عن عيسى ؟؟ وماذا حسبوه ؟؟ .. ..

إنه رسول الله إلى بني إسرائيل كما أخبرهم: «إنني لم أبعث إلا لخراف بني إسرائيل الضالة».

٢٤ ـ إلى أولئك الذين يشركون بالله: «أفلا تعقلون»

وفي متى ٤ : ١ ـ ١٠ (كيف أخذ الشيطان عيسى عليه السلام؟ ثم أخذه أيضا إبليس إلى جبل عالٍ جداً، و أراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع :اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد).

فلو أنهم يعقلون وهم يدّعون ألوهية عيسى عليه السلام فبماذا يغريه الشيطان ؟؟

أيغريه بالدنيا، ويكون هو صانعها ؟؟!!

أم يغريه بالناس، ويكون هو خالقهم؟؟!!

إن فشل الشيطان في غواية المسيح عيسى عليه السلام متكرر مع كل الأنبياء.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُول وَلا نَبيٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنيَّته فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكمُ اللَّهُ آيَاته وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴿٥٢﴾ ليَجْعَلَ مَا يُلْقي الشَّيْطَانُ فتْنَةً لِّلَّذينَ في قُلُوبهم مَّرَضٌ وَالْقَاسيَة**

قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام لم يصلِّ إلا لله وحده ولم يسجد إلا لله وحده؛ هكذا يتكرر كثيراً بين أيديهم: «وفي تلك الليلة خرج إلى الجبل وقضى الليل كله في الصلاة لله» لوقا / ١٢٦.

قال الله تعالى: **﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾**

[النساء:١٧٢]

ولقد أثنى الله تعالى على الذين يسلمون من أهل الكتاب: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾** [الأعراف:١٥٧].

انتباه الغفلة

تعليمات الأنبياء ونداء الفطرة

إن الذي يصدق الفطرة ولا يخفيها ؛ يعلم أن له خالقًا عظيمًا ..فالشمس تدل على خالقها.. فهي لا تأتي من نفسها.. والأرض تدل على خالقها فهي لا تأتي من نفسها .

وليس نداء للبشرية منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة عن خالقهم إلا نداءً واحداً، وهو نداء كل الأنبياء:

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦] .

وبالفطرة تتحدد حالة الإنسان ؛ فإن صنع الإنسان شيئًا يوافق الفطرة فإن النفس تطمئن إليه .. وإن صنع شيئًا يخالف الفطرة فإن النفس تضطرب ..

ولذلك جاءت تعليمات الأنبياء موافقة للفطرة ؛ أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر ..وهكذا يعلمهم المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: «من ثمارهم تعرفونهم».. .. وهكذا أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بعبادة الله وحده، وصلة الأرحام، ونصر الضعيف، وفك الرقاب، وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك...(١).

---

(١) إن الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بدينه دين الإسلام، المبني على الأصول التي اتفق عليها كل الأنبياء والمرسلين .. .. فدين أصله الإيمان بالله، وثمرته السعي في كل ما يحبه ويرضاه، وإخلاص ذلك كله لله؛ هل يتصور أن هناك دينًا أحسن منه وأفضل؟! .. .. في دين الله أمر بكل حق، واعتراف بكل صدق، وبكل حقيقة عقلية فطرية نافعة.. ودين الله لا يرد حقًا ولا يصدق كذباً .. يأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، ومصالح العباد، ويحث على العدل والفضل، والرحمة والخير .. =

﴿النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار».

[صحيح مسلم]

= ويزجر عن الظلم والبغي ومساوي الأخلاق.. ما من خصلة كمال قررها الأنبياء والمرسلون إلا قررها وأثبتها، وما من مصلحة دينية ودنيوية دعت إليها الشرائع إلا وحث عليها.. ولا مفسدة إلا نهى عنها وأمر بمجانبتها؛ إنه دين الله. (كتاب «من محاسن الدين الإسلامي»).

وفي كتب الأولين

قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦].

فرسول الله محمد ﷺ في الكتب التي تقدسها الديانات الأخرى، وإن كان الذي بين أيديهم بقايا من بقايا كلام الأنبياء الأولين.

(١) في كتاب «السامافيدا» أحد الكتب المقدسة لدى البراهمة :

«أحمد تلقى الشريعة من ربه، وهي مملوءة بالحكمة، وقد قُبست من النور كما يقبس من الشمس».

(٢) وفي كتاب «ندا أفستا» :

بشارة عن رسول يوصف بأنه «رحمة للعالمين» «سوشيانت»... ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبو لهب، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفواً أحد (هيج جيزبار ونمار) وليس له أول ولا آخر، ولا ضريع ولا فريع، ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا ولد، ولا مسكن ولا جسد، ولا شكل ولا لون ولا رائحة (حز أخاز وانجام وابنا زود شمس والمنر ويار وپدر ومادر وزن وفرزند وماي سوى ومن آسيا وتنافى ورنك وبواست)..

(٣) وفي الكتب الزرادشتية :

«إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعهُ فارسَ، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم، يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام، يومئذ يصبحون - وهم أتباع للنبي - رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ

وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم، وإن نبيهم ليكونن فصيحًا يتحدث بالمعجزات».

(٤) وفي كتاب أورو أفيدم (ادهروويدم):

وصف للرسول الذي سيأتي وذكره باسمه: «أيها الناس اسمعوا وعوا يبعث المحمد بين أظهر الناس .. وعظمته تحمد حتى في الجنة ويجعلها خاضعة له وهو المحامد».

(٥) وفي كتاب بفوشيا برانم (بهوش برانم):

«في ذلك الحين يبعث أجنبي مع أصحابه باسم (محامد) الملقب بأستاذ العالم(١) والملك يطهره بالخمس المطهرة». [ج٢ فصل ٣ عبارات ٣ وما بعدها]

(٦) وأيضاً في كتاب بنوشيا برانم؛ وصف لأصحاب النبي ﷺ: «هم الذين يختتنون، ولا يربون القزع، ويربون اللحى، وينادون الناس للدعاء بصوت عال، ويأكلون أكثر الحيوانات إلا الخنزير، ولا يستعملون الدرباء للتطهير بل الشهداء هم المتطهرون، ويسمون بمسليٍّ بسبب أنهم يقاتلون من يلبس الحق بالباطل ودينهم هذا يخرج مني وأنا الخالق». [جزء ٣ فصل ٣ عبارات ٢٧-٢٨]

فمَن أولئك الذين ينادون بالدعاء (الصلاة) بصوت عال (الأذان)؟

إنهم المسلمون؛ يؤذنون كل حين، ويدعون الناس إلى الله خالقهم وخالق كل شيء ..

---

(١) ونفس الصفة أخبر بها المسيح عيسى بن مريم بقوله: «إن أركون العالم سيأتي».. وأركون تعني السيد، والأستاذ .(كتاب هداية الحيارى).

.. .. ومسك الختام .. ..

يقول الله سبحانه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾

[آل عمران:٨١]

والحمد لله الذي يسر الهدى لمن أراد الهدى ..

وهكذا ليرى كل إنسان بعينيه أن الله غالب على أمره، وهو القاهر فوق عباده، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

أما أولئك الذين يتولون على وجوههم مدبرين ..

فوالله لا يعجزون الله رب العالمين .

فـ. النهاية الحتمية للأشرار وأعوان الدجال .

أولئك الذين يخفون فطرتهم ويفسقون وينسلخون من أمر الله تعالى في فطرتهم، فإنهم يحاولون جعل مخالفاتهم قانونًا ليسوّغوا لأنفسهم الظلم، ويرون الشبهات لتزيغ قلوبهم عن الحق، ويظنون الظنونَ .. ..

ذلك ليتم كلام الله ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:١٩].

أولئك الذين يحاربون دين الله، لمّا فسقوا؛ وقعوا في شبهاتٍ وأباطيل وضلوا عن سبيل الله .. ..

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]

ولهم أقول ؛ نصيحتي إليكم وأنا حريص عليكم ....

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:٣]

وأقول لأولئك الذين يتولون: إن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.. سيحشر الله أئمة الكفر والضلال وأتباع الدجال، ويكون قتلهم شر قتلة.. .. ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ [طه:١٢٧].

هكذا أجمل النبي ﷺ: «ثم تغزون الدجال فيفتحه الله». [رواه مسلم]

وقد أخبر النبي ﷺ أن المسلمين يغزون الدجال وأعوانه من اليهود(١) عند بيت المقدس والذي يكون محاصراً فيه بعض المسلمين(٢).

وقال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر أو الشجر، فيقول: يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود».

[رواه مسلم]

قال النووي رحمه الله: «الغرقد؛ نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس وهناك يكون قتل اليهود». ا.هـ

(١) روى الإمام أحمد.. عن النبي ﷺ قال: «أكثر أتباع الدجال، اليهود والنساء» الصحيحة ٣٠٨٠.

(٢) انظر تعليق الشيخ الألباني على صحيح الجامع الصغير.

وهكذا أيضاً أخبر عيسى عليه السلام قائلاً لليهود :

«لتتكامل عليكم دماء المؤمنين المهرقة على الأرض، من دم هابيل الصالح، إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه عند المذبح، إنه سيأتي جميع ما وصفت على هذه الأمة، يا أورشليم التي تقتل الأنبياء وترجم من بعث إليك، أردت أن أجمع بنيك كجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، وكرهت أنت ذلك، سأقفز عليكم بيتكم، وأنا أقول لا تروني الآن، حتى يأتي من يقولون له: مبارك». [متى ٢٣:٣٣-٣٩]

فأخبرهم عيسى عليه السلام أنهم لابد أن يستوفوا الصاع الذي قدر لهم، وأنه سيقفز عليهم بيتهم أي يخليه منهم، وأنه يذهب عنهم فلا يرونه حتى يأتي من يقولون له مبارك (رسول الله ﷺ)، الذي انتقم بعده لدماء المؤمنين، وهذا نظير قوله في الموضع الآخر: «إن خيراً لكم أن أذهب عنكم حتى يأتيكم الفارقليط، فإنه لا يجيء ما لم أذهب»..

والفارقليط والمبارك الذي جاء بعد المسيح ابن مريم عليه السلام هو محمد ﷺ الذي شهد له عيسى عليه السلام كما شهد له النبي ﷺ أنه عبد الله ورسوله، وأن الله تعالى يجعل قتل الدجال وأعوانه الأشرار عند بيت المقدس على يد عيسى عليه السلام ومن معه من المسلمين.

[من كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم رحمه الله]

من هو المسيح الدجال وكيف يعصمنا الله من فتنته؟؟

إنه أعور ويدعي الألوهية وهو كاذب، فهو لا يستطيع أن يزيل ما به من عور، ويخرج للبشرية بالرخاء الذي يجعله الله معه فتنة لإيمان الناس، حيث يأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت لمن يستجيبون له، ويا لها من فتنة رهيبة حيث إنه يخرج بعد سنين من الجدب الرهيب، حتى إن السنة التي يخرج فيها «يأمر الله الأرض فتحبس نباتها كله، ويكفي المؤمنين التهليل والتكبير والتحميد».

[الحديث بصحيح الجامع]

وقال رسول الله ﷺ: « يا أيها الناس إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم، أعظم فتنة من الدجال ». [صحيح الجامع الصغير]

وأول هذا الحديث: « يا أيها الناس إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم، أعظم فتنة من الدجال ». [صحيح الجامع الصغير ٧٨٧٥]

وكيف يعصمنا الله من فتنة الدجال ؟

قال رسول الله ﷺ: « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف (أو آخرها) عصم من فتنة الدجال ». [رواه مسلم]

كما أنه محرم عليه دخول مكة المكرمة والمدينة المنورة (وهما أجمل ما يلوذ إليه المؤمنون آنذاك) عافانا الله جميعاً، آمين..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أول سورة الكهف.

* * *

ونصيحتي لكل مسلم

لقد جعل الله تعالى للهداية أسبابًا، كما جعل للرزق أسبابًا .

ومن أسباب الهداية ؛ الاجتهاد في العمل بما نعلم ، ودعوة الناس إلى الحق كما قال سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

والدعوة إلى الله سبحانه هي سبيل النبي ﷺ ومن اتبعه إلى يوم الدين، كما قال الله سبحانه :

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨] .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية :

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس آمرًا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وسنته وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ويدعو إلى الله على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة وبرهان عقلي وشرعي. ا.هـ

* * * * *

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد المبعوث إلى الأحمر والأسود والمبشر به عندهم أجمعين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد فهذه جملة من البشارات عن نبينا محمد ﷺ توجد في كتب الهندوس، لم تخرج حتى الآن إلى عالم العرب فيما أعلم. بينما هي أقوى مما يوجد عند اليهود والنصارى، فاقترح بعض الإخوان جمعها وترتيبها حتى يمكن تقديمها إلى المسلمين وغير المسلمين فقمت بذلك. وبالله التوفيق.

نبذة عن الديانة الهندوسية:

يعترف المتخصصون في الديانات - وفيهم كبار الباحثين من الهندوس - بأن الديانة الهندوسية ديانة عسيرة الفهم جداً، يصعب - بل لا يمكن - التعريف بها وبيان حدودها بالضبط، فإنها لا توجد لها مبادئ ولا معتقدات يمكن أن يقال إن هذه الديانة تبتني عليها، ولا يعرف لها رسول ولا نبي معين، ولا هاد، ولا مرشد خاص يمكن أن ينسب إليه تأسيس هذه الديانة وبداية الدعوة إليها، كما لا يعرف لها مصدر ولا كتاب اتفق الهندوس على أنه الحجة والمرجع الأخير فيها. بل الحقيقة أن هذه الديانة مجموعة هائلة من الأوهام والمعتقدات المتناقضة، ومن الطرق العملية المتضاربة التي توارثها الهندوس واستقوها من منابع شتى في مجال تزكية الروح وتنميتها، ومحاولة الصعود بها إلى مدارج الكمال، حسب هؤلاء المعتقدين المتوهمين وأصحاب الطرق.

هذا جانب كونها فلسفة اجتماعية تضبط حياة الإنسان ضبطًا يبتني على الجور والحيف، وعلى استغلال مواهب وقدرات الضعفاء والمنبوذين ـ باسم الديانة ـ استغلالاً بشعًا قلما يوجد له نظير.

إذ تبتني هذه الديانة أو الفلسفة على تفرقة عنصرية شديدة، وتقسم الإنسان خلقًا على أربع طبقات، أعلاها برهمن ثم الكشتري أوراجفوت ثم ويش وآخرها شودر، وهم الأنجاس المناكيد، والمنبوذون الأرازل، لم يخلقوا إلا لخدمة من فوقهم من الطبقات.

وكان من الممكن معرفة أصل هذه الديانة وحقيقتها بإلقاء نظرة عابرة على تاريخ أهلها، إلا أن تاريخهم أيضًا لا يختلف عن ديانتهم في الجمع بين الغث والسمين، وفي التأرجح بين الحقائق والأساطير.

إلا أن هذه الديانة على رغم كل ذلك لا تزال أكثر الديانات انتشاراً في شبه القارة الهندية ولاسيما في الدولة الهندية. ولهم كتب يقرؤونها في الطقوس والمناسبات، ويعتقدون أنها منزلة من عند الله. وأهم هذه الكتب وأولها الويدات، وهي أربع: (١) رِك ويد (٢) يجرويد (٣) سام ويد (٤) أتهرو ويد، ومعنى الويد: العلم والمعرفة.

وهذه الكتب هي المصادر الأصلية القديمة، ولها شروح وإيضاحات، مثل رسائل البرهمن، وآرن يُك وأُبِنْشد ومَنُوْ سَمُرْتي.

وهم يعتمدون أيضًا على كتب أخرى ألفت في عهد الهندوسية الجديدة، وهي البورنات، وهي ثمانية عشر كتابًا، ثم يعتمدون على كتب ألفت حول رجال أو شخصيات أو حروب وأحداث، وهي تشتمل على كمية ضخمة من المواد الدينية مثل كتاب رامائن، ومها بهارت، وكيتا. وغير ذلك.

وتوجد في هذه الكتب ـ ولا سيما الأصلية منها ـ أنواع من البشارات عن نبينا ﷺ ربما بذكر أسمائه وألقابه، وربما بذكر صفاته وملابساته، وربما بذكر بعض

خصائصه وأحداثه، وربما بذكر آبائه وخلفائه وغير ذلك مما يفيد ويعين أن المراد به هو نبينا محمد ﷺ لا غيره، وقد جمع هذه البشارات وشرحها عدد من علماء الهندوس مع بقائهم على الديانة الهندوسية إلا أنهم مالوا إلى المسلمين ولانوا لهم أكثر من غيرهم.

وإفادة لعامة المسلمين وغيرهم جمعت هذه البشارات من كتبهم، وبينتها ورتبتها، وشرحتها في ضوء المصادر الإسلامية، عسى الله أن يوفق للإسلام من يريد الحق والصدق، ويجعلها وسيلة لذلك ويكتب لنا أجراً في الآخرة. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

البشارة بـ «نراشنس»

من الأساليب المتبعة في كتب الويدات ـ ولا سيما في رك ويد ـ أنها تختار فرداً من الأفراد المكرمين إما من الملائكة أوالجن أو الإنسان فتخاطبه أو تذكره، مرة بعد مرة، باسمه، وتحمده وتثني عليه بمحامده وأوصافه، وتبين بعض خصائصه وملابساته، وربما تدعوه لقضاء الحاجات وكشف الكربات والبليات، وهذا الذكر والخطاب قد يطول وقد يقصر، فإذا طال اشتمل على مجموعة من التراتيل أو الآيات وقد اصطلح الهندوس على تسمية هذه المجموعة بـ «سوكت» وتسمية التراتيل أو الآيات بـ «منتر» أو «رشا». وإذا قصر فإنه ينتهي في منتر أو منترين فقط، ثم ينتقل البيان إلى موضوع آخر.

وهذا الفرد الذي يثنى عليه في تلك المناتر يكون في معظم الأحوال حسب زعمهم إلهًا من آلهتهم المزعومة، من قبيل الملائكة أو الجن. وقليلاً ما تتناول هذا المديح من البشر لمثل، إلا أنه لا يخلو عنها تمامًا.

ومن سيق له المدح والثناء البالغ مع البيان كثير من خصائصه وميزاته شخصية فذة، سميت بـ «نراشنس»، وقد ورد ذكرها في كل من الويدات الأربعة. وفي كتب أخرى مقدسة عند الهندوس. وقد كتب عدد من علماء الهندوس وغيره بحوثًا حول هذه الشخصية الفذة، ودرسوها في ضوء ما ذكر لها من الخصائص والأوصاف، فوصلوا إلى أن المقصود بها هو نبينا محمد ﷺ، وليس غيره.

وفيما يلي نقدم ما ورد فيها مع الشرح والإيضاح والاستنتاج، مراعيًا في كل ذلك سبيل الإيجاز بقدر الإمكان.

كلمة «نراشنس»:

أول ما يعني به الباحث في هذه البشارات هو تسمية هذه الشخصية الفذة ـ بـ «نراشنس»، وهي كلمة سنسكرتية مكونة من لفظين: أولهما «نر» ومعناه الإنسان،

فكأنما أتى به للتنبيه على أن هذه الشخصية التى اختيرت للمدح والثناء هي من جنس البشر، وليست من جنس الملائكة أو الجن كعامة الشخصيات المثنى عليها في الويدات.

واللفظ الثاني من هذه الكلمة «أشنس» ومعناه اللغوي: من يحمد ويثنى عليه بكثرة، فهو مرادف لمحمد مرادفة، وليس بينهما أي فرق سواء أن أحمدهنا بالعربية والآجر بالسنسكرتية.

وقد ظهر بهذا أنه لو لم يكن حول هذه الشخصية أي تفصيل أو بيان في الويدات إلا هذا الاسم المبارك فقط، لكفى وشفى للدلالة على أن هذا بشارة برسالة محمد ﷺ؛ إذ لم يقم في التاريخ الإنساني أحد من الرسل والأنبياء سمي بهذا الاسم سواه ﷺ. ولكن الويدات وفرت لنا تفاصيل أخرى تقطع سبل النقاش والجدال، وتبت البشارة بتة لا مجال فيها لأدنى احتمال. وأكبر مجموعة لهذه التفاصيل هي ما ورد في أتهرو ويد في بابه العشرين، والفصل السابع والعشرين بعد المئة، بينما يوجد بعض البيانات في مناتر أخرى جاءت متفرقة في بقية الويدات والكتب المقدسة عند الهندوس، ونقدم هنا أولاً تلك المجموعة التي وردت في أتهرو ويد، ثم نأتي إلى المناتر المتفرقة حتى يكتمل الموضوع فأولاً صورة هذه المجموعة كما وردت في كتبهم:

इदं बना उप युत नराशंस स्मकवप्यते।
पार्टि सहस्रा नवर्ति च फौरम आ वशमुपु दहाहे ।।१।।

डष्ट्रा यस्य प्रवाहिरणो वधूमन्तो द्विर्दर्श।
वर्ष्मा रहस्य नि जिहीपत्ते दिय ईपनारण उपस्पृंशः ।।२।।

एय दपये गमहे शतं निष्काल दश सनः।
वीरिण शतान्यर्दतां सहस्रा दश गोनाम् ।।३।।

वच्यत्य रेभ वच्यत्व वृक्षे न पक्वे शकुनः।
ओष्टे जिह्वा चर्चरीति क्षुरो न भुरिजोरिव ।।४।

प्र रेभ्रासो मजीप्रा वृपा गाव इवेरते।
अयोत पुत्रका एपासमोत वा इवासवते ।।५।।

प्र रेभ धियं भरस्व गोविदं वसुविदम्।
देवत्रमां वाचं कृधीपु न वीरो अत्ता ।।६।।

रान्नो विश्रवजनीनत्य यो दवोमर्त्यां अति।
वेश्वानरस्य मुष्टुतिया रणोता परिक्षित: ।।७।।

परिक्षिन्नः क्षेनमकरत्तम आसनमाचरन्।
कुलायं कृरावनं कौरव्यः पतिर्वदति जायपा ।।८।।

कतरत त आ हरारिण दधि मन्यां परिस्रुतम्।
जाया पर्ति वि पृच्छति राष्ट्रे राज्ञः परिज्ञितः।।९।।
अमीव स्वाः प्रजिहीते यवः पक्वः परा त्रिलम्।
जनः स मद्रमेघते राष्ट्रे राज्ञः परिक्षितः ।।१०।।
इन्द्रः कारुमत्रू वृधदत्तिष्ठ विचरा जनम्।
ममेदुग्रस्य चर्कृधि सर्व इत ते परिरणदारिः।।११।।
इह गावः प्रजायघ्वमिहाश्रा इह पूरुवाः।
इहो सहस्रदक्षिरणेपी पूषा नि वीदति।।१२।।
मोमा इन्द्र गावोरिपल मो आसां गोपती रिषत।
मासाममित्रयुर्जन इन्द्र मा स्तेन ईषत।।१३।।
उप नरं नोनमसि सूक्तेन वचसा वयं भद्रेरण वचसा वयम्।
चनो दधिप्व नो गिरो न रिश्येम कदाचन।।१४।।

هذه صورة المناتر المشار إليها، وهي واردة في أتهرو ويد باب ٢٠، فصل ١٢٧، منتر أو ترتيلة رقم ١ إلى ١٤ وفيما يلي ترجمتها حسب الترتيب:

١ ـ اسمعوا أيها الناس باحترام. إن نراشنس يحمد ويثني عليه.

ونحن نعصم ذلك المهاجر ـ أو حامل لواء الأمن ـ بين ستين ألف عدو وتسعين عدواً.

٢ ـ يكون مركبه الإبل، وأزواجه اثنتى عشرة امرأة.

ويحصل له من علو المنزلة وسرعة المركب أنه يمس السماء ثم ينزل.

٣ ـ إنه أعطى للرسول «مامح» مئة دينار ذهبي وعشر قلائد. وثلاث مئة جواد. وعشرة آلالف بقرة.

٤ ـ بلغ يا أحمد، بلغ. كما تغرد الطيور على شجرة يانعة الثمار.

لسانك وشفتاك تتحرك مثل نصلي المقص.

٥ ـ الحمادون مع محامدهم ـ أو المصلون مع صلواتهم ـ يسرعون إلى الحرب مثل الثور القوي.

وأولادهم في بيوتهم آمنون، البقرات في مرابضها.

٦ ـ يا أحمد، خذ هذا الكلام الحكيم بقوة، فهو أساس البقر والأموال.

وأبلغه إلى المتقين، كما يرمي البطل السهم على الهدف.

٧ ـ هو سيد العالم، قدوس، أفضل البشر.

هدى للناس كافة، معروف لدى الأمم جميعًا، فتغنوا بأفضل الثناء عليه.

٨ ـ هذا المعروف قد بسط الأمن والسلام عندما أخذ الحكم بيده وهو يعمر البيت، وقد كان يذكر هذا كل زوج لزوجته في قومه.

٩ ـ أي شيء آتي لك به؟ الزبادي أو اللبن الخاثر أو العصير المنعش؟

هذا سؤال تسأله الزوجة زوجها بالتفصيل في حكم ذلك الرجل المعروف.

١٠ ـ شعير يانع يخرج من الحرة ويصل إلى السماء.

الإنسان يرتقي في التقوى والخير في حكم ذلك الرجل المعروف.

١١ ـ إن الله أيقظ أحمد: قم واذهب إلى الناس وهنا وهناك وكبرني. إنني أنا الغالب. أنا أعطيك جميع النعم.

١٢ ـ هنا أيها البقرات، هنا أيها الخيول، هنا أيها الناس، تنعموا وتطوروا.

فإن ثمال الفقراء والمتصدق بالآلاف جالس هنا.

١٣ ـ لا، يا رب، لا تهلك هذه البقرات، ولا يهلك راعيها، ولا يغلبهم العدو يا رب، ولا قاطع طريق.

١٤ ـ تنعتني في أدب، بمناقب بطل، بكلمات رائعة، وبكلام في غاية الحسن.

فاقبل قصيدتنا بالحب، ولا نهلك أو نتضرر أبداً.

الشرح والإيضاح لما جاء في هذه التراتيل:

بعد تقديم الصورة والترجمة تناول هذه التراتيل أو المناتر بالشرح والإيضاح ترتيلة بعد ترتيلة.

الترتيلة الأولى:

«اسمعوا أيها الناس باحترام، إن نراشنس يحمد ويثنى عليه، ونحن نعصم ذلك الهاجر ـ أو حامل لواء الأمن ـ بين ستين ألف عدو وتسعين عدواً».

وفي هذا الكلام عدة أمور تلفت نظر الدارس، وهي: أن الخطاب وقع باهتمام خاص، ومنبهًا على لزوم الاحترام، ومثل هذا الاهتام لا يوجد في أماكن أخرى، فهو دليل على عظمة هذه الشخصية، وعظمة ما ورد فيها من البشارة.

وأن هذه الشخصية تتمتع بحمد الناس وثنائهم عليه، وتمتاز على الآخرين بذلك. ولا يعرف في تاريخ البشر إنسان حمده الناس وأثنوا عليه

بمعشار ما أثنوا على محمد ﷺ وحمدوه. فهو الذي امتاز بهذه الخصوصية بين الأنبياء.

وقوله «يحمد ويثنى عليه» بصيغة المستقبل يفيد أن هذا المبشر به لم يكن قد بعث إلى زمن تأليف هذا الويد - أتهرووير - وقد اتفقوا على أنه آخر الويدات، ومتأخر جداً عن بقيتها الثلاثة، وقد جاء في أول الويدات وأقدمها تأليفاً ذكر بعض من كان في عهد إسكندر المقدوني أو بعده، وكذا ذكر فيه بعض الأحداث التي وقعت في زمن إسكندر أو بعده، فإذا كان أول الويدات وأقدمها، متأخراً إلى هذا الزمان فلا غرو أن يكون آخرها متأخراً عن زمن عيسى بن مريم عليه السلام فهذه قرينة تبين زمن بعثة هذا الرسول، وأنه لم يكن بعث إلى زمن الويد الرابع والأخير، فهو متأخر عنه قطعاً.

وفي السطر الثاني من المنتر وصف «نراشنس» بـ«كورم» وله معنيان معروفان، أحدهما: المهاجر، والثاني: الذي يبسط الأمن والسلام، وهو يحتمل معنى ثالثاً أيضاً. وهو السيد والرئيس، أي بمعنى القوم بالعربية، فكأن «قرم» و«كورم» لهجتان لكلمة واحدة. والله أعلم.

وأي معنى نختار فإن أولى وأحق من يصدق عليه هذا المعنى هو محمد ﷺ، فإنه هاجر من مكة إلى المدينة، وهو من أبرز الأحداث في تاريخ الأنبياء.

أما بسط الأمن والسلام فيمكن تصوره الخفيف بمقارنة ما كانت عليه جزيرة العرب قبل البعثة وما آلت إليه حين توفي ﷺ، أما قبل البعثة فقد كانت نار الحرب مشتعلة بين الأوس والخزرج بالمدينة من نحو قرن من الزمان، وما كادت تنتهي، كذلك اضطرمت حرب البسوس بين بكر وتغلب فبقيت قائمة أربعين سنة، وذهب ضحيتها سبعون ألف رجل من الفريقين، وشبت نار الحرب بين عبس وذبيان فتركت دخانها يرتفع في الجو، واعتدت يهود اليمن على نصارى نجران، فأحرقوهم

في الأخدود، وهم أحياء، وتحمست نصارى الحبشة للانتقام فاحتلت اليمن، وأذاقت أهلها النكال، وتجرأت حتى قصدت هدم الكعبة المشرفة، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، ولم تخرج الحبشة من اليمن حتى احتلتها الفرس، والحاصل أن جزيرة العرب كانت في اضطرابات وأحداث متتابعة، حتى لم تكن القبائل آمنة مطمئنة وهي في مناطقها، ولم يكن أفراد قبيلة منها يخرجون إلى منطقة قبيلة أخرى إلا في الأشهر الحرم، ثم هم لم يكونوا يصبرون عن الحروب والإغارات طويلاً حتى كانوا يعملون بالنسيء، فيقلبون الشهور، فيجعلون الشهر الحرام حلالاً، والحلال حراماً.

فلما ظهر النبي ﷺ عاملوه بمثل ما كانوا يتعاملون به فيما بينهم، ولكن النبي ﷺ عاملهم بطريقة أخرى، فلم يمض إلا نحو ثمانية أعوام حتى صار أولئك المتقاتلون إخوانًا متحابين فيما بينهم. يدافع كل واحد منهم عن الآخر ويفديه بنفسه، وأخذت الظعينة ترتحل من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وليس أحد ينظر إليها نظر الريبة والفساد، ولا تخاف على نفسها أحداً إلا الله.

والحاصل أن النبي ﷺ بسط الأمن والسلام في ربوع جزيرة العرب خلال فترة وجيزة، وبينما كانت على شفا حفرة من البوار لأجل التناحر والتقاتل فيما بينها. ولم يحصل ذلك من أحد من الأنبياء غيره.

وأما كونه سيداً مكرمًا، فإنه لم ير مثله في التاريخ، ولم يحصل لأحد من الطاعة والتكريم والتفادي، ما يداني ما حصل لمحمد ﷺ.

يخبر هذا المنتر في مصراعه الأخير أن الله يعصمه بين أعدائه الذين يبلغ عددهم ستين ألفًا وتسعين رجلاً، وقد قال بعض المحققين إن عدد سكان مكة ـ وهم أعداؤه ﷺ ـ كان قد بلغ نحو ستين ألفًا. ولكن هذا قول لم يقم عليه دليل من التاريخ. ولا يخلو عن شيء من المجازفة، حيث إن سكان مكة كان فيهم الرجال

والنساء، والشيوخ والأطفال. ولم يكن كل واحد منهم عدواً له ﷺ، فالذي أراه الصواب هنا هو أن يراد بالأعداء المقاتلون الذين حملوا السلاح، واستعدوا للقتال أو أسهموا في تدابيره.

وباستقراء عدد أعدائه ﷺ من هذا النوع الذين خرجوا أو استعدوا للغزو أو المعركة. يظهر أن عددهم من قريش ومن انضم إليهم، ومن بني غطفان ومن انضم إليهم، كان قد بلغ عشرة آلاف مقاتل. وعدد أعدائه من اليهود من قبائل شتى كان أيضًا عشرة آلاف مقاتل، وعدد أعدائه من النصارى - في غزوة تبوك - بلغ أربعين ألف مقاتل. فهؤلاء ستون ألفًا، وعدد أعدائه من المنافقين كان تسعين. ثمانون منها بقوا في المدينة أثناء غزوة تبوك، واثنا عشر أو ثلاثة عشر منهم خرجوا إلى تبوك مع النبي ﷺ، وهم الذين هموا بقتله في الطريق، فلم يمكنهم الله من ذلك، ثم وفق الله منهم اثنين أو ثلاثة للتوبة، وبقي منهم عشرة على نفاقهم. وبهذا التحقيق الدقيق يتم مجموع عدد أعدائه ﷺ ستين ألفا وتسعين رجلا بالضبط، والملاحظ أن الله تعالى حفظ محمداً ﷺ بين هذا العدد الهائل المحيط به من الأعداء. ولا يعرف في التاريخ نبي حصل له مثل هذا، إذن فهو المقصود والمبشر به في هذا المنتر.

ملاحظة:

وردت في السطر الثاني من المنتر كلمة «روشم». وهذه الكلمة لها معنيان فهي كما تطلق على العدو تطلق على سكان جزيرة العرب أيضًا. وتكون الترجمة على هذا المعنى الثاني: أن الله يحفظه بين من حوله من العرب، وهذا يدل على أمرين اثنين:

الأول: أن هذا الرسول المذكور يبعث في بلاد العرب.

الثاني: أن الناس يعادونه ويقاتلونه، ويحاولون القضاء عليه. ولكن الله يخيبهم ويحفظه منهم.

ومعلوم أن محمداً ﷺ هو الذي اختص بهذين الأمرين، ولم يوجد في أحد غيره من الأنبياء والرسل.

الترتيلة الثانية:

«يكون مركبه الإبل، وأزواجه اثنتى عشرة امرأة.

ويحصل له من علو المنزلة وسرعة المركب أنه يمس السماء ثم ينزل».

وهذه الترتيلة واضحة جداً في دلالتها على نبوة محمد ﷺ والبشارة به، إذ ما من وصف ذكر فيه. لنراشنس إلا وهو خاص بمحمد ﷺ. وبيان ذلك من وجوه:

الأول: أن مركب هذا المبشر به (نراشنس) يكون الإبل. وقد كان محمد ﷺ كذلك؛ إذ الإبل كانت هي مركبه الدائم المستمر، فكان ﷺ يركبها في الأسفار والغزوات، وفي كل المناسبات التي كان يحتاج فيها إلى الركوب. وقلما كان يركب مركبًا آخر من الحمار والفرس ونحوهما.

والثاني: أن ركوبه الإبل يفيد أن بعثته لاتتأخر إلى زمن السيارات والطائرات، وإنما يبعث في زمن تكون الإبل وأمثالها من الدواب هي المراكب العامة للناس، وهذا يعني أن زمن بعثة هذا الرسول قدمضى، ولا مجال لانتظاره في المستقبل.

الثالث: أنه يولد ويبعث في منطقة صحراوية وفي بلد صحراوي، لأن الإبل إنما تقتنى وتستخدم للركوب في مثل هذه المناطق، ومعلوم أن بلاد العرب كذلك.

الرابع: أن في ركوبه الإبل دلالة أيضًا على أنه لا يولد في الهند، ولا يكون من سلالة البراهمة أو الآريين كما يزعم الهندوس، ولايكون على الشريعة الهندوسية، لأن الشريعة الهندوسية تحرم على رسلهم لحوم الإبل وألبانها، وتحرم على البراهمة ركوبها، وأن البرهمن لو ركب الإبل أو الحمار برضاه ـ أي بدون إكراه

ـ فإنه يصير نجسًا، وما دام هذا الرسول لا يكون برهمناً فإنه لا يكون آريًا أيضًا. لأن الرسالة والنبوة في الآريين مقتصرة على البراهمة، حسب عقيدتهم.

وإذا تقرر أنه يكون من منطقة صحراوية ولا يكون من الآريين فإن هذا كالصريح في كونه من بلاد العرب. ويؤيده ما سبق في بيان معنى كلمة «روشم» في المنتر السابق.

الخامس: أنه لا يكون أعزب، بل يتزوج النساء، ولا يقتصر على زوجة واحدة، بل يبلغ عدد أزواجه إلى اثنتى عشرة امرأة، وهذا عين ما حصل لمحمد ﷺ. فقد وصل مجموع عدد أزواجه ﷺ إلى اثنتى عشرة زوجة، ولم يثبت ذلك لأحد من الأنبياء وغيرهم من الصالحين، وأسماء تلك الأزواج رضي الله عنهن كما يلي:

١ ـ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

٢ ـ أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها.

٣ ـ أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها.

٤ ـ أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

٥ ـ أم المؤمنين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

٦ ـ أم المؤمنين أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها.

٧ ـ أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

٨ ـ أم المؤمنين ريحانة بنت زيد رضي الله عنها. على اختلاف في كونها سرية.

٩ ـ أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.

١٠ ـ أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.

١١ ـ أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

١٢ ـ أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها.

ملاحظة:

اختلف الباحثون في ترجمة الفقرة الثانية من السطر الأول لهذه الترتيلة، والترجمة التي اخترناها ـ وهي أن أزواجه تكون اثنتى عشرة امرأة ـ هي التي ذكرها أحد كبار علماء اللغة السنسكرتية في شبه القارة الهندية، وهو ويد بركاش أبادهياي، «في كتابة» نراشنس أور أنتم رشي» ص ١٤، فهو لم يشر إلى احتمال أي معنى آخر سواه.

وذكر البعض الآخر أن ههنا اختلافًا في ضبط اللفظ الأخير من السطر الأول لهذه الترتيلة ففي غالب النسخ: (دوردش) والمعنى على هذه النسخة: تكون له اثنتا عشرة زوجة. وفي بعض النسخ: (دوردرش) بزيادة راء قبل الشين، والمعنى على هذه النسخة: تكون له أزواج، وتكون لركوبه ناقتان جميلتان. وهذا المعنى أيضًا يصدق على محمد ﷺ، ويختص به، فقد كانت له ناقتان جميلتان مخصصتان أو شبه مخصصتين لركوبه ﷺ. وهما: القصواء والعَضْباء، ورد ذكرهما في كثير من المناسبات، مثل الهجرة والحديبية والفتح والحج وغيرها.

وبعضهم جعل كلمة «دوردش» بمعنى العشر مرتين، يعني عشرين، فترجم السطر الأول من الترتيلة بترجمة أخرى، وهي: تكون له عشرون ناقة يركبها هو ويحمل عليها أزواجه. وهذه الترجمة أيضًا تتضمن إثبات أربعة أمور تختص بمحمد ﷺ، وهي:

١ ـ ركوبه الإبل.

٢ ـ امتلاكه عشرين ناقة. ومن العجيب أن أهل السير ذكروا أن النبي ﷺ كانت له عشرون ناقة يستقي لبنها، ويركبها عند الحاجة، ويحمل عليها أزواجه في الأسفار[١].

٣ ـ وأنه لا يكون أعزب، بل يكون له عدد من الأزواج.

٤ ـ وأن أزواجه أيضًا يركبن الإبل، وهذا أيضًا معروف لأزواج محمد ﷺ. إذ لم يخرجن في سفر من الأسفار إلا وهن راكبات الإبل.

وهذه خصائص لم توجد في غير محمد ﷺ.

الخامس: أن في السطر الثاني من الترتيلة إشارة واضحة إلى حادث الإسراء والمعراج فقد ركب فيه النبي ﷺ البراق الذي كان من سرعته أنه كان يضع قدمه عند منتهى طرفه، وأنه علا به إلى السماء، ثم نزل إلى الأرض، كما هو مذكور هنا. وهذا أيضًا لم يحصل إلا لمحمد ﷺ.

الترتيلة الثالثة

«إنه أعطى للرسول« مامح » مئة دينار ذهبي، وعشر قلائد.

وثلاث مئة جواد، وعشرة آلاف بقرة».

وهذه الترتيلة تشتمل على عدة أمور مهمة جدًّا تفيد تعيين شخصية المبشر به تعيينا مبتوتًا.

وتلك الأمور هي:

١ ـ التنصيص على أن المذكور في هذا الفصل باسم نراشنس يكون رسولاً.

٢ ـ ويكون اسمه «مامح». وهذا الاسم ورد في رك ويد. مندل ٥، سوكت ٢٧ منترا. وفيه احتمالان:

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/٤٩٤، ٤٩٥، والمعارف لابن قتيبة ٤٩ والتلقيح لابن الجوزي ص١٤.

الاحتمال الأول :

أن تكون لهجة سنسكرنية لكلمة « محمد » العربية، ولا غرابة في وجود مثل هذا الفرق بين لغتين أو لهجتين لكلمة واحدة، فالكلمة حين تنتقل من لغة فكثيراً مايقع مثل هذه الفروق، وقلما تسلم من بعض التصرفات، مثل يحيى بالعربية، صار يوحنا ويحنس بالعبرية، وكذلك إلياس ويونس بالعربية صارا إيلياه، ويوناه أو يونان بالعبرية .

الاحتمال الثاني :

أن تكون كلمة « مامح » كلمة سنسكرتية خالصة. ويكون المراد بها معناها اللغوي، ولا تكون لهجة سنسكرتية للفظ « محمد » العربي، وهذا اللفظ على هذا التقدير يكون مركبًا من مادتين، الأولى « ما »، ومعناها العظيم، والثانية « مح » ومعناها من يُحمَد ويثنى عليه كثيراً، فيكون معنى مجموع المادتين « محمد العظيم » . وهذا يعني أن هذا الاسم السنسكرتي يطابق اسم محمد العربي معنى ويماثله نطقًا ﷺ .

٣ ـ وأن الله يعطي هذا الرسول مئة نشك، ونشك هو الدينار، النقد الذهبي المضروب من الذهب الخالص الذي يلقى وينصع في النار، وهو إشارة إلى نوع خاص من صحابته المخلصين. وهم الذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن عذبوا في الله، وأدخلوا في نار الفتنة والبلاء، فثبتوا واستقاموا على الدين، ولم يتزحزحوا قيد شعرة. مع شدة البلاء الذي تتفطر له القلوب، وتقشعر بسماعه الجلود، وثبت بذلك إخلاصهم لله مثل الذهب الذي ألقي في النار، ونصع طيبه .

ملاحظة :

عدد المهاجرين إلى الحبشة يبلغ إلى واحد ومائة مهاجر. وارتد منهم عبيد الله ابن جحش وتنصر وهلك، فبقي العدد مستقيماً على المئة لا أقل ولا أكثر، فهؤلاء

هم مئة نشك أو دينار ذهبي خالص أعطوا لمحمد ﷺ . وقد قال الكتاب الهندوسي شت بت براهمن - وهو تفسير إلهامي لـ « يجر ويد » عند الهندوس « الذهب استعارة للقوة الروحانية في الإنسان »(١) .

٤ - وأن ذلك الرسول يعطى عشر قلائد .

والقلادة أفضل حلي وأنفسها في نظر صاحبها، وتكون أقرب إلى القلب وملاصقة للصدر، وإعطاؤها للرسول إشارة إلي إعطاء عشرة من الصحابه يمتازون بمثل هذه الصفات، وقد أعطي محمد ﷺ عشرة من الصحابة كانوا أفضل الناس وأحبهم إليه، وأعزهم وأكرمهم عليه وعلى ربه، وهم معروفون بالعشرة المبشرة الذين قال ﷺ فيهم :

١ - أبو بكر في الجنة .

٢ - وعمر في الجنة .

٣ - وعثمان في الجنة .

٤ - وعلي في الجنة .

٥ - وطلحة في الجنة .

٦ - والزبير في الجنة .

٧ - وعبد الرحمن بن عوف في الجنة .

٨ - وسعد بن مالك (وهو سعد بن أبي وقاص) في الجنة .

٩ - وسعيد بن زيد في الجنة .

١٠ - وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة(٢) .

---

(١) شت بت براهمن، كاند ١٢، برباتك ٩، برهمن ١ .

(٢) مسند أحمد ١ /١٨٨، الترمذي: مناقب عبد الرحمن بن عوف ح٣٧٤٧ (٥ /٦٤٧، ٦٤٨) وح٣٧٥٧ (٥ /٦٥١) وسنن أبي داود: السنة، باب في الخلفاء ٢ /٥٦٣ ورواه جمع من أصحاب الحديث .

ملاحظة:

القلادة ترجمة حرفية لكلمة «سراج» السنسكرتية الواردة في المنتر، وتطلق هذه الكلمة في هذه اللغة على السيد والرئيس أيضًا، ولا تخفى مطابقة هذا المعنى للعشرة المبشرين بالجنة، فإنهم كانوا سادات الصحابة وسادات هذه الأمة الإسلامية العظيمة، لااختلاف في ذلك ولاشك ولا نقاش ولا جدال.

٥ ـ وأن ذلك الرسول يعطى ثلاث مئة جواد.

وقد استعمل لتأدية معنى الجواد لفظ «أرون» وهو يطلق على الخيول السريعة التي لا يستخدمها الآريون، بل يستخدمها العرب وغير الآريين، فهذا يعني أن هذا المبشر به لا يكون من الهند، بل يكون من خارج الهند وبخاصة من العرب.

ثم إن لفظ «أرون» ـ الخيل ـ يطلق على الأبطال الشجعان على سبيل المجاز أو الاستعارة، كما هو حاله في اللغة العربية، فالمراد أنه يعطى ثلاث مئة من الأبطال الشجعان الذين امتازوا في القتال والدفاع عنه ﷺ.

وهؤلاء الشجعان هم أصحاب بدر، فإنهم امتازوا بالقتال والدفاع، وقد حصل لهم من الفضل في هذا المجال ما لا يصل إليه غيرهم، ويبدو فضلهم بما رواه البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين، ـ أو كلمة نحوها، وعند البيهقي: قال: خيارنا ـ قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة(١) وبما رواه البخاري أيضًا عن ابن عباس أنه قال: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر(٢).

وكان عدد من شهد غزوة بدر من المسلمين ثلاث مئة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً. وقد ألحقوا بالمشركين هزيمة نكراء، وانتصروا عليهم انتصاراً باهراً مع

(١) صحيح البخاري ح٣٩٩٢، مع الفتح ٧/٣٦٢.

(٢) صحيح البخاري ح٣٩٥٤ (الفتح ٧/٣٣٨) وح٤٥٩٥ (الفتح ٨/١٠٨).

أن المشركين كانوا زهاء ألف رجل معروفين بالشجاعة والنجدة والبأس، وقد استشهد في المعركة أربعة عشر رجلاً من الصحابة. وبقي ثلاث مئة يصاحبون رسول الله ﷺ وينصرونه في كل مشهد. وهذا هو العدد المنصوص عليه في هذه الترتيلة.

٦ - وأن ذلك الرسول يعطى عشرة آلاف بقرة.

والبقرة حيوان مقدس عند الهندوس، وتطلق على سبيل الاستعارة والتشبيه على الرجل الصالح الحر الكريم الذي لا يعرف الخب والخداع، وأمور الدناءة واللوم، وهذا الإطلاق لايزال معروفًا وعاماً عند الهنود جميعًا: عامتهم وخاصهم ومسلمهم وكافرهم.

فالمراد بعشرة آلاف بقرة هم الصحابة الذين رافقوا رسول الله ﷺ في غزوة فتح مكة. وفي التعبير عنهم بالبقرة تصوير صادق لما كانوا عليه من الصدق والصلاح، والقداسة والعفاف، والكرم والتقوى وتزكية النفس والروح، مع البعد عن كل كبير وصغير مما يعد الخداع واللؤم. والحق أن عين الإنسان لم تقع على جماعة أزكى مثلهم سوى الأنبياء والرسل. وقد ورد إطلاق البقرة عليهم وتشبيههم بها في بعض الأحاديث النبوية الشريفة، فقدروى البخاري في رؤيا رآها النبي ﷺ حول بعض ما وقع في غزوة أحد أنه قال: ورأيت فيها - أي في تلك الرؤيا - بقراً، والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد(١).

الترتيلة الرابعة:

«بلغ يا أحمد، بلغ، كما تغرد الطيور على شجرة يانعة الثمار.

لسانك وشفتاك تتحرك مثل نصلي المقص».

(١) صحيح البخاري ح٣٦٢٢، ٤٠٨١، ٧٠٣٥.

خوطب في هذا المنتر رجل سمي بـ «ريبهـ» وهو يدل على المعنى لوصفي، وترجمته الحرفية «أحمد». وحيث إن الخطاب موجه إلى شخص خاص، فإن هذا اللفظ اكتسب العلمية، وصار من أعلام الصفة. فهو عَلَم يدل على أن المسمى بهذا الاسم يكثر حمد الله سبحانه وتعالى، ومعلوم أن النبي ﷺ كان اسمه أحمد، وكان متصفا بمعناه، أي إنه كان يكثر حمد الله سبحانه وتعالى كثرة لم يبلغها أحد.

ثم إنه أمر أحمد هذا ـ المذكور في هذا المنتر ـ بالتبليغ أي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وتبليغ دينه إلى عباده، وشبه هذا العمل بتغريد الطيور على شجرة يانعة الثمار. ولا شك أن هذا تشبيه بليغ جامع لعدة جوانب:

فتلاوة القرآن هي الأساس في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [الجمعة: ٢] وقال ﴿**رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [الطلاق: ١١]. وقال عن المؤمنين: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ [الأنفال: ٢] وقال عن الكفار، وهو يذكر ما يواجهونه يوم القيامة من التوبيخ: ﴿**أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**﴾ [الجاثية: ٣١] والآيات في هذا المعنى كثيرة تبين أن الأصل والأساس في الدعوة إلى الله وإقامة حجته هي تلاوة القرآن وبيان معناه، وقد عقد مرارًا اجتماع عالمي للأديان في الهند واليابان وغيرهما من البلاد، وعرض كل صاحب ديانة شيئًا مما لديه من دينه، فلما جاءت نوبة المسلم لم يزد على أن تلا آيات من كتاب الله، مراعيًا قواعد التجويد وإيقاعات الفواصل، ولما سمع الحاضرون القرآن! لم يملكوا إلا أن فاضت أعينهم بدموع غزيرة دون أن يفهموه. ولا شك أن تشبيه تلاوة القرآن بتغريد الطيور من أروع التشبيه وأبلغه، فكل ما يعرف في

تغريد الطيور من الترنم واللذة والفرحة والسرور، والطمأنينة والهدوء، والأخذ بنفس السامع، وما إلى ذلك، فهو موجود في تلاوة القرآن.

وكون هذه الطيور على شجرة يا نعة الثمار إشارة إلى أن هذه الدعوة تقوم في وقت يكون الجو كامل التهيؤ والاستعداد لقبولها، والناس أحوج ما يكونون إليها، فيدخلون فيها أفواجًا، كما أن الثمار تقطف بمجموعها حين يتم ينعها.

والدعوة التي قام بها محمد رسول الله ﷺ كانت كذلك تمامًا، فإنها قامت في وقت كان الناس غارقين في بحر الظلمات، يعانون كل نوع من الضلال والخسف والجور، ينتظرون رجلاً ينقذهم مما هم فيه. فلما قام محمد ﷺ بالدعوة إلى الله لم يتريثوا إلا بقدر ما يوصلهم إلى اليقين بنبوته، فلما لاحت لهم معالم الحق والصدق عليها، دخلوا في دين الله أفواجًا.

وتشبيه دعوة الإسلام بشجرة يا نعة الثمار موجود في كلام الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

وقريب من هذا التشبيه يوجد في الإنجيل أيضًا، وسيأتي قريبًا.

وأما قوله في السطر الثاني من الترتيلة: «لسانك وشفتاك تتحرك مثل نصلي المقص» فإن نصلي المقص حين يتحركان يفصلان الثوب ويقطعانه، ففيه بيان أن الذي يتلوه أو يتكلم به هو كلام فصل. لا لبس فيه ولا غموض. وأن ما يقوله حق خالص، يقع كما يقول.

ولا شك أن القرآن ﴿قَوْلٌ فَصْلٌ﴾ وقع - وسيقع - كل ما جاء فيه،﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ - ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وكان النبي ﷺ أيضًا يتكلم بجوامع الكلم، وبكلام فصل، كأنه كلمات نظمن يتحدرن، ولا يقول شيئًا إلا جاء مثل فلق الصبح.

الترتيلة الخامسة:

«الحمادون مع محامدهم ـ أو المصلون مع صلواتهم ـ يسرعون إلى الحرب مثل الثور القوي.

وأولادهم في بيوتهم آمنون مثل البقرات في مرابضها».

وهذه الترتيلة تشتمل على عدة نقاط يحسن التنبية عليها. وهي:

١ ـ أن أصحاب هذا الرسول وأمته يعرفون بالحمادين والمصلين، وواضح جدًّا أن ذلك لا يكون إلا لالتزامهم بالحمد والصلاة، ولإكثارهم منهما، وامتيازهم بهما.

ومعلوم أن أمة محمد ﷺ هم الحمادون المسلمون بذلك، وسببه، كما ورد عن كعب الأحبار، أنهم يحمدون الله في كل سراء وضراء، وفي كل منزلة(١). وهم المصلون الملتزمون بالصلوات في المدن والقرى، والفلوات والبحار، والمكثرون منها والظاهرون بها في كل مكان.

٢ ـ وأنهم يلتزمون بالحمد والصلاة أثناء الحروب أيضًا، وهذه خاصية لم توجد في أي قوم آخر سوى أمة محمد ﷺ. فهي التي تكثر حمد الله وذكره ودعاءه والتضرع إليه. وتلتزم بالصلوات أثناء القتال والحروب ـ وهذه الصلاة تعرف بصلاة الخوف ـ وتتجافى جنوبهم عن المضاجع في الليل مهما أنهكتهم الحرب في النهار، فهم كما وصفهم أحد الرومان: رهبان الليل وفرسان النهار(٢).

٣ ـ وأنهم لا يكونون جبناء يخافون الخوض في الحروب، بل يكونون أبطال الوغى وشجعان المعارك، كلما يسمعون هيعة أو فزعة للحرب يطيرون إليها،

(١) سنن الدارمي: المقدمة ١/٥، ٦.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٣/٦٠٢.

ويقاتلون بالبسالة القصوى كما يقاتل الثور القوي. والثور عند الهندوس رمز لغاية القوة والشجاعة.

ومعلوم أن أصحاب محمد ﷺ كانوا أشجع الناس في تاريخ البشر. هاجمهم الشجعان المعروفون في الأمم بقوات تتضاعفهم أضعافًا مضاعفة. فلم يحصدوا إلا الفشل والخسران، وكان النصر حليف المؤمنين.

٤ ـ وعندما يخرج هؤلاء في الحروب يأمن أولادهم وذراريهم في البيوت كما تأمن البقرات في مرابضها.

وهذا عين ما حصل لمحمد ﷺ وأصحابه، فإنه ﷺ غزا العدو وخرج من المدينة أكثر من عشرين مرة، وبقيت المدينة خالية ليس فيها من يدافع عن الشيوخ والأطفال، والنساء والمعذورين، في حين كانت المدينة محاطة بالأعداء، وكان بإمكانهم، ومن الفرصة الذهبية لهم، أن يهاجموا المدينة أثناء غيابه ﷺ، لا سيما وقد كان لهم طابور خامس في داخل سكنها وبيوتها، وهم المنافقون، إلا أن أحداً من العدو لم يجترئ على ذلك، ولا لمرة واحدة، وبقي ذراري المسلمين وأولادهم آمنين مطمئنين لا يخشون أحدا إلا الله.

وفي حديث طويل لأبي سعيد الخدري قال: خرجنا مع النبي ﷺ قبل عسفان. فأقام بها ليالي، فقال الناس: والله ما نحن ههنا في شيء، وإن عيالنا لخلوف، وما نأمن عليهم. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: ما هذا الذي بلغني من حديثكم؟ ـ ثم ذكر حبه للمدينة وتحريمه إياها ودعاءه لها، ثم قال: ـ «ما من المدينة شعب ولا نقب إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا إليها» ثم قال للناس: ارتحلوا، فارتحلنا، فأقبلنا إلى المدينة، فوالذي يحلف به ما وضعنا رحالنا حين دخلنا المدينة حتى أغار علينا بنو عبد الله بن غطفان. وما يهيجهم قبل ذلك شيء[1].

(١) صحيح مسلم: الحج ح٤٧٥ (٢/١٠٠١، ١٠٠٢).

فهذا يفيد أن المدينة أثناء الغزوات كانت محروسة من قبل الملائكة، ولم يكن الأولاد والذراري يخافون أحداً إطلاقاً.

الترتيلة السادسة:

«يا أحمد، خذ هذا الكلام بقوة. فهو أساس البقر والأموال.

وأبلغه إلى المتقين، كما يرمي البطل السهم على الهدف».

الخطاب هنا وجه إلى «ربيهـ» وقدمنا أن معناه أحمد. وأما الكلام المحكي الذي أمره بأخذه بقوة فهو القرآن الكريم الذي يترنم به عند تلاوته كتغريد الطيور، وهو الكلام الفصل الذي يتحرك به اللسان والشفتان مثل المقص، وسمي هنا بالكلام الحكيم لأنه مليء بالحكمة، وأسلوب الخطاب والأمر الموجود في هذه الترتيلة هو الأسلوب الذي يخاطب به الرسل والأنبياء، قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ...﴾

وقوله «فهو أساس البقر والأموال» يحتمل معنيين: الأول؛ أن العمل بهذا الكلام سبب لتوفر الأموال والبركة فيها، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

والثاني أنه أساس الغلبة والحكم، - مع كونه أساس النجاح في الآخرة - وقد تكرر هذا المعنى في القرآن في شتى الأساليب، أي أنه أساس الغلبة والحكم وإرث الأرض، وشهد بصدق ذلك التاريخ الإسلامي الطويل. فكلما عمل به المسلمون نالوا الغلبة والحكم والعز والشرف في الدنيا، وكلما اتخذوه مهجوراً ذلوا وهانوا واستكانوا، وإنما عبر عن ذلك بكونه أساس البقر والأموال. لأنها إنما تجبى بعد الغلبة وقيام الحكم.

أما السطر الثاني من هذه الترتيلة فهو يبين أن هدف هذا الكلام الحكيم ومقصوده المتقون؛ كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فهم الذين يستفيدون بهذا

الكتاب وهذا الكلام الإلهي. وهو حينما يصل إليهم يداخل قلوبهم ويؤثر فيها كما يؤثر السهم في الرمية، وهو يتضمن أيضًا أن هذا الكلام سوف يجد آذانًا صاغية، وقلوباً واعية، ولا يذهب هملاً لاغية، فهذا السطر الأخير يطابق لما جاء في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفي قوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وفي قوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وفي قوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ وأمثال ذلك.

الترتيلة السابعة:

«هو سيد العالم، قدوس، أفضل البشر.

هُدًى للناس كافة، معروف لدى الأمم جميعًا، فتغنوا بأفضل الثناء عليه».

وهذه الترتيلة تتضمن عدداً من صفات محمد ﷺ:

فهو سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، ولم يبلغ أحد في السؤدد والسيادة ما بلغ هو في هذه الدنيا، وأما يوم القيامة فإنه يكون حامل لواء الحمد، ويكون آدم ومن بعده من الأنبياء تحت لوائه.

وأما قداسته وأفضليته فإنه كان على أعلى قمة من سمو الروح، ونقاء القلب، وطهارة النفس، وقوة العزيمة، ونظافة الأخلاق، وكرم الشمائل، وجمال الشيم، وغير ذلك من كل ما يتعلق بتقوى الله ومكارم الأخلاق وفضائل النفوس، فلم يبلغ شأنه أحد. وما سبق له نظير، ولم يلتحق به مثيل. فلا شك أنه كان قدوسًا وأفضل البشر.

وكونه هدى للناس كافة يعني بعثته إلى الناس جميعًا، وقد كان الأنبياء والرسل يبعثون إلى قومهم خاصة، ومحمد ﷺ هو الرسول الوحيد الذي أرسل إلى الناس عامة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [٣٤.٢٨]

وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وغير ذلك من الآيات والأحاديث والدلائل.

وكونه معروفًا لدى جميع الأمم يحتمل معنيين:

الأول: أن توجد عنه البشارات لدى جميع أمم المرسلين. فيكون بذلك معروفًا لديهم ينتظرون مجيئه وبعثته، وقد حصل هذا لمحمد ﷺ، فقد وجدت عنه البشارات عند كل أمة تنتسب إلى دين من الأديان، وتدعى بوجود كتاب أو تعليمات جاءبها رسول من عند الله، حسب عقيدتهم، فكان بذلك معروفًا لديهم، فلما جاءهم فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، والذي كفر به ولم يدخل في دينه ﷺ فهو لا يزال ينتظر مجيء ذلك الرسول الموعود، ومعظم هؤلاء الكفار يعرفونه ثم ينكرون. وإذا سألهم أحد من عامتهم يتجاهلون. يؤثرون بذلك الحياة الدنيا، ويا ليتهم عرفوا أن الآخرة خير وأبقى.

وأما المعنى الثاني: فهو أن دعوة ذلك الرسول المبشر به هنا تبلغ جميع الأمم. ويدخل في دينه الناس من كل أمة. ومحمد ﷺ معروف لدى جميع الأمم بهذا المعنى أيضًا. فلم يبق بيت مدر ولا وبر إلا دخل فيه الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل. كما ورد في الحديث(١).

وقوله: «فتغنوا بأفضل الثناء عليه» صيغة أمر يشمل نوعًا من الخبر، وهو أن الناس يثنون عليه بأفضل الثناء، وقد تم هذا أيضًا لمحمد ﷺ، فقد أثنى عليه رجال من كل أمة، بأفضل ثناء لم يثنوا بمثله على أحد حتى ولا على رسلهم وأنبيائهم، فضلاً عن الآخرين ولعل ذلك يكون متضمنا معنى الصلاة عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

الترتيلة الثامنة:

«هذا المعروف قد بسط الأمن عندما أخذ الحكم بيده، وهو يعمر البيت، وقد كان يذكر هذا كل زوج لزوجته في قومه».

(١) مسند أحمد ٤/١٠٣، ٦/٤ مستدرك الحاكم ٤/٤٣٠، ٤٣١.

السطر الثاني هذا يحتمل ترجمة أخرى، وهي: «وقد كان قومه يبني البيت، يذكر هذا كل زوج لزوجته».

وعلى هذه الترجمة الثانية فيه إشارة واضحة إلى ما حدث عند بناء بيت الله من اختلاف رؤساء القبائل في وضع الحجر الأسود في مكانه، وما حكم به محمد ﷺ في تلك القضية، وما أتى به من الحل الحصيف عندما تحاكموا إليه، فإنه وضع الحجر الأسود في رداء، وأمر الرؤساء بأخذ أطرافه، حتى إذا رفعوه إلى مكانه أخذه ووضعه في موضعه، فنال الجميع بذلك شرف رفعه ورضوا به. وكان لقضائه الحكيم هذا أثر بالغ في النفوس، وداخلهم بذلك سرور عظيم، حيث نالوا الشرف المطلوب، ونجوا من الحرب الزبون التي كادت تأكل الأخضر واليابس، فكان حديث حكمه هذا، وحكمته هذه، موضوع حديث كل بيت وكل زوج وزوجته.

أما على الترجمة الأولى فيمكن أن يراد بعمارة البيت، ويأخذ الحكم أثناءها نفس قضية الحجر الأسود المذكورة، ويمكن أن يراد بالعمارة العمارة المعنوية، وهي تطهيره وتنظيفه من الأصنام والصور. ومن كل ما هو من قبيل الذنوب والآثام، وإعداده وتهيئته لعبادة الله وحده، وقد وقع هذا عند فتح مكة، فإنه ﷺ بعد ما تمكن من الدخول في مكة، وأخذ حكمها بيده، قام بتطهير البيت من كل ما يتعلق بالشرك وأدناس الجاهلية، وفي نفس الوقت أعلن عن العفو العام لأهل مكة، ولم ينتقم منهم على ما سبق، بل قال لهم: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا وأنتم الطلقاء». فبسط بذلك الأمن والسلام. وأدخل الفرحة والسرور العظيم في كل بيت منهم، فكان من الطبيعي أن لا يبقى أهل بيت من قومه إلا وهم يذكرون هذه المنة الجسيمة، والكرم العظيم، وأن يصير ذلك هو موضوع حديث كل بيت وكل زرج وزوجته. ومهما كان فالحادث المشار إليه في هذه الترتيلة ينطبق تماماً على محمد ﷺ. ولا ينطبق إلا عليه.

الترتيلة التاسعة:

«أي شيء آتي لك به؟ الزبادي أو اللبن الخاثر أو العصير المنعش؟

هذا سؤال تسأله الزوجة زوجها بالتفصيل في حكم ذلك الرجل المعروف».

وهذا يدل على كثرة الأموال، وتوفر أسباب الحياة لعامة الناس في حكم ذلك الرسول المذكور باسم نراشنس، ولا يحصل هذا إلا ببسط الأمن وإقامة العدل. وقد تم الأمران - وتبعهما وفرة المال وكثرة أسباب الحياة - في عهد محمد ﷺ، وعهد خلفائه الراشدين، بحيث لم يكن يرجى أدنى شيء منه نظراً إلى ما كان عليه وضع بلاد العرب قبل الإسلام، فإن الناس كانوا يعانون الضيق الشديد في العيش، حتى كانوا يقتلون أولادهم لأجل الفقر والإملاق، وكانوا في اقتتال دائم وتناحر مستمر، فانقلب - في حكم محمد ﷺ - الخوف أمنًا، والضيق فرجًا، والظلم عدلاً لم يقم له نظير في التاريخ.

الترتيلة العاشرة:

«شعير يانع يخرج من الحفرة ويصل إلى السماء.

الإنسان يرتقي في التقوى والخير في حكم ذلك الرجل المعروف».

خروج الشعير من الحفرة ووصوله إلى السماء يطابق تمامًا للمثل الذي ذكر في الإنجيل لملكوت الله، وذكر في القرآن لمحمد ﷺ ومن معه من الصحابة.

أما الإنجيل فيحكي عن المسيح عليه السلام أنه قال: «هكذا ملكوت الله. كأن إنسانًا يلقي البذار على الأرض وينام، ويقوم ليلاً ونهاراً، والبذار يطلع وينمو، وهو لا يعلم كيف؟ لأن الأرض من ذاتها تأتي بثمر، أولاً نباتاً، ثم سنبلاً، ثم قمحًا ملآن في السنبل، وأما متى أدرك الثمر فللوقت يرسل المنجل، لأن الحصاد قد حضر».

وقال: «بماذا نشبه ملكوت الله، أو بأي شيء نمثله؟ مثل حبة خردل متى زرعت في الأرض فهي أصغر جميع البزور التي على الأرض. ولكن متى زرعت تطلع وتصير أكبر جميع البقول. وتصنع أغصاناً كبيرة حتى تستطيع طيور السماء أن تتأوى تحت ظلها».

هذا ما ورد في الإنجيل من التشبيه المماثل لتشبيه الترتيلة المذكورة، وأما القرآن الكريم فقد قال في سورة الفتح مشيراً إلى هذا التشبيه ومصححًا لما وقع فيه من الخطأ؛ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد جاء هذا المعنى أيضًا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]

ويستفاد مما سبق أن ما ورد في السطر الأول من الترتيلة هو تشبيه لدعوة محمد ﷺ، وبيان لكيفية ظهورها من مكة ـ سرة الأرض ـ وانتشارها في بلاد العالم.

وأما ما جاء في السطر الثاني من الترتيلة فهو أيضًا عين ما حصل في عهد محمد ﷺ وجماعته، فقد نشأت جماعة الصحابة على الخير والتقوى وارتقت حتى وصلت إلى مكان لم يبلغه غيرهم، ولم تشاهد في التاريخ جماعة تماثلهم أو تقربهم في ذلك، فضلا عن التفوق أو التساوي.

ملاحظة:

تتضمن التراتيل الثلاث الأخيرة أن هذا الرسول الموعود المبشر به باسم «نراشنس» يكون حاكمًا لبلده، وهو يباشر الحكم بنفسه، وهذه خصيصة امتاز

بها محمد ﷺ . ولم توجد في أحد غيره من الأنبياء إلا لبعض أنبياء بني إسرائيل الذين لا يمكن صرف البشارة إليهم، وهم غير مطابقين لها بالاتفاق .

الترتيلة الحادية عشرة :

« أن الله أيقظ أحمد ؛ قم واذهب إلى الناس هنا وهناك .

وكبرني، إنني أنا الغالب، أنا أعطيك جميع النعم » .

وفي هذه الترتيلة عدة نقاط :

الشخص الذي خوطب من الله سبحانه وتعالى مذكور باسم « كاروم » ومعناه لغة : من يكثر الحمد والثناء على ربه سبحانه وتعالى . فهو بمعنى أحمد، ومرادف له . فإذن هذا المخاطب هو محمد ﷺ ، فإنه لم يسم باسم أحمد أو محمد من الأنبياء إلا هو .

الخطاب والأحوال المذكورة في هذه الترتيلة مطابقة تمامًا لما حصل لمحمد ﷺ ، فإنه ﷺ كان راجعًا من حراء بعد إتمام جواره فنودي فنظر فرأى جبريل عليه السلام جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، وهو ﷺ في بطن الوادي، في طريقه إلى بيته، فلما رآه ملئ منه رعبًا، فلما وصل إلى بيته قال لخديجة : زملوني، دثروني، فزملوه واضطجع فنزل عليه الوحي : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ الآيات فهذا إيقاظ له وأمر له بالقيام والذهاب هنا وهناك، لتبليغ دين الله والدعوة إليه .

وهنا مطابقة عجيبة بين ما حصل لمحمد ﷺ وأوحي إليه في هذا الوقت . وبين ما ذكر في هذه الترتيلة من الويد . وفيما يلي مقارنة بسيطة بينهما :

ما جاء في الويد	ما جاء في القرآن
«إن الله أيقظ أحمد»	﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (وهذا خطاب للنائم ليستيقظ)
«قم واذهب إلى الناس هنا وهناك»	﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (والإنذار إنما يتم بالذهاب إلى الناس هنا وهناك)
«وكبرني» (فاهجر ما يعبد من دوني»	﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾
«أنا أعطيك جميع النعم». (أي فلا تطلب من قومك جزاء إحسانك)	﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ومثله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾
«إنني أنا الغالب» (أي ففارق قومك: ولا تخفهم، اصبر في سبيلي).	﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

ويظهر بهذه المقارنة أن البيانين متفقان تماماً في المعاني والمطالب مع اتفاقهما في كثير من الألفاظ، ولم يحصل إعطاء النبوة والرسالة وإنزال الوحي في مثل هذه الظروف لأحد، ولا نزل الوحي بمثل هذه الكلمات على أحد سوى محمد ﷺ.

الترتيلة الثانية عشرة:

«هنا أيها البقرات، هنا أيها الخيول، هنا أيها الناس، تنعموا وتطوروا. فإن ثمال الفقراء والمتصدق بالآلاف جالس هنا».

هذه الترتيلة تدل على حصول التنعم وسرعة التطور في كل الجهات بفضل دعوة هذا المبشر به، وهذا عين ما حصل لمحمد ﷺ. فالتطور والتقدم الذي كان يتم قبله ﷺ خلال قرون بدأ يتم في أيام حكم الإسلام في مدة سنوات. وكان هذا التطور والتقدم في كل مجال: في العلوم والفنون، وفي الحرف والصناعات، وفي الزروع والأنهار، وفي الوسائل والأسباب، وفي الآلات والحيوان، لا تجد جانبا من الجوانب إلا وقد تطور تطوراً لا يقاس، وفي عهده (ﷺ) وعهد خلفائه الراشدين تنعم الإنسان والحيوان بفضل ما وجد فيه من الأمن والعدل والرخاء.

وقد تناول السطر الأخير وصفين مما امتاز به النبي ﷺ من الصفات، وهي كونه ثمال الفقراء والمتصدق بالآلاف. وما أشهر ما قاله أبو طالب فيه:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى، عصمة للأرامل!

ملاحظة:

يمكن أن يراد بالبقرات والخيول معناهما المجازي، بمثل ما تقدم، فالبقرات هم أصحاب الصلاح والتقوى، والخيول هم الشجعان المقاتلون، ويكون المراد بالناس عامتهم بما فيهم المسلم والكافر. وقد تمتع الجميع في أيام محمد ﷺ من الأمن والعدل والرخاء.

الترتيلة الثالثة عشرة:

«لا يا رب، لا تهلك هذه البقرات، ولا يهلك راعيها. ولا يغلبهم العدو - يا رب - ولا قاطع طريق».

هذا دعاء، وفيه نوع من الإشعار بأن الله يحفظ المسلمين حتى لا يتمكن العدو من إهلاكهم وإهلاك رسولهم، ولا يتمكن الشيطان من قطع الطريق عليهم، فالعدو هو المشرك، وقاطع الطريق هو الشيطان.

وقد دعا محمد ﷺ أيضاً بمثل هذا الدعاء فقال: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»، و«اللهم لاتسلط علينا من لا يرحمنا». فتقبل الله دعاءه حتى لم يتضرر المسلمون ولا رسولهم. ولم يهلكوا مع كثرة محاولات العدو بل كفى الله المؤمنين القتال. فأنجز وعده. ونصر عبده. وهزم الأحزاب وحده.

الترتيلة الرابعة عشرة:

«نتغنى في أدب بمناقب بطل، بكلمات رائعة، وبكلام في غاية الحسن. فاقبل قصيدتنا بالحب، ولا نهلك أو نتضرر أبداً».

وهذا حسن الختام لما جاء حول الرسول المبشر به من البيان في هذا الموضوع من أتهرو ويد وفيه إشارة لمن يؤمن بالويد أن يؤمن بهذا الرسول الموعود إذا جاء ويتأدب معه، ويلتزم بمدحه والصلاة عليه، حتى لا يتضرر أو يهلك، وأنه إن اختار موقفًا غير هذا فإنه يخسر ويهلك. وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

هذه أربعة عشر منترًا أو ترتيلة وردت في مكان واحد: في الباب العشرين من أتهرو ويد، وليعرف أن كل باب يتضمن عددًا من مجموعات المناتر أو التراتيل. وأن كل مجموعة منها تعتبر بمنزلة الفصل، وتسمى بـ «سوكت»، والفصل الذي يشتمل على المنناتر السالفة يسمى بـ «كنتاب سوكت» وهو فصل يهتم به الهندوس اهتمامًا كبيرًا جدًّا، فمن المقرر عندهم في مناسبات الطقوس والعبادات والأضاحي أن يجتمع سبعة عشر رجلاً من نساكهم، ويقرأوا هذه المناتر، ويرددوها لفترات طويلة. وهذا يدل على أنهم مأمورون بحفظ هذه المناتر وضبطها في ذاكرتهم، حتى لا يغفلوا عما جاء فيها.

وكلمة «كنتاب» معناها: الغدد الداخلية التي تكون في البطن، فتسمية هذه المجوعة بهذا الاسم تعتبر إشارة إلى أن هذه المجموعة تشتمل على أسرار خفية ومهمة مثل غدد البطون. أو أنها تشتمل على أمور وأسرار تحدث وتظهر في منطقة تعتبر بمنزلة البطن من جسد الإنسان. ومعلوم أن مكة المكرمة هي سرة الأرض، فهي موضع ظهور ما جاء من الأسرار في هذه المناتر، والسر الإلهى الذي ظهر من هذا المكان هو طلوع شمس نبوة محمد ﷺ المذكور في هذا الفصل باسمه: «نراشنس» (محمد) وباسمه: «ربيهـ» و«كاروم» (أحمد) وبصفاته وخصائصه ومتعلقاته التي لا تصدق لا مفردة ولا مجموعة إلا على محمد ﷺ.

ولكلمة «كنتاب» معنى آخر، وهو المطهر والمزكي من الذنوب. والمنحي من الآلام. وهذه أيضًا من الصفات التي امتاز بها محمد ﷺ. فإنه كان يطهرهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فكان في كل ذلك تزكية الناس وتطهيرهم من الذنوب، وكان يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فكان هو ﷺ منجيًا ومنقذاً لهم من الآلام، فمحمد ﷺ هو المراد والمبشر به في هذا الفصل وفي هذه البشارة.

هذا ما جاء في أتهرو ويد من التراتيل أو المناتر المجموعة في مكان واحد في البشارة عن «نراشنس» - وقد ورد بعض التراتيل أو المناتر في أماكن متفرقة من بقية الويدات. وفيما يلي نقدم الأهم منها:

يقول رك ويد - وهو أول الويدات الأربعة وأقدامها - في ١ /١٣/ ٣:

والمعنى:

«أيها الحبيب نراشنس. حلو اللسان، وصاحب القرابين، إني أتوسل بقرابينك».

وهذا المنتر من أهم المناتر عند الهندوس، وهم يقرؤونه أثناء العبادة، وقد وصف فيه نراشنس بوصفين خاصين؛ أحدهما «بريه» ومعناه: محبوب أو محبب بين الناس، أي الذي يحبه العامة والخاصة، والثاني: «مدهوجهوا»، ومعناه: حلو المنطق، وعذب الكلام.

وقد كان محمد ﷺ متصفا بالوصفين بأكمل ما يمكن، فهو أحب الناس إلى القلوب في تاريخ البشر، فلم يوجد أحد في التاريخ أحبه قومه مثل ما أحب الصحابة والمسلمون بخاصة والناس عامة، محمداً ﷺ. يقول عروة بن مسعود ممثل

المشركين في الحديبية: والله لقد وفدت على الملوك: على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه؛ تعظيماً .....(١).

بل كان الصحابة يحبونه إلى حد أن تقطع أعناقهم ولا يخدش له ﷺ ظفر. ولا يزال المسلمون كذلك، لايستطيعون أن يسمعوا فيه مكروهاً، ولا يحتملون ذلك مهما غلا الثمن، وليس ذلك إلا حبًّا وتعظيمًا له. ومن آثار حبه أن العلماء كتبوا في أحواله وسيرته من الكتب والمقالات ما لا يعلم عدده إلا الله سبحانه وتعالى.

أما الصفة الثانية فإن محمداً ﷺ معروف بحلو منطقه وعذوبة كلامه، وصفه بذلك كل من تطرق إلى هذا الوصف، وصفته أم معبد الخزاعية فقالت: حلو المنطق، فصل، لا نزر ولاهذر، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن(٢) وكان قد أوتي جوامع الكلم، ونصاعة البيان، وفصل الخطاب. يرتاع له السامع، ويصغي له القريب والبعيد، وكان إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير.

هذا عدا ما جاء به من عند الله. وهو القرآن الكريم الذي لم يوجد ـ ولن يوجد ـ كلام أحلى ولا أعذب منه، بل ولا مثله أبداً.

ورد في رك ويد ١/١٠٦/٤:

'नराशंसं वाजिनं वाजयन्निह क्षयद्वीरं पूषणं सुम्नैरीमहे।
रथं न दुर्गाद् वसवः सुदानवो विश्वस्मान्नो अंहसो
निष्पिपर्तन।।' -ऋग्वेद १/१०६/४

(١) صحيح البخاري ٢٧٣١، ٢٧٣٢ (فتح الباري ٥/٣٨٩).
(٢) المستدرك للحاكم ٣/٩.

والمعنى:

«نحمد ونثني على «نراشنس» العظيم، والهادي الكبير، اخرج واظهر يا صاحب الكرم حتى تطهرنا من الذنوب، وتعبر بعربتنا في الطريق الوعرة».

وصف نراشنس في هذا المنتر بأنه يزكي الناس ويطهرهم من الذنوب، وهذه صفة امتاز بها محمد ﷺ. وقد خصها إبراهيم عليه السلام بالذكر لما دعا الله أن يبعث في آل إسماعيل رسولاً منهم، حيث قال: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [البقرة: ١٢٩] وقد نوه الله بذكر هذه الصفة لمحمد ﷺ، وامتن بها على المؤمنين، فقال: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾** [الجمعة: ١٢] وقال: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾** [آل عمران: ١٦٤].

وقد أتى محمد ﷺ في باب تزكية النفوس وتطهيرها من الذنوب جملة وتفصيلاً بما لم يأت بمثله أحد غيره، حتى إن كان المذنب ليأتي إليه يقدم نفسه ليطهر من الذنوب، وكان يعرف أن معنى تطهيره هو قتله رجماً، ولكن مع ذلك كان يصر على تطهيره حتى كان يجود بنفسه.

‘नराशंसः प्रतिधामान्यञ्जन् तिस्रो दिवः प्रति मह्ना स्वर्चिः।
-ऋग्वेद संहि २/३/२।।

وقد وصف نراشنس في هذا المنتر بكلمة «سورتي» وهي كلمة مكونة من لفظين: أحدهما؛ «سو» ومعناه الحسن والجمال. الثاني: «أرتي» ومعناه: الجميل الذي يشع من وجهه النور.

ومعلوم أن محمداً ﷺ كان أحسن الناس وجهًا، يعلو وجهه النور والبهاء، وإذا تكلم رئي كالنور يخرج من بين ثنيتيه.

وأما ملؤه البيوت بنوره فإن محمداً ﷺ جاء بالقرآن، وهو النور المبين الذي أنزله الله عليه، وقد ملأ به البيوت، فقد وصل هذا الكتاب وما في هذا الكتاب من نور الحق والعدل إلى كل بيت، واستفاد به المسلم والكافر، وانتهى ليل الظلم والخسف والجور المظلم الذي كان محيطًا بالعالم.

ولا يستبعد أن يكون المراد بملئه البيوت بنوره عموم مدحه والثناء عليه. وقد حصل لمحمد ﷺ هذا الشرف أيضًا حصولاً لا مزيد عليه.

ورد في رك ويد ٥/٥/٢:

'नराशंस सुपूदतीमं यज्ञमदाम्य:।
कविर्हि मधुहस्त्य:।।' -ऋग्वेद संहिता ५/५/२।

وصف نراشنس في هذا المنتر بأنه يكون «كويا» وهي كلمة سنسكرتية مكونة من لفظين: أحدهما «ك» -بالفتح- وهو يطلق على الله سبحانه وتعالى، والثاني: «وي» وهو يدل على الارتباط الخاص، فمعنى «كوي» من حيث الاشتقاق هو من يكون بينه وبين الله سبحانه وتعالى ارتباط خاص.

وبتعبير آخر هو من يكون من خواص ربه سبحانه وتعالى، ومن المقربين إليه.

وأما من حيث اللغة والإطلاق الويدي فإنه يطلق على كل من:

١ -عرف ربه سبحانه وتعالى حق المعرفة.

٢ ـ وأطلعه الله على أمور من الغيب فأخبر بها الناس.

٣ ـ وآتاه الله علماً فاق به الجميع حتى الملائكة، فكأنه ملك العالم الروحاني.

فوصف «نراشنس» بكلمة كوي» يعنى أنه يكون جامعًا لهذه الصفات. وقد كان محمد ﷺ:

* أعرف الناس بالله وأتقاهم له.

* وأطلعه الله على أمور من الغيب فأخبر بها الناس وهي كثيرة جداً، ومعروفة.

* وأما علمه ﷺ فلا يوازيه علم أحد، فقد كان أعرف الناس بالله وحقوقه من العبادات ونحوها، وبتهذيب النفوس وتزكيتها، وبالأخلاق والآداب والسلوك، وبالحلال والحرام، وبتنظيم الأسرة والمجتمع، وبأمور المعاش، وبسياسة البلاد، وبالسلم والحرب، وبالعدالة الفردية والاجتماعية، وبخلق هذا الكون، وبالملائكة والجن والشياطين، وبما كان وما يكون، وبالموت وما بعد الموت، وبالقيامة والحشر والنشر والجنة والنار وغير ذلك.

وفي ختام الكلام على بشارة «نراشنس» نرى من الأحسن أن نعيد مرة أخرى خلاصة ما تقدم من الخصائص والصفات والظروف والملابسات لهذه الشخصية الفذة، وتلك الخصائص كما يلي:

١ ـ تسميته بـ «نراشنس». ومعناه: محمد.

٢ ـ خطابه بـ «ريبهـ» ومعناه: أحمد.

٣ ـ مخاطبته أيضًا بـ «كاروم» ومعناه: أحمد.

٤ ـ وهو يكون حلو اللسان وعذب المنطق يتكلم بكلامٍ فصل، لا لبس فيه ولا غموض.

٥ ـ ويكون أجمل الناس وجهاً.

٦ ـ ويكون هادياً كبيراً، ورسولاً مقدساً، أفضل البشر، سيد العالم، يبعث إلى الناس كافة وتعرفه جميع الأمم.

٧ ـ وهو يطهر الناس ويزكيهم من الذنوب.

٨ ـ ويطلعه الله على أمور من الغيب فيخبر بها الناس.

٩ ـ وهو يُحمَد ويثنى عليه بكثرة.

١٠ـ ويكون مهاجراً.

١١ ـ ويحمل لواء الأمن ويبسط السلام.

١٢ ـ ويعصمه الله بين ستين ألف عدو وتسعين عدواً.

١٣ ـ وتكون مركبه الإبل. (وقد مضى زمان ركوب الإبل).

١٤ ـ وتكون له اثنتا عشرة زوجة. (وهذا هو عدد أزواج محمد ﷺ).

١٥ ـ ومركبه يكون من السرعة بحيث يصل إلى السماء ثم ينزل. (وقد وقع هذا في الإسراء والمعراج.).

١٦ ـ ويعطيه الله مئة دينار من الذهب الخالص. (وهو عدد مهاجري الحبشة).

١٧ ـ ويعطيه عشر قلائد. (وهم العشرة المبشرون بالجنة).

١٨ ـ ويعطيه أيضاً ثلاث مئة جواد. (وهم أصحاب بدر.)

١٩ ـ وكذلك يعطيه عشرة آلاف بقرة. (وهو عدد الصحابة الذين شهدوا فتح مكة).

٢٠ ـ وهو يقوم بالغزوة وقتال الملحدين الظالمين الفاجرين.

٢١ ـ وأصحابه حمّادون، ومصلون يلتزمون بالحمد والصلاة حتى أثناء الحروب.

٢٢ ـ ويقاتلون بشجاعة بالغة.

٢٣ ـ وذراريهم وأولادهم يكونون في غاية الأمن والاطمئنان في بيوتهم أثناء الحروب.

٢٤ ـ وهو يعطي كلامًا حكيمًا يكون هدى للمتقين. ويقع منهم موضع القبول مثل وقوع السهم من الهدف، ويكون التمسك به سببًا للحصول على الملك وجباية الأموال، وتشبه تلاوته بتغريد الطيور على شجرة يانعة الثمار. (وكل هذه الصفات صفات القرآن الكريم على أصدق ما يمكن).

٢٥ ـ تظهر له حكمة بالغة عند بناء بيت الله، تفضي إلي بسط الأمن وفرحة الناس. (وفيه إشارة إلى حكمه في قصه الحجر الأسود).

٢٦ ـ يبسط أمنا يسر الجميع عندما يأخذ الحكم ويعمر بيت الله بتطهيره عن الأصنام، وبدء عبادة الله فيه. (وفيه إشارة إلى ما وقع عند فتح مكة).

٢٧ ـ يحصل الأمن والرخاء في العيش أيام حكمه وحكم أصحابه.

٢٨ ـ ويتقدم الإنسان أيام حكمه في سبيل الخير والتقوى.

٢٩ ـ يشبه أمره بزرع يبدأ من بذر، ثم ينمو حتى يصير شجرة باسقة تعلو في السماء.

٣٠ ـ بيان عجيب لما حصل عند بداية رسالته ﷺ بنزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

٣١ ـ وهو يكون ثمال اليتامى، عصمة للأرامل. يتصدق بالآلاف، ويتنعم أيام حكمه الإنسان والحيوان.

٣٢ ـ وفي الأخير دعاء له ولأمته بالسلامة من الأعداء وقطاع الطرق، وإهداء بمديح في غاية الحب والأدب.

ولا نحتاج إلى بيان أن هذه الخصائص والميزات. والظروف والأوضاع التي اختص بها محمد ﷺ ولم يتصف بها أحد غيره في تاريخ البشر. فهو ﷺ هو المقصود والمراد بهذه الأخبار والبشارات بلا ريب.

* * *

البشارة بـ «كلكي أوتار»

هذه بشارة عظيمة متواترة عند الهندوس، وبيانها يحتاج إلى شرح بعض معتقدات الهندوس، فأقول: إن الهندوس يعتقدون أن هذه الدنيا مرتبة على أربعة عهود، أو أربع دورات زمنية، كل دورة منها تمتد إلى آلاف السنين، وأن كل دورة لاحقة أقصر من سابقتها بقدر ربع الدورة الأولى. وتلك الدورات الأربع هي:

١ ـ ست يك أو ستيه جك: (   )

«ست» بفتح فسكون تاء، وربما تشدد مع اشمام التاء، ويك أو جك بضم الأول وسكون الكاف الفارسي (والكاف الفارسي يوافق تمامًا للهجة القاف عند الحجازيين ولهجة الجيم عند المصريين).

وست بمعنى الحق، ويك أو جك معناه الدنيا أو العالم، فمعنى مجموع الكلمتين: عالم الحق، وهو عالم أو عهد من الزمان لم يكن فيه غم ولا هم ولا حزن حسب عقيدة الهندوس.

٢ ـ ترت يك، أو تريتا جك: (   )

بكسر فسكون فتاء أو بإضافة ياء قبل التاء وألف بعد التاء.

وقد بدأ العهد حسب عقيدة الهندوس حين دب إلى الناس داء الحرص والشح والانحطاط الخلقي.

٣ ـ دوابر يك، أو دوابر جك: (   )

بضم الدال وتخفيف الواو وفتح الباء الفارسي وسكون الراء.

وقد بدأ هذا العهد حين قوى الشر وازداد.

٤ ـ كل يك، أو كل جك: (   )

كل بفتح فسكون، معناه السواد والظلام، سمي هذا العهد بذلك لانتشار الضلال، وغلبة الشر والفساد فيه، بحيث كأنه قد غشي العالم الإنساني وتركه مظلمًا مسودًّا، لا نور فيه ولا ضياء.

والهندوس يقولون: إن الدورات الزمنية الثلاث الأولى قد مضت، وإننا اليوم نعيش في الدورة الرابعة والأخيرة، وهي كل يك، وأن هذه الدورة سوف تنتهي بقيام الساعة، فيفنى العالم ويفنى كل شيء.

أما بداية «كل يك» فإنهم يعتبرونها ويحسبونها من طوفان نوح عليه السلام، وكلهم اختلفوا عن الآخرين في عدد السنوات والشهور، لأنهم جعلوا مقدار السنة ٣٦٥ يومًا و٦ ساعات، و١٢ ثانية، ونصف ثانية ونصف نصفها، ثم جزء من هذا النصف الأخير، وبذلك زادوا على مقدار السنة الشمسية الحقيقية نحو ٢٤ دقيقة، ثم جعلوا السنة الأولى من هذا التقويم سنة الصفر، فجاءت النتيجة بالفرق الواضح في عدد السنوات والشهور بين هذا التقويم وبين تقويمات أخرى لطوفان نوح عليه السلام، وإلا فإن تقويم «كل يك» موافق لتقويم طوفان نوح في عدد الأيام حسب رأي المحققين.

ثم إن كتب الهندوس تصرح بأن الله تعالى أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين في كل من هذه الدورات الزمنية الأربع، وأنهم جاؤوا في هذه الدنيا فأدوا دورهم في هداية العباد وإصلاح الفساد، ثم انتقلوا إلى مقامهم عند ربهم، وقد صرح بعض كتبهم بأن عدد كبار الرسل وأعاظم المرسلين أربعة وعشرون رسولاً، بعث منهم ثلاثة وعشرون، ولم يبق إلا الواحد والأخير.

والبشارة بهذا الرسول الأخير ـ خاتم الأنبياء والمرسلين ـ أمر متواتر عند الهندوس، وهم لا يزالون ينتظرونه ويرقبون مجيئه، ويسمونه بـ «كلكي أوتار» وذلك لأمرين اثنين:

الأول: أنه آخر نبي وأعظم رسول يبعث في هذا العهد: عهد «كل يك» فنسب إلى العهد الزمني الذي يبعث فيه، وإنما خص بهذه النسبة مع أن عدداً من الرسل سواه أيضًا قد بعثوا في هذا العهد، لأنه أعظمهم وخاتمهم، ويمتاز عليهم بعظمته وعموم بعثته وكونه خاتم النبيين.

الثاني: أن معني «كلكي» من يغسل السواد ويزيله، و«كلكي أوتار» يبعث حين يسود الجو لغلبة الضلال والظلام ولعموم الفساد والانحلال، فيخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، فهو يغسل السواد ويزيله من المجتمع البشري ويزكيه ويطهره تطهيراً.

والبشارات حول «كلكي أوتار» كثيرة ومتواترة، وقد تناولت من خصائصه وميزاته وأوصافه والظروف المحيطة به ما لا يترك أدنى مجال للشك في معرفته إذا جاء فلندرس تلك البشارات، وبالله التوفيق.

اسم كلكي أوتار:

ورد في كتاب بهوشيه بوران يرتي: «أن الرسول الذي يولد في «كل يك» اسمه «سرو أنما».

ومعنى «أنما» الذي يحمد ويثني عليه، ومعنى «سرو» أكثر من غيره أو أكثر من الجميع. فمعنى «سرو أنما» الذي يحمد ويثني عليه أكثر من غيره أو أكثر من الجميع. وهو نفس معنى محمد، فهما كلمتان مرادفتان، إحداهما بالسنسكرتية والأخرى بالعربية.

اسم والده ووالدته:

ورد في كتاب كلكي بوران، أدهياي ٢، شلوك ١١:

'सुमत्यां विष्णुयशसा गर्भमाधत्त वैष्णवम्।
-कल्कि पुराण, अध्याय २, श्लोक ११

المعنى:

* إن كلكي أوتار يولد من «سومتي» لرجل اسمه «ويشنو ويش».

ومعنى سومتي: آمنة، وأما ويشنو ويش فهو مجموع كلمتين، فوشنو معناه: الله. و«ويش» معناه: عبد، فمعنى مجموع الكلمتين: عبد الله.

وقد ورد بيان اسم والده - وأنه ويشنو ويش - أيضًا في كتاب «كلكي بوران» أدهياي ٢، شلوك ٤، وبهاكوت بوران ١٢ / ٢ / ١٨.

أسرته ومكان ولادته:

ورد في بهاكوت بوران ١٢ / ٢ / ١٨:

'शम्भलग्राममुख्यस्य ब्राह्मरणस्य महात्मन:।
भवने विष्णुरणयशस: कल्कि: प्रादुर्भविष्यति।।'

كما ورد في كلكي بوران أدهياي ٢، شلوك ٤:

'शम्भले विष्णुयशसो गृहे प्रादुर्भवाम्यहम्।
-कल्कि0 अध्याय २, श्लोक ४

والمعنى:

* إن كلكي أوتار يولد في «شنبل غرام» لـ«ويشنو ويش» في بيت سيدهم ورئيسهم الديني.

و«شنبل» معناه: الأمين، أو الآمن، و«غرام» معناه: البلد والقرية. فـ«شنبل غرام» معناه: البلد الأمين أو البلد الآمن، ومعلوم أن مكة المكرمة هي البلد الأمين. وأن الأمن صفة لازمة لها شرعًا وعرفًا وقدرًا، أما العرف فقد جرى - حتى في زمن الجاهلية - بالامتناع عن القتال فيها، حتى إن الرجل ربما كان يجد ويقدر على قاتل

أبيه في حدود حرم مكة فلم يكن يهيجه، بل لم يكن يقول له: أف. ثم جاء الإسلام فحرم القتال فيها أشد التحريم، فصار ذلك شرعًا، وأما قدراً فلأنه لم يقصد هذا البلد الأمين جبار بسوء إلا قصمه الله. ولا تجد في العالم كله قرية أو مدينة أو منطقة حصل لها من الأمن معشار ما حصل لمكة المكرمة. حتى لم يعرف باسم البلد الأمين إلا مكة.

وكانت سيادة أهل مكة ورئاستهم الدينية إلى هاشم بن عبد مناف، ثم انتقلت بعد وفاته إلى أخيه المطلب ثم إلى عبد المطلب بن هاشم ثم لم تزل في أولاده حتى جاء الإسلام.

وقد اتضح بهذا أن الخصائص الثلاث المذكورة في الترتيلتين السابقتين اجتمعت في محمد ﷺ وانطبقت عليه تمام الانطباق، (بينما لم يحصل شيء منها لأحد غيره) فقد ولد ﷺ في شنبل غرام (البلد الأمين) مكة المكرمة، وولد لـ « ويشنوويش» أي عبد الله. وولد في بيت سيدهم ورئيسهم الديني، وهو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وكان هو السيد والرئيس الديني لأهل مكة حين ولادته ﷺ. وكان عبد المطلب هو وليه وكفيله ﷺ من أول يومه حيث ولد يتيماً.

تاريخ ولادته:

ورد في كلكي بوران أدهياي ٢، شلوك ١٥:

द्वादश्यां शुक्लपक्षस्य माधवे माधवे मासि माधवम्।
जातो ददृशतु: पुत्र पितरौ हृष्टमानसौ।।'
-कल्कि पुराण, द्वितीय अधयाय १५वां श्लोक।

المعنى:

* أن كلكي أوتار يولد في اليوم الثاني عشر في شهر «بيساك».

وشهر بيساك أحد الشهور المعروفة المستعملة عند الهندوس حتى الآن، ولا يزال يسمى بهذا الاسم في جميع تقويماتهم الهندية.

وكان مولد محمد ﷺ حسب التقويم الهندوسي في اليوم الثاني عشر من شهر بيساك، سنة ٦٢٨ بكرمية. وقد وافق ذلك يوم الاثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول عام الفيل، وكان ذلك أقدس يوم عند الهندوس حسب تقويمهم وعقيدتهم.

زمانه:

سيأتي أن «كلكي أوتار» يركب الفرس والبعير، ويحمل معه السيف، يكبت به أعداء الدين، وهذا يعني أنه يولد ويبعث في زمن يستخدم فيه الفرس والبعير للركوب، والسيف للقتال، وقد مضى هذا العهد قبل قرون طويلة، فالزمن الذي نحن فيه هو زمن السيارات والطائرات، وزمن القذائف والصواريخ. فلا مجال لانتظاره في هذا الزمان، أو في الأزمنة القادمة. وإنما يبحث عنه في ضوء خصائصه وميزاته في الزمان الغابر.

ومعلوم أن محمداً ﷺ بعث في مثل ذلك الزمان: زمن ركوب الفرس والبعير والقتال بالسيف، ولم يمض عليه قرن أو نحو قرن حتى تطورت الظروف، وظهرت البندقية وعجلات الركوب وغير ذلك.

وفاة أبيه وأمه:

ورد في كلكي بوران، وبهاكوت بوران، سكند ١٢: أن والد كلكي أوتار يموت قبل ولادته، وأما أمه فهي أيضاً تموت في زمن قريب من مولده.

وهذا عين ما حدث لأبوي محمد ﷺ، فإن والده عبد الله توفي قبل أن يولد محمد ﷺ. وأما والدته فقد توفيت بعد مولده بست سنوات فقط.

زواجه وزوجته:

ورد في نفس الكتابين المذكورين أن كلكي أوتار يتزوج سيدة سالمل ديب، ويتولى زواجه أحد أعمامه وثلاثة من إخوانه.

أما سالمل ديب فهو يطلق عند قدامى الهندوس على جزيرة العرب وأرض كنعان. وحيث إن أرض كنعان لم يوجد فيها من يصدق عليه شيء مما تقدم ومما يأتي من أوصاف كلكي أوتار فلم يبق إلا جزيرة العرب، وكانت قريش هم سادات أهل الجزيرة، وخديجة سيدة نسائهم، فإذن هي سيدة جزيرة العرب، وقد تزوجها محمد ﷺ.

وقد تولى هذا الزواج عمه أبو طالب، وقام بتنظيم شئونه ثلاثة من أبنائه: جعفر وطالب وعقيل، وهم إخوانه ﷺ من جهة العم. وإطلاق كلمة الأخ على ابن العم شائع في عرف الهند حتى إلى هذا الزمان.

ذهابه إلى غار في جبل وتلقيه العلم من ملك:

ورد في كلكي بوران أن كلكي أوتار يذهب إلى غار في جبل، ويتلقى هناك العلم من برشو رام.

ومعلوم أن محمداً ﷺ كان يذهب إلى جبل «حراء» ويجاور ويتعبد في غار في هذا الجبل، وبينما هو كذلك إذ جاءه جبريل عليه السلام بوحي الله سبحانه وتعالى، وقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ الآيات، فكان كهذا هو تلقيه للعلم لأول مرة، ثم استمر هذا التلقي إلى آخر حياته.

أما «برشو رام» فهو اسم ملك من الملائكة عند الهندوس، ومن أعماله أنه يأتي بالعذاب على أعداء الدين من الكفار والملحدين، فلا نحتاج إلى بيان أنه هو جبريل عليه السلام بعينه في لسان اليهود والنصارى والمسلمين، ومن أسماء جبريل عليه السلام روح القدس، وهو معنى برشو رام أيضاً.

دعوته، وإيذاء المشركين إياه، وهجرته ثم عودته وفتحه لبلده:

ثم يقول كلكي بوران: إنه يبدأ الدعوة إلى دين الله في قريته «شنبل غرام» (البلد الأمين) الواقعة في سالمل ديب (جزيرة العرب) فيعاديه أهل هذه القرية ويؤذونه حتى يهاجر إلى مدينة أخرى واقعة في جهة الشمال تحيط بها الجبال، ثم يعود بعد مدة إلى قريته، ومعه السيف فيفتحها، ويفتح البلاد كلها.

ومطابقة هذه البشارة لحياة نبينا محمد ﷺ واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار، فإنه بدأ الدعوة إلى دينه في قريته «مكة المكرمة»، وهي «شنبل غرام» أي البلد الأمين، وتقع في جزيرة العرب وهي سالمل ديب. فلما بدأ الدعوة عاداه أهل بلده مكة المكرمة، حتى اضطر إلى الهجرة، فهاجر منها إلى المدينة المنورة، وهي في جهة الشمال من مكة المكرمة، على بعد أكثر من أربع مئة كيلومترٍ. وهي مدينة تحيط بها الجبال والحرات من جميع جوانبها، وفي السنة الثامنة من الهجرة عاد النبي ﷺ إلى مكة المكرمة ومعه السيف والجند، ففتح مكة وأقام فيها حكم الله، وكان فتح مكة مفتاحًا لفتح بلاد العرب كلها.

البراق والمعراج:

ورد في بهاكوت بوران ١٢/٢/١٩، ٢٠ (وسوف نقدم صورتها) وفي غيرهما أيضًا:

«أن كلكي أوتار يعطى فرسًا طياراً أسرع من البرق، فيركبه ويسير به في الأرض والسموات السبع».

وهذا بيان واضح لقصة الإسراء والمعرج، وهو أيضًا مما أعطي محمد ﷺ واختص به، فقد أعطاه الله البراق ليلة الإسراء والمعراج، وهو بين الفرس والحمار، وكان أسرع من البرق، يضع قدمه عند منتهى طرفه، فركبه النبي ﷺ وأسري به عليه من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى السموات السبع.

وركوب كلكي أوتار على البراق أمر محكم عند الهندوس، يقول مؤلف كتاب جكت كرو سرور عالم إن في البيوت المنحوتة في جبال «ألور» قريبًا من أورنغ آباد عدة بيوت مخصصة لآلهة الهندوس الأنثى حسب زعمهم، ويرجع تاريخها إلى ما قبل ألفي سنة، ومن هذه البيوت بيت برقم ١٦، ويسمى بـ«رنغ محل» فيه تماثيل كبار الرسل، وأمام كل منهم صورة مركبه، وكلكي أوتار هو الرسول العاشر، وليس له تمثال، وقد نحت له مركبان في السقف ينطبق عليها وصف البراق تمامًا. (من كتاب ويدك دهرم أور نبي أكرم ﷺ، أي الديانة الويدية والنبي ﷺ، تاليف: سلام الله صديقي من بنارس/ الهند).

حمله السيف، وقتاله ضد الشياطين والملحدين وكبته أعداء الدين:

جاء في نفس المصدر والموضع السابقين: أن كلكي أوتار يقاتل أعداء الدين بالسيف، ويكبتهم ويكبت عشرات الملايين من الأشرار والخبثاء المتسترين بزي الملوك والحكام.

وقد حصل هذا كله للنبي ﷺ، فقد قاتل أعداء الدين بالسيف، وهزمهم في المعارك، وغلبهم في الحروب، وكبت منهم الأشرار والكفار الملحدين. وأرغم الرؤوساء والسادات والحكام والملوك بمن تحت أيديهم على قبول الحق والخضوع لحكم الرب، ولم يحصل هذا لغيره. ومعاركه وحروبه وغزواته ﷺ معروفة لا تحتاج إلى البيان:

نصرته بالملائكة في الحروب:

ورد في كلكي بوران أدهياي ٢، شلوك ٧:

यात यूयं भुवं देवा: स्वांशावतरणे रत:।

–कल्कि पुराण, अध्याय २, श्लोक ७।

أي «إن كلكي أوتار ينصر بالملائكة في الحروب».

وهذا أيضًا وقع لمحمد ﷺ، فقد نصره الله بالملائكة في غزوة بدر، ثم في غزوة أحد، فقد قاتل عنه ﷺ يومئذ جبريل وميكائيل أشد القتال، والكفار مطوقون به، ثم جاءت جنود الملائكة في غزوة الأحزاب، حتى هزموا الكفار، ثم جاء جبريل إلى النبي ﷺ، وهو في بيته، فأمره بالخروج إلى بني قريظة، وتقدمه إليهم في موكب من الملائكة، ونزلت الملائكة أفواجًا في غزوة حنين.

تأييده بأربعة خلفاء:

ورد في كلكي بوران أدهياي ٢، شلوك ٥:

'चतुर्भिभ्रातृभिर्देव करिष्यामि कलिक्षयम्।

-कल्कि पुराण, अध्याय २, श्लोक

يعني «أن كلكي أوتار يكبت الشياطين بأربعة مساعدين أو مؤيدين».

وقد أعطي محمد ﷺ أربعة خلفاء كانوا وزراءه ومساعديه في كل ما قام به من أمور الدين من الدعوة والجهاد وغير ذلك، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، فلما انتقل النبي ﷺ إلى الله سبحانه وتعالى قاموا بأمره وخلفوه واحداً بعد واحد، فقضوا على الشياطين، وكبتوا أعداء الدين، ورفعوا لواء الإسلام والمسلمين، وبلغوا الإسلام إلى أقصى الأرضين. فأبو بكر رضي الله عنه قضى على المرتدين في داخل الجزيرة العربية، ثم واجه الفرس والرومان، ومهد طريق الإسلام إلى بلادهما، ثم خلفه عمر رضي الله عنه فقضى على الفرس في العراق والعجم، وقضى على الرومان في مصر والشام، ثم خلفه عثمان رضي الله عنه، فنسج على منواله، حتى تغلغل في أفريقية غربًا، وفي خراسان وما وراء النهر شرقًا، ثم خلفه علي بن أبي طالب، والفتن على أوجها، فقام لها قيامًا لا ضعف فيه، حتى

ظهرت فتن العقائد بجنب الفتن السياسية فصمد لها حتى قضى على المارقين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وبهذه الجهود المتواصلة من هؤلاء الخلفاء الأربعة تم كبت عشرات الملايين من الشياطين والمردة من أعداء الدين المتمثلين في الملوك والوزراء والنواب والأمراء، والحكام والأركان، والخدم والحواشي، والجنود والقوات، والعساكر والأذناب، والطبول والأبواق، وغير ذلك ممن كانوا مسيطرين على المجتمع البشري، وسائقين له إلى أي جهة شاءوا، فلما زالت هذه العقبات دخل السعداء من عامة الناس وخاصتهم في دين الله أفواجًا، وشهدت الدنيا من الخير والبركة والسعادة والنور، والعبادة والعدالة والقيام بالحق، والأمن والسلامة والطمأنينة والرخاء ما لم يسبق له نظير في التاريخ، وما لم يجد أحد في نفسه همة اللحوق به من غير المسلمين.

سيادته للعالم:

ورد في بهاكوت بوران ١٢/٢/١٩، (الآتي قريبًا) في وصف كلكي أوتار» لفظ جكت بتي» ومعناه «سيد العالم». وهذا الوصف يستلزم أيضًا أن يكون مبعوثًا إلي العالم كله، وإلى الناس كافة.

ومحمد ﷺ هو سيد العالم كله، فقد بعث إلى الناس كافة، وإلى الشعوب كلها، ودعا إلى دينه الأحمر والأسود، وآمن به الناس من جميع العالم بدون أي استثناء، وبفضل دينه ودعوته ومجتمعه الذي أنشأه عرف الناس من حقوق البشر وكرامته وحريته ما لم يكونوا يعرفونه من قبل، وخرجوا بفضله مما كانوا فيه من الظلم والحيف والجور، والشقاوة والفساد، وتمتعوا بتلك الحرية والكرامة والحقوق، واتخذوها أموراً أساسية تدور عليها رحى المعيشة والحياة، فالناس كلهم مدينون له، والعالم كله مرتهن بفضله وإحسانه، وكلهم يمشون في طريق أناره هو، اعترفوا بذلك أم أبوا. وإنما يخالفونه فيما يثقل عليهم من أمور الدين أما ما ينفعهم من

حقوق الدنيا فإنما تعلموه مما جاء به محمد ﷺ . فإذن محمد ﷺ هو سيد العالم كله في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، فقد أخبر أنه سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر.

ختم النبوة والرسالة عليه:

ورد في بها كوت بوران، برتهم اسكند، أدهياي ٣، شلوك ٢ :

«أن عدد كبار الرسل أربعة وعشرون، وأن كلكي أوتار هو آخرهم وخاتمهم».

ومعلوم أنه لم يرسل رسول ولا نبي ادعى ختم النبوة والرسالة على نفسه إلا محمد ﷺ ، ولم يأت بعده أحد ادعى لنفسه النبوة أو الرسالة إلا وقد ثبت أنه دجال كذاب.

حسنه وبهاؤه:

ورد في صفات كلكي أوتار - في بهاكوت بوران ١٢ / ٢ / ٢٠، الآتي قريبًا - أنه يكون جميلاً باهر الجمال، لا مثال له، وقد كان محمد ﷺ كذلك. فإنه كان أحسن الناس وجهًا، وأجملهم منظرًا، وأضوؤهم محيًّا. وهو مفصل في الأحاديث، وانظر طرفًا منه في كتابنا الرحيق المختوم، وفي كتابنا روضة الأنوار.

طيب رائحته:

ورد في بهاكوت بوران ١٢ / ٢ / ٢١ :

‘अथ तेषां भविष्यन्ति मनांसि विशंदानि वे।
वासुदेङ्गवारागातिपुण्यगन्धानिलस्पृशाम्।’
-भागवतपुराण, द्वादश स्कन्ध, द्वितीय अध्याय, २१ वां श्लोक।

أي «يفوح من جسد كلكي أوتار أطيب ريح يعطر الهواء وينشئ الفرحة في النفوس».

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن جسد محمد ﷺ وعرقه كانا يفوحان طيبًا. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما مسست حريرًا ولاديباجًا ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحًا قط، أو عرقًا قط - وفي رواية -: ما شممت عنبرًا قط ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح أو عرق رسول الله ﷺ(١).

وقال أبو جحيفة رضي الله عنه: أخذت بيده (ﷺ) فوضعتها على وجهي فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك(٢).

وقال جابر بن سمرة رضي الله عنه، - وكان صبيًّا -: مسح (ﷺ) خدي فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جونة عطار(٣).

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: كأن عرقه اللؤلؤ. وقالت أم سليم رضي الله عنها: هو - أي عرقه ﷺ - من أطيب الطيب(٤).

وقال جابر رضي الله عنه: لم يسلك - أي النبي ﷺ - طريقًا فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه، من طِيبِ عَرْفِه، أو قال: من ريح عَرَقِه(٥).

جمعه لصفات الخير:

ورد في بهاكوت بوران ١٢/٢/٢٠، ١٩ (وقد تكررت الإشارة إليهما) عن كلكي أوتار ما يلي:

'अश्वमाशुगमरुह्य देवदत्त जगत्पति।
असिनासघुदमनमुष्टेश्वगुरणमन्दित।'
'विचरन्नाशुना क्षोण्यां हयेना प्रतिवद्युति:।
नृपलिंङ्गच्छदों दस्यून्कोटिशो निहनिष्यति।।'
-भागवतपुराण 12-2-19-20

(١) صحيح البخاري ح٥٣٦١ (فتح ٦/٦٥٤) مسلم: السفضائل ح٨١ (٤/١٨١٤).
(٢) صحيح البخاري ح٣٥٥٣ (فتح ٦/٦٥٣).
(٣) صحيح مسلم: الفضائل ح٨٠ (٤/١٨١٤).
(٤) مسند الدارمي ١/٣٢.
(٥) مسند الدارمي ١/٣٢.

والمعنى :

« أن سيد العالم المتصف بالصفات الربانية الثمان يركب فرسًا يطير سرعة، يعطيه له الملائكة . وهو يكبت الملحدين الظالمين بالسيف .

وإن صاحب الجمال الباهر يركب ذلك الفرس السريع ويطوف في الأرض، ويكبت أو يهلك عشرات الملايين من الشياطين المتسترين في زي الحكام .

وهاتان الترتيلتان تفيدان أن كلكي أوتار يتصف بما يلي من الخصائص والصفات، وهي أنه :

* يكون سيد العالم .
* ويحمل السيف، وهذا يعني أنه يغزو ويقاتل .
* ويكبت أعداء الدين من مردة الحكام والشياطين .
* ويعطى له نوع خاص من الفرس .

(وقد تقدم الكلام حول كل من هذه الخصائص الأربع قريبًا) .

ويتصف بثمان صفات ربانية مقدسة، وقد ورد في كتاب « مها بهارت » بيان هذه الصفات وهي :

‘अष्टौ गुरण: पुरुषं दीपयन्ति
प्रज्ञा च कौल्यं च दम: श्रुतुंच।
पराक्रमाश्चबहूभाषिता च’
दानं यथाशक्ति कृतज्ञता च’।।

أما شرح هذه الصفات فكما يلي :

١ـ بركيا، أي الاطلاع على أمور الغيب والإخبار بها . . . . .

٢ ـ كلينتا، أي الانتساب إلى أسرة عالية ونسب عال....

٣ ـ إنذرية دمن، أي الغلبة على النفس...............

٤ ـ رشوتكيان، أي تلقي الوحي والنبوة.............

٥ ـ براكرم، وهو أن يكون قوي الجسد..............

٦ ـ بهو بهاشتا، أي التقليل من الكلام..............

٧ ـ دان، أي الجود والسخاء والتصدق بالمال..........

٨ ـ كرتكتا، أي الحكمة وبعد النظر ودقته...........

هذه هي الصفات الربانية الثمان عند الهندوس، والتي وردت في جملة خصائص كلكي أوتار في الترتيلة التي نحن فيها.

والذي يعرف سيرة محمد ﷺ يعرف أنه أعلى وأولى من اتصف بهذه الصفات الربانية، وفيما يلي إيضاح شيء من ذلك.

اطلاعه على أمور الغيب وإخباره بها:

معلوم أن الله تعالى أطلع محمداً على كثير من أمور الغيب فأخبر بها أصحابه وأمته، وهي مذكورة في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، فمن أمور الغيب هذه ما يتعلق بالخلق مثل خلق السموات والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب والملائكة والأرواح والجن والإنس، لا سيما خلق آدم وما أحاط به من الأحداث التي وقعت قبل الخلق وبعده، ومنها ما يتعلق بالأحداث التي وقعت في الأيام الخالية، من آلاء الله أو أيامه، مثل ما حدث لقوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب مدين وآل فرعون وغيرهم من النكال والعذاب، وما أنعم الله سبحانه وتعالى به على الأنبياء والمرسلين وعلى عباده الصالحين.

ومنها التنبؤات التي تتعلق بالمستقبل. وهي كثيرة ومتنوعة، فمنها ما وقع في حياته ﷺ، ومنها ما وقع بعده قريباً، ومنها ما وقع بعده من القرون الطويلة، ومنها

ما ينتظر وقوعه في الأيام القادمة. وذلك مثل التنبؤات عن غلبة الروم على الفرس، وعن غلبة المسلمين على الكفار والمشركين، وظهور الإسلام على الدين كله، وجعل المسلمين خلفاء الأرض، وفتحهم اليمن والشام ومصر والعراق وغير ذلك، واغتنامهم كنوز كسرى وقيصر، وقتالهم خوزا وكرمان والحبشة والرومان والبربر والأتراك، ومثل ظهور المهدي وخروج الدجال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وقتله الدجال، وقضاء المسلمين على اليهود والنصارى، ومثل خروج يأجوج ومأجوج، وظهور أشراط الساعة الصغرى والكبرى، ومثل أخبار القيامة والجنة والنار، وما إلى ذلك.

فكل ذلك من أمور الغيب الذي لا يدرك بالحس الظاهر والباطن قبل الوقوع، وقد أطلع الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على كل ذلك، فأخبر بها هو أصحابه وأمته، ودوّنها أهل العلم في الكتب والأسفار، وهي لا تزال موجودة فيها، وقد وقع كثير منها بعد تدوينها في الكتب بسنوات أو بقرون.

علو النسب:

معلوم أن محمداً ﷺ كان أعلى الناس حسبًا ونسبًا، فإنه كان من أعز قبيلة في العرب، وهي قريش، ثم من أعز عشيرة في قريش، وهم آل قصي، ثم من أعز بطن في آل قصي، وهم بنو عبد مناف ثم من أعز وأشرف فخذ في بني عبد مناف، وهم بنو هاشم، ثم من أشرف جد في بني هاشم، وهو عبد المطلب، وأما والده فكان أشرف أولاد عبد المطلب، وقعت عليه القرعة ليذبح لله، ثم فدى بمئة من الأبل، فكان هذا شرفًا اختاره الله له، ولم يقع في نصيب أحد غيره، والحاصل أن محمداً ﷺ كان أعلى الناس نسبًا، وأعزهم وأشرفهم حسبًا.

الغلبة على النفس:

وهذه صفة تتجلى في البعد عن الفواحش، والعفة في النفس والمال، والعفو عند المقدرة بدل الانتقام، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي يلتزم بها الرجل مع وجود مغريات على الشر، وقدرة عليه.

وقد كان محمد ﷺ أملك الناس لنفسه وإربه، لم يقرب فاحشة قط مع كثرة الدواعي والمغريات في المجتمع الذي كان يعيش فيه، ومع عدم وجود أي مانع منها سوى كرم النفس أو خشية الله، وكذلك لم ينتقم لنفسه قط مع كثرة ما أوذي به وشدته، ومع قدرته التامة على الانتقام. وقد كان على أعلى قمة في التطهر والتزكي، وفي العفو عند المقدرة، وكان أبعد الناس عن كل سوء، وأعفه عن كل ما يريب من الأموال والأعمال.

وكان يعلم أصحابه الغلبة على النفس فيقول: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب»(١). ويقول أيضًا: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»(٢).

تلقي الوحي والنبوة:

وهذا وصف معروف لمحمد ﷺ ليس في حاجة إلى البيان إطلاقًا.

كونه قوي الجسد:

وقد كان النبي ﷺ قوي الجسد، صارعه ركانة بن عبد يزيد مرتين أو ثلاثًا فصرعه النبي ﷺ في كل مرة، وكان ركانة مصارعًا معروفًا بالقوة والجلادة، فلما

(١) صحيح البخاري ح٦٤٥٧ (الفتح ١١/٣١٤) وح٦٨٠٧ (الفتح ١٢/١١٥) جامع الترمذي ح٢٤٠٨ (٤/٦٠٦) الزهد: باب ٦٠، مسند أحمد ٥/٣٣.

(٢) صحيح البخاري ح٦١١٤ (الفتح ١٠/٥٣٥) صحيح مسلم: البر والصلة ح١٠٦ – ١٠٨ (٤/٢٠١٤).

يضاهيه أحد، فصار سببًا لإسلامه، ومن مظاهر قوته ﷺ أيضًا أنه كان يسافر طويلاً، ويقاتل الأبطال ويتقدم الشجعان، ويخلف الفرسان، ويكبت الجلد القوي من أصحاب الطغيان، بينما هو في النصف الأخير من الخمسينات، بل كان قد جاوز الستين من عمره، لم يكن يتوانى ويتكاسل عن مثل هذه الأعمال الشاقة التي تطلب المزيد من القوة، وهذا دليل على امتيازه بالقوة الجسدية.

التقليل من الكلام:

معلوم أن النبي ﷺ كان قليل الكلام، قال هند بن أبي هالة: كان يخزن لسانه إلا عما يعنيه[١]. وقال خارجة بن زيد: كان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة[٢].

وكان يعلم أصحابه التقليل من الكلام ويحثهم عليه فيقول: إن من حسن إسلام المرء قلة الكلام[٣].

ويقول: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن من أبعد الناس من الله القلب القاسي[٤].

الجود والسخاء والتصدق بالمال:

وهذه صفة امتاز بها محمد ﷺ من بين البشر، فقد كان من أجود الناس، وأكثرهم صدقة في سبيل الله، لم يوجد له نظير في التاريخ، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، وقد شرع الله الزكاة، وجعلها أحد الأركان الخمسة للإسلام، وهو نظام للصدقات لا يوجد له مثيل في الأديان، وحل لمشكلة الفقر بحيث لا يدانيه شيء مما لدى الأقوام.

---

(١) شمائل الترمذي ح٣٣٠ ص١٦٢، طبع: دار الحديث للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) الشفاء للقاضي عياض ١/١٧٧.

(٣) مسند أحمد ١/٢٠١.

(٤) جامع الترمذي ح٢٤١١ (٤/ص٦٠٧).

الحكمة وبعد النظر:

(وهو أن يعمل الرجل ما يعمل، وهو يدقق النظر في عواقبه ومآله).

وهذه صفة تتجلى في كل تصرفاته ﷺ. فحياته ﷺ كانت محاطة بالأخطار، مليئة بالأحداث والوقائع من الحرب والسلم، والدعوة والجهاد، والعقود والمواثيق، وإرسال البعثات واستقبال الوفود، وغير ذلك، وكان يقضي ليله ونهاره وهو يعامل الناس معاملات فردية واجتماعية في شتى أنواع المجالات، لكن لا تجد له ﷺ أي أخطاء في التخطيط والتدبير والتطبيق، بل تجد له نجاحًا ودقة نظر بَالِغَيْن إلى حد الإعجاز، وقد تجلت حكمته وبعد نظره ﷺ في قضية الحجر الأسود قبل النبوة.

والحاصل أن الصفات الربانية الثمان المقدسة المذكورة في كتب الهندوس لـ «كلكي أوتار» كلها وجدت في محمد ﷺ بأحسن وأكمل ما يكون، وذلك بجنب صفات وخصائص وميزات أخرى ذكرتها تلك الكتب لـ «كلكي أوتار» فهي أيضًا كلها موجودة في النبي ﷺ، فإذن «كلكي أوتار» عند الهندوس هو محمد ﷺ، وليس غيره، وموجز هذه الصفات أن كلكي أوتار:

١ ـ اسمه «سروأنما» ومعناه محمد.

٢ ـ واسم والده «ويشنو ويش» ومعناه عبد الله. (وهو اسم والد النبي ﷺ).

٣ ـ واسم والدته «سومتي» ومعناه آمنة. (وهو اسم والدة النبي ﷺ).

٤ ـ يولد في «شنبل غرام» ومعناه البلد الأمين أو البلد الآمن. (وهو اسم مكة المكرمة).

٥ ـ وشنبل غرام يقع في «ساملل ديب» وهي جزيرة العرب.

٦ ـ ويولد في بيت سيدهم ورئيسهم الديني. (وقد ولد في بيت عبد المطلب، وكان هو الرئيس الديني لأهل مكة).

٧ ـ ويولد في الثاني عشر من شهر بيساك في القرن السابع البكرمي . (وقد ولد محمد ﷺ سنة ٦٢٨ بكرمية في نفس التاريخ والشهر) .

٨ ـ يموت والده قبل الولادة، ووالدته بعد الولادة قريبًا . (وقد ولد النبي ﷺ يتيمًا بعد وفاة والده، وتوفيت والدته وهو ابن ست سنين) .

٩ ـ يتزوج سيدة سالمل ديب . (وكانت خديجة ـ زوجته ﷺ ـ سيدة نساء العرب) .

١٠ ـ يذهب إلى غار في جبل ويتلقى هناك العلم من برشورام . (وكان النبي ﷺ يذهب إلى غارٍ في جبل حراء، فتلقى هناك الوحي من جبريل . واسمه برشورام عندهم) .

١١ ـ يبعث في زمان ركوب الفرس والبعير والقتال بالسيف . (وبعث محمد ﷺ في مثل هذا الزمان . وقد انتهى هذا العهد وجاء عهد السيارات والطائرات والصواريخ) .

١٢ ـ يدعو إلى الله فيؤذيه أهل بلدته، فيهاجر منها إلى مدينة في الشمال محاطة بالجبال، ثم يعود فيفتح بلدته بالسيف . (وهذا عين ما حصل لمحمد ﷺ ، دعا فأوذي فهاجر إلى المدينة ـ واسمها إذ ذاك يثرب ـ وهي في شمال مكة، ومحاطة بالجبال، ثم رجع إلى مكة وفتحها بقوة السيف) .

١٣ ـ يعطى له فرس طيار، فيسير عليه في الأرض والسموات . (وقد أعطي النبي ﷺ البراق ليلة المعراج، فأسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السموات) .

١٤ ـ يقوم بالغزوات ويقاتل بالسيف . (وكلاهما معروفان من النبي ﷺ) .

١٥ ـ يحارب الشياطين ويكبت أعداء الدين . (وقد فعل) .

١٦ ـ يمده الله وينصره بالملائكة في الحروب. (وقد أمد الله محمداً بالملائكة، ونصر بهم في عدة غزوات).

١٧ ـ يكون له أربعة خلفاء يساعدونه في نشر الدين وكبت أعدائه (وقد خلف محمداً ﷺ أربعةٌ خلفاء أدوا دورهم في نصر الدين وكبت أعدائه).

١٨ ـ وهو يكون سيد العالم. (وقد كان).

١٩ ـ يختم عليه النبوة والرسالة، ويكون عليه خاتم النبوة. (وقد كان محمد ﷺ متصفًا بالأمرين. ختمت عليه النبوة والرسالة. وكان على غضروف كتفه خاتم النبوة).

٢٠ ـ يكون أحسن الناس وأجملهم وجهًا. (وكان محمد ﷺ كذلك).

٢١ ـ وتكون لجسده رائحة طيبة تعطر الجو وتنشئ الفرحة فيمن يشمها من الناس. (وكان في محمد ﷺ هذا الطيب).

٢٢ ـ ويكون متصفًا بثمان صفات ربانية مقدسة. (وقد مضت قريبًا بالتفصيل).

هذا هو كلكي أوتار المبشر به عند الهندوس، والمذكور في كتبهم بهذه الصفات الواضحة والخصائص البينة، وهل يبقى بعد ذلك أدنى شك في كون المراد به محمداً ﷺ؟ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، «ومن يضلل الله فما له من هاد».

* * *

البشارة باسم محمد أو أحمد ﷺ

في الويد وذكر غزوة الأحزاب

قدمنا أن أهم الكتب الدينية عند جمهور الهندوس هي كتب الويدات التي يعتقدون فيها أنها كتب سماوية نزلت من عند الله سبحانه وتعالى. وقد وردت في هذه الكتب بشارات باسم محمد أو أحمد صراحة، أو وردت باسم سنسكرتي يرادف محمداً، أو أحمد معنى، مع اشتمال تلك البشارة على صفات وخصائص لم توجد إلا في محمد ﷺ. فمن ذلك بشارة في أتهرو ويد في الباب العشرين، فصل ٢١ تراتيل ٦، ٧، ٩، وهي كما يلي:

ते त्वा मदा अमदन् तानि वृष्णया ते सोमासी वृत्रहत्येषु सत्पते ।
यत् कारवं दश वृत्राणयप्रति बर्हिष्मते नि सहस्त्रानि बर्हयः ॥६॥
युधा युधमुप घेदेषि धृष्णुया पुरा पुरं समिदं हंस्योजसा।
नमया यदिन्द्र परावति निर्हयी नमुचि नाम मायिनम् ॥७॥
त्वंताज जनराज्ञां द्विर्दशाबन्धुना सुश्रवासेपजग्मुपः। षष्टि सहस्रा
नवतिं नव श्रुतां नि चक्रेणा रथ्या दुष्पदावृणाक् ॥९॥

अथर्व वेद काण्ड २०। २१।६-७,९

المعنى:

* يارب الصادقين، لقد سرك السارون ببطولاتهم وأناشيدهم الغرامية في حرب العدو. حين هزمت لعبدك «أحمد» عشرة آلاف عدو بغير قتال.

* تخرج من حرب إلى حرب أخرى بشجاعة، وتفتح قلعة بعد قلعة بقوة.

إنك يا إندر - أي إنك أيها القوي العزيز - قتلت مع حبيبك الراكع العدو المبعد المخادع - أو الناقض للعهد - المعروف باسم «نموشي».

* إنك يا إندر (أيها القوي العزيز) مع يتيم معروف «بمحمد» زلزلت وقلبت بمركبك الحربي الذي لا يغلب، عشرين رئيساً وستين ألفاً وتسعة وتسعين عدواً.

والترتيلة الأخيرة وردت أيضاً في رك ويد ١/٥٣/٩ .

هذه التراتيل الثلاث تذكر غزوة الأحزاب، وتبين ما وقع فيها، وتتناول عدداً من جوانبها بدقة غريبة، وفيما يلي نوضح ما جاء فيها نقطة بعد نقطة.

١ ـ وصفت الترتيلة الأولي المقاتلين في هذه الغزوة ـ وهم الصحابة رضي الله عنهم ـ بالصدق حيث قال: يا رب الصادقين. وهذا (أي الصدق وصف امتازوا به في حياتهم كلها، ولا سيما في هذه الغزوة، حتى إن الله سبحانه وتعالى حين ذكر موقفهم وصمودهم في هذه الغزوة اختار لهم صفة الصدق ووصفهم بها، قال تعالى **﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾** [٢٣: ٣٣] وقال: **﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾** [٢٤: ٣٣].

٢ ـ وهذه الترتيلة وصفت الصحابة أيضاً بالشجاعة والبطولة، ومعلوم أن الصحابة كانوا معروفين بشجاعتهم وبطولتهم في كل موقف، وقد تجلى وصفهم هذا في هذه الغزوة بخاصة. يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى فيهم: **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: ٢٢: ٣٣].

٣ ـ ووصفتهم الترتيلة أيضاً بأنهم يرددون أناشيد غرامية، وقد كان الصحابة يرددون في هذه الغزوة ـ وهم يحفرون الخندق ـ:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الذين قد بغوا علينا ... وإن أرادو فتنة أبينا

وكانوا يرفعون أصواتهم على قولهم «أبينا» ويكررونها.

وكانوا يرددون أيضًا.

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ما بقينا أبــــداً

وكان النبي ﷺ يجبيهم على ذلك، ويدعو لهم، ويقول:

اللهم إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصـــــار والمهاجـــرة

فكانت تغمرهم الفرحة والسرور، ويزدادون نشاطًا، ويكررون الأبيات مرة بعد مرة.

٤ ـ ووصفتهم الترتيلة أيضًا بأنهم سروا الله تعالى بأناشيدهم وبطولاتهم. وفعلاً حصل ذلك للصحابة في هذه الغزوة، ويبدو ذلك جليًّا بما وعدهم الله من الأجر العظيم بعد أن وصفهم بأعلى صفات الإيمان. (لتنظر سورة الأحزاب).

٥ ـ ووصفت الترتيلة قائد هذه الغزوة بوصفين خاصين:

الأول: «كارو» وترجمته الحرفية «أحمد» وسياق الترتيلة واضح جداً في كونه علمًا لهذا القائد.

الثاني: «ورهشمت» ومعناه: العابد أو العبد. ويبدو أن في إيراد هذا اللفظ والوصف إشارة إلى كثرة عبادة هذا القائد وشدة اهتمامه بها أثناء هذه الغزوة. ومعلوم أن النبي ﷺ قد أكثر من العبادة والدعاء في هذه الغزوة، حتى إنه دعا على الكفار لشدة تأسفه حين شغلوه عن الصلاة الوسطى، بينما لم يكن من شيمته ﷺ الدعاء على أحد، مهما آذاه.

ثم في وصفه بهذا الوصف (العبد) إشارة إلى أنه مع هذا الفتح العظيم لا يختار لنفسه أن يكون ملكًا وإنما يختار أن يكون عبداً، وقد خير الله تعالى النبي ﷺ بين أن يكون عبداً وأن يكون ملكًا فاختار أن يكون عبداً، فكان يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد.

وقد يراد بكلمة «ورهشمت» معنى آخر، وهو من يعلو وجهه النورُ والبهاء، وقد كان النبي ﷺ يمتاز بهذا الوصف أيضًا. وقد تكرر ذلك مراراً.

٦ ـ وتخبر هذه الترتيلة أن الله تعالى هزم عشرة آلاف عدو بغير قتال. وهذه هي نتيجة غزوة الأحزاب بعينها، كان عدد العدو عشرة آلاف، وقد اضطروا إلى الفرار دون أن يقع ما يسمى بالقتال. كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥ : ٣٣].

٧ ـ واللفظ الذي اختير لخطاب الله سبحانه وتعالى في الترتيلة الثانية هو لفظ «إندر». وهو في الحقيقة صفة من صفات الله تعالى تدل على معنى القوة والغلبة والقهر والغضب والنقمة، وأنه الذي تكون معه العواصف والرياح، والصواعق والرعد، يتصرف فيها كيف يشاء، فيهلك بها من يشاء وينصر بها من يشاء، فكأنه عبارة عما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢، ١٣].

ولما دب الشرك في الهندوس، وعمت الأوثان وكثرت الآلهة عندهم جعلوا «إندر» إسمًا لإله هو رمز القوة والمنعة والقهر والغضب، تواكبه العواصف والرياح، والصواعق والرعد، يهلك بها العدو وينصر بها أهل الصدق والتقوى. أي إنهم اخترعوا لهذه الصفات ذاتًا غير الله، وهي في الحقيقة صفات لله.

فمخاطبة «إندر» في هذه الترتيلة، ووصفه بأنه هزم العدو بغير قتال، معناه أنه هزمهم بالعواصف والصواعق والرعد، وهذا هو ما حصل بعينه في غزوة الأحزاب. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩]. ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] والقوي العزيز مع هذه الصفات هو معنى «إندر».

٨ ـ وقوله في هذه الترتيلة الثانية: «تخرج من حرب إلى حرب أخرى...» أراد بهذه الحرب الثانية غزوة بني قريظة، فقد خرج لها رسول الله ﷺ بعد غزوة الأحزاب مباشرة، ولم يمكث في البيت إلا ريثما اغتسل، وجاءه جبريل وأمره بالخروج إلى بني قريظة. فكان خروجه من حرب إلى حرب.

وذكر من أحداث هذه الحرب الثانية أنه يفتح قلعة بعد قلعة. وهذا هو ما حدث بعينه في غزوة بني قريظة، فإنهم كانوا متحصنين في قلاع وحصون فنزلوا عنها وتركوها للمسلمين. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

أما غزوة الأحزاب فكان العدو فيها في ساحة مفتوحة، ولم تكن هناك قلاع ولا حصون.

٩ ـ ووصفت الترتيلة قائد هذه الغزوة بأنه حبيب الله، وملتزم بالركوع، ويعني بذلك أنه يكثر من الصلاة ويمتاز بها. والإشارة بالركوع إلى الصلاة معروفة حتى في تعبير القرآن. ولا شك أن محمداً ﷺ هو أحب عباد الله إليه وأكثرهم عبادة له.

١٠ ـ هذا، وقد وصفت الترتيلة العدو بأنه مبعد ومخادع وناقض للعهد.

وقد كان العدو في هذه الغزوة هم اليهود، وهم معروفون بهذه الخلال الثلاث، فقد أبعدهم الله من رحمته، وضرب عليهم الذلة والمسكنة حتى باءوا بغضب من

الله، وأما اتصافهم بالمكر والخداع ونقض العهد فإن حياة اليهود مملوءة بها طوال تاريخهم الطويل، وكانوا قد نقضوا أثناء غزوة الأحزاب أيضًا عهداً وميثاقًا مؤكداً كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فغدروا شر غدر في أحرج ساعة في حياة المسلمين، ولما شك رسول الله ﷺ فيهم، وبعث إليهم رجالاً يتعرفون على جلية الأمر وجدوهم على أخبث ما يكونون، وقد جاهروا بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا بكل صراحة ووقاحة: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

وقد اختار الويد لبيان وصفهم هذا كلمة «ماينيم» وهي تطلق على شيء يكون في ظاهره جيداً وفي الحقيقة رديئًا خبيثًا، وكان هذا هو حال اليهود تمامًا. ومن الطرائف أنهم وصفوا بذلك مراراً في مجموعة الكتاب المقدس عند أهل الكتاب، فقد شبهوا فيها بالفضة المغشوشة وبالأفاعي وأولاد الأفاعي، وبالقبر المجصص المبيض في الظاهر، والمليء بالقيح والصديد والنتن في الباطن.

١١ ـ وذكر في هذه الترتيلة أيضًا أن هذا العدو يسمى بـ «نموشي» وهذه الكلمة لها معنيان في اللغة السنسكرتية، الأول: الممسك البخيل. والثاني: المستحق للعقاب.

ومعلوم أن اليهود على رأس قائمة البخلاء الممسكين في شعوب العالم، وكانوا قد استحقوا العقاب ومنوا به بعد بعثة محمد ﷺ.

وقد أطلق لفظ «نموشي» أيضًا في رك ويد وغيره على روح خبيثة تحول ـ حسب عقيدة الهندوس ـ بين السماء والأرض، وتتغلب على السحاب فتمنعه من هطول الأمطار على الأرض، ومعلوم أن اليهود بذلوا كل ما أمكن لهم من الجهد ليحولوا بين الوحي الذي نزل على محمد ﷺ وبين وصوله إلى الناس. والوحي مشبه بالمطر في الكتب السماوية وفي لغة أهل العلم والدين، وهذا التشبيه موجود في القرآن وفي الأحاديث النبوية أيضًا.

١٢ ـ ثم تتناول هذه الترتيلة نتيجة هذه الحرب، فتقول إنها تسفر عن قتل الأعداء، ولا تنتهي بهزيمتهم فحسب، وهذه بعينها هي النتيجة التي أسفرت عنها غزوة بني قريظة، فإنها لم تنته بهزيمتهم بل إنهم استسلموا وحَكَّموا حليفهم سعد ابن معاذ رضي الله عنه فحكم بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم. فقتلوا كلهم أجمعون، ولم يبق إلا الذراري والنساء.

١٣ ـ وفي الترتيلة الأخيرة وصف قائد الغزوة بلفظ « أبندهونا » وهو يطلق على اليتيم ومن لا ولي له من الأرامل والمساكين.

١٤ ـ وسمي هذا القائد باسم « سشروا » ومعناه: الذي يحمد ويثني عليه بالثناء الجميل بكثرة. فهو مرادف للفظ « محمد ».

١٥ ـ وذكر في هذه الترتيلة الأخيرة أن عدد أعدائه ستون ألفًا وتسعة وتسعون. وقد تقدم أن عدد أعداء محمد ﷺ الذين خرجوا للقضاء عليه، أو واجهوه في صورة جيش مقاتل يبلغ ستين ألفًا عشرة ألاف من قريش وغطفان ومن انضم إليهما من قبائل أخرى، وعشرة آلاف من اليهود من قبائل شتى وفي أماكن متفرقة. وأربعون ألفًا من الروم في غزوة تبوك.

وقد تقدم أيضًا أن عدد المنافقين الذين تخلفوا في غزوة تبوك كان ثمانين، والذين حضروا منهم في تبوك كانوا ثلاثة عشر، فهؤلاء ثلاثة وتسعون، وقد قام أربعة رجال بمحاولات فردية لاغتيال النبي ﷺ، واثنان من اليهود جاهراً بعداوة النبي ﷺ إلى حد الخبل والجنون من غير أن يقودا جيشًا أو يحضرا قتالاً، وهما كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق، فهؤلاء ستة، وبضمهم إلى عدد المنافقين يصير العدد تسعة وتسعين.

وقد أعذر الله ثلاثة من المنافقين وثلاثة من محاولي الاغتيال، ووفقهم للتوبة والإسلام، وأهلك واحداً بالصاعقة، واغتيل اليهوديان في بيتهما، فبقي العدد تسعين، ولعل هذا هو السر في عدهم مرة تسعين ومرة تسعة وتسعين.

١٦ ـ وذكر في هذه الترتيلة أيضًا عدد رؤساء هؤلاء الأعداء وقوادهم، وأنهم عشرون قائداً ورئيساً، وهذا هو عدد مجموع قواد الجيوش التي واجهت النبي ﷺ أو قاتلته في غزواته، وفيما يلي قائمة لهؤلاء القواد والرؤساء مع بيان الغزوات التي قادوها.

اسم القائد	اسم القبيلة التي قادها	اسم الغزوة أو الغزوات	ملحوظات أخرى
١ ـ أبو جهل	قريش ومن معها	بدر الكبرى سنة ٢هـ	قتل في نفس الغزوة
٢ ـ أبو سفيان	قريش ومن معها	أحد سنة ٣ والأحزاب سنة ٥ هـ	أسلم يوم الفتح
٣ ـ سيد بني قينقاع	بنو قينقاع	غزوة بني قينقاع سنة ٢هـ	أجلي مع قومه
٤ ـ حيي بن أخطب	بنو النضير	غزوة بني النضير سنة ٤هـ	قتل مع قريظة
٥ ـ عيينة بن حصن الفزاري	بنو فزارة	الأحزاب سنة ٥هـ	أسلم قبل الفتح
٦ ـ عوف بن مالك	بنو هوازن	الأحزاب سنة ٥هـ	
٧ ـ طليحة بن خويلد الأسدي	بنو أسد	الأحزاب سنة ٥هـ	أسلم ثم تنبأ ثم أسلم
٨ ـ أبو الأعور السلمي أو أبوه	بنو سليم	الأحزاب سنة ٥هـ	أسلم بعد حنين
٩ ـ عامر بن الطفيل	بنو عامر	الأحزاب سنة ٥هـ	مات في غدة طاعون
١٠ ـ الحارث بن عوف	بنو مرة	الأحزاب سنة ٥هـ	أسلم بعد تبوك

١١ ـ مسعود بن رخيلة	بنو أشجع	الأحزاب سنة ٥هـ	أسلم وحسن إسلامه
١٢ ـ كعب بن أسد	بنو قريظة	غزوة بني قريظة سنة ٥هـ	قتل مع قومه عقب الغزوة
١٣ ـ الحارث بن أبي ضرار	بنو المصطلق	غزوة المريسيع سنة ٥ أو ٦هـ	أسلم عقب الغزوة
١٤ ـ عبد الرحمن الفزاري	بنو فزارة	غزوة ذي قرد سنة ٧هـ	قتل في نفس الغزوة
١٥ ـ مرحب اليهودي	يهود النطاة والشق	غزوة خيبر سنة ٧هـ	قتل في نفس الغزوة
١٦ ـ كنانة بن أبي الحقيق	يهود الكتيبة	غزوة خيبر سنة ٧هـ	قتل عقب الغزوة
١٧ ـ سيد اليهود	يهود وادي القرى	غزوة وادي القرى سنة ٧هـ	
١٨ ـ سيد محارب وخصفة	بنو محارب وخصفة	غزوة ذات الرقاع سنة ٤ أو ٧هـ	
١٩ ـ مالك بن عوف النصري	بنو ثقيف وهوازن	غزوة حنين وطائف سنة ٨هـ	أسلم بعد حنين
٢٠ ـ عظيم من عظماء الروم	الروم	غزوة تبوك سنة ٩هـ	

هذا، ولا نجد في التاريخ أي رسول آخر ـ عدا محمدا ﷺ ـ ينطبق عليه ما جاء في هذه التراتيل. فهو المبشر به فيها اسمًا ووصفًا. ولله الحمد.

البشارة بـ«محمد ﷺ»

في الويد وذكر غزوة فتح مكة

كما تناولت الويدات قصة غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، كذلك تناولت قصة فتح مكة أيضًا وذكرتها أحيانًا مع التصريح باسمه ﷺ، وأحيانًا بغير هذا التصريح، فمما صرحت فيه باسمه ﷺ ما جاء في رك ويد ٥/٢٧/١، وصورته كما يلي:

अनस्वन्ता सतपतिममिहे मे गवा चेतिष्टो असुरो मघोनः।
त्रैवृष्णो अग्ने दशभिः सहस्रैर्वैश्वानर त्र्यरुणश्चिकेत॥
ऋग्वेदः म० ५ । सू० २७ । १ ॥

المعنى:

«إن صاحب العظمة والحق «مامح» - محمد - الحكيم القوي الجواد شرفني بكلامه.

وإن رحمة للعالمين امتاز بعشرة آلاف من أصحابه ذوي البأس والحسنات».

* وقد قدمنا أن «مامح» لهجة سنسكرتية للفظ محمد، وبمعنى محمد تمامًا.

* والصفات المذكورة له - وهي الحكمة والقوة والعظمة والجود والالتزام بالحق - كلها من صفات محمد ﷺ.

* وأما كونه «رحمة للعالمين» فإنه وصف امتاز به غاية الامتياز حتى صار لقبًا له ﷺ.

* وأما امتيازه بعشرة آلاف من الصحابة فإنه ميزة له اختص بها من بين الأنبياء، وهذا العدد من الصحابة هو الذي كان معه في غزوة الفتح الأعظم: فتح مكة المكرمة، وقد ذكر الله تعالى ما لهم من المنزلة الرفيعة بين المسلمين لأجل ميزتهم هذه فقال: **﴿لا يَسْتَوِي منكُم مَّنْ أَنفَقَ من قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾**.

* وأما صفة البأس والحسنات فنظرًا إلى تركيب العبارة والكلام يحتمل أن تكون للنبي ﷺ، ويحتمل أن تكون للصحابة، ولانحتاج إلى بيان أن النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم كانوا يمتازون بشجاعتهم وبمحاسن أعمالهم.

* وأول كلمة في هذه الترتيلة هي «أنسونتا» ومعناها اللفظي: صاحب العربة، وهو في عرف الويد يطلق على السيد الرئيس، والزعيم القائد، صاحب العظمة والأبهة، لأن هؤلاء كانوا يخرجون ويظهرون في مسيراتهم الخاصة على عربات خاصة، وبين المواكب.

والحاصل أن هذه الترتيلة تبشر بمحمد ﷺ بأسمائه وصفاته وأصحابه وأهم غزواته.

ومما ورد من ذكر مكة في الويد بدون التصريح باسمه ﷺ ما جاء في أتهرو ويد كاند (باب) ٢٠، سوكت (فصل) ١٣٧، منتر (تراتيل) ٧، ٨، ٩، وهي موجودة أيضًا في رك ويد مندل (باب) ٨، سوكت ٩٦، منتر ١٣ - ١٥، وفي سام ويد، بورم آشك، أدهياى (باب) ٣، كهند (فصل) ١٠، منتر ١، وصورة هذه التراتيل كما يلي:

अवद्रप्सो अंशुमतीमतिष्टदियान: कृष्णी दशभि: सहस्रै: ।
आवत तमिन्द्र: शच्च धमन्तमप स्नेहितीर्नृमणा अधत ।।७।।
द्रप्समपश्यं विषुणी चरन्तमुपह्वरे नद्या अंशुमत्या: ।
नभी न कृष्णमवतस्थिवांसमिप्यासि वो वृषणी युध्यताजो ।।८।
अध द्रप्सी अंशुमत्या उपस्थंधारयत तन्वं तित्वियाण: ।
विशी अदेवीरभ्या ३ चरन्तोर्बृहस्पतिना युजेन्द्र: ससाहे ।।९।।
अथर्व-वेद काण्ड २० । १३७ । ७-९

المعنى:

* استقر القمر الأسود في نهر أنشومتي، يتقدم إندر (القوي العزيز) الشجاع المحفوظ مع عشرة آلاف بقوة، وقد ألقى سلاحه جانبًا وهو ينفخ في بوق (الفتح).

* رأيت القمر مثل سحاب أسود يتحرك على بعد عند الشاطئ المنحدر لأنشومتي حتى غرق فيه. أيها الأبطال، أرسلكم إلى الأمام، اذهبوا وقاتلوا في الحرب.

* ثم اختار القمر جرمه المنور في حضن أنشومتي، وقد غلب إندر مع ربه على من قام ضده من المشركين.

وفيما يلي إيضاح بعض النقاط من هذه المناتر:

١ - يزعم الهندوس أن «أنشومتي» اسم نهر ينزل فيه القمر في أواخر كل شهر حين يذهب نوره ويسود، فيغتسل فيه، فيعود إليه البياض والنور، ثم يرجع إلى السماء ويطلع على الأفق مرة أخرى.

واستعيرت هذه الصورة هنا لبيان ظهور دين الله من جديد بعد أن كان قد سرى إليه التحريف، واختفت تعليماته، فالدين هو القمر، وسريان التحريف فيه

واختفاء تعليماته هو اسوداد القمر واختفاؤه في النهر. وظهور هذا الدين من جديد هو طلوع القمر وإشراقه من جديد بعد خروجه من النهر.

بعد هذا القدر من الإيضاح أقول: إن هذه هي الظروف والأوضاع التي كانت محيطة بظهور نبوة محمد ﷺ، فقد بعثه الله بعد فترة من الرسل، وقد تحرف في هذه الفترة الدين، واختفى شيئًا فشيئًا حتى اختفى تمامًا فعمت الظلمات، واسودت الآفاق كلها، ثم أرسل الله محمداً ﷺ، فبدأ بالدعوة، وأخذ يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فكأن الدين كان هو قمراً قد اسود واختفى، ثم طلع واستنار بدعوة محمد ﷺ.

٢ ـ وقد رأى وقد سمع قائل هذه التراتيل أثناء غياب القمر وطلوعه ما يأتي من الأحداث:

أ ـ سمع قائلاً يأمر الأبطال بالتقدم إلى الأمام والخوض في الحروب.

ب ـ رأى غلبة إندر، ـ وهو هنا الشجاع المحفوظ قائد هؤلاء الأبطال ـ فرأى أنه تغلب واستولى على أعدائه المشركين بنصرة ربه سبحانه وتعالى. وهذا يعني أن هذا القائد يكون موحداً لله، وأعداؤه يكونون مشركين. وفيه إشارة لطيفة إلى أن هذا الاختلاف هو الذي يكون سبب نشوب الحرب بينهما. وانطباق هذا على محمد ﷺ معلوم بالضرورة.

ج ـ ورأى أن هذا القائد الشجاع المحفوظ يتقدم مع عشرة آلاف مقاتل. ومعلوم أن عدد المقاتلين الذين حضروا فتح مكة عشرة آلاف صحابي. وأما كون النبي ﷺ شجاعًا ومحفوظًا فقد بيناه مراراً، وهو معروف لا يحتاج إلى البيان.

د ـ ورأى أنه أثناء نفخه في بوق الفتح ألقى السلاح جانبًا، وهذا يعني أنه لم يستخدم السلاح، بل حصل له الفتح بدون قتال. وهذا عين ما حصل أثناء فتح مكة. فإنه ﷺ لم يستعمل في أهلها السلاح لا أثناء الفتح ولا بعدها، بل قال: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

والحاصل أن كل ما تقدم في هذه المناتر تنطبق على محمد ﷺ، ولا تنطبق إلا عليه، فقد كان الدين مختفيًا قبل ظهوره، ثم بدأ في الطلوع والظهور شيئًا فشيئًا حتى قويت أنواره بعد استقراره بالمدينة وإيمان أهلها ونصرتهم له ﷺ. ثم أذن الله لهم في القتال، ثم أمرهم بذلك وقال **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾** فخرجوا وتقدموا إلى ساحات القتال، وخاضوا المعارك والحروب ضد المشركين. فغلبوهم وألحقوا بهم الهزيمة تلو الهزيمة، وكان أعظم هذه الحروب والمعارك والفتوح هو فتح مكة المكرمة، وقد تقدم إليها النبي ﷺ مع عشرة آلاف من أصحابه، وحصلت له الغلبة بدون القتال. وبدون أن يستعمل السلاح فيهم ليغلبهم أو ينتقم منهم، بل ألقى السلاح جانبًا كما ذكرنا.

البشارة بمحمد ﷺ

في بهوشية بوران

من المصادر الأساسية عند الهندوس كتب تعرف باسم «بوران» (puran) وهي ثمانية عشر كتابًا، منها «بهوشية بوران» ومعنى بهوشيه: الإخبار عن الأحداث الكائنة في المستقبل. وفي الفصل الثالث من الباب الثالث من القسم الثالث من هذا الكتاب، المعروف بـ«برتي سرك» وردت بشائر مفصلة وصريحة عن النبي ﷺ. وهي تبتني على مكاشفة رآها وخوطب فيها «مهرشي وياس» - مؤلف الويدات - على لسان الملائكة جسب عقيدتهم جاء في تراتيل هذا الفصل من ٥ إلى ٨ ما يلي:

एतस्मिन्नन्तरे म्लेच्छ आचार्य्येण समन्वितः ।
महामद इति ख्यातः शिष्यशखासमन्वितः ।। ५ ।
नृपश्चैव महादेवं मरुस्थलनिवासिनम्।
गङ्गाजलैश्च संस्नाप्य पञ्चगव्यसमन्वितैवः ।
चंदनादिभिरभ्यर्च्य तुष्टपव मनसा हरत् ।। ६ ।।
भोजराज उवाच--नमस्ते गिरिजानाथ मरुस्थनिवासिने ।
त्रिपुरासुरनाशाय बहुमायाप्रवर्तिने ।। ७ ।।
म्लेच्छैर्गुप्ताय शुद्धाय सच्चिदानन्दरूपिणे ।
त्वां मां हि किंकरं विद्धि शरणार्थमुपागतम्।।

المعنى:

* وإذا بمعلم روحاني من غير الآريين، معروف باسم محمد قد أتى مع أصحابه.

* وقام الملك بهوج بتعظيم ذلك القديس العظيم ساكن بلاد العرب، بصميم قلبه، فغسله بماء نهر غنغا (كنكا) وبالمطهرات الخمسة، وقدم إليه الهدايا من الصندل وغيره.

* وقال له الملك بهوج: سلام لك يا مفخرة السلالة البشرية، ويا ساكن أرض العرب، ويا معطى القوة الكثيرة لضرب الشياطين.

* إنك قد حفظت من الأعداء المناكيد، فيا أيها المقدس، مظهر الذات المطلق، والسيد الكامل، إنني من عبدك، فاعتبرني آتياً إلى قدميك.

وهذه التراتيل الأربع (٥ - ٨) فيها بشارات بينات واضحات بنبينا محمد ﷺ، لا تقبل أي تأويل، فقد اشتملت على عدة أمور لا تصدق إلا عليه، وهي:

أ - التنصيص على اسمه محمد. (ﷺ) ولم يأت أحد من الرسل في العالم كله يسمى بمحمد غير نبينا ﷺ.

ب - ثم التنصيص على أنه لا يكون من الآريين. ولازم هذا أنه لا يكون من بلاد الهند.

ج - ثم التنصيص على أنه يكون من بلاد العرب، ولم يكن من بلاد العرب إلا محمد ﷺ.

د - ومن خصائصه أن يحفظ ويعصم من أعدائه، ومعلوم أن الله تعالى عصم محمداً ﷺ في مواطن كثيرة، وفي أخطر ظروف.

هـ - ومن خصائصه أيضاً أنه يكون مزكى ومطهَّراً بجميع المطهرات. وقد كان محمد ﷺ معصوماً عن الخطايا والذنوب. مطهراً من كل ما يعد عيباً في الخلق والدين وفي كل مجال.

و - ومن خصائصه أن يعطى القدرة الكثيرة لضرب الشياطين. ومعلوم أن الإنسان إنما يقدر على ضرب الشياطين إذا التزم بالعبادات والأعمال الصالحة وتلاوة

القرآن، وذكر الله، وذكر كلماته التامة، وهي القرآن الكريم، والأوراد والأذكار الواردة في الأحاديث الثابتة. فإنها هي الحصن الحصين لدفع مردة الجن وضرب الشياطين. وقد أعطي النبي ﷺ كل ذلك بكثرة لا تخفى.

ز ـ ومن خصائصه أيضًا أن يكون مفخرة السلالة البشرية، وقد كان محمد ﷺ كذلك، فقد:

مضت الدهور وما أتين بمثله ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

ح ـ قصة الملك بهوج مع هذا المعلم الروحاني، وهي من عجائب ما ذكر في هذه البشارة. فإنه اسم لملك من ملوك الهند، وتعرف الآن مدينة في غجرات/ الهند، باسمه، وقد تأخر زمانه عن تأليف هذا الكتاب بقرون وقد وجد هذا الملك في زمن النبي ﷺ.

وقصته أنه كان ملكًا يحكم قطعة من سواحل غرب الهند في زمن النبي ﷺ. وفي إحدى الليالي رأى فجأة أن القمر منشق فلقتين فاستغرب جدًّا واحتار، وسأل البراهمة الموجودين عنده ـ وهم مشائخ الديانة الهندوسية ـ عن صاحب هذه المعجزة الغريبة، فراجعوا الويدات والبورانات، ثم قالوا: لا نجد هذه المعجزة إلا لآخر الرسل وخاتم الأنبياء فقط، فسألهم عن هذا الرسول، فقالوا: إنه يولد في شعب في البلد الأمين، في بيت رئيس العباد، ويسمى بـ «نراشنس» (محمد) ويكون له أربعة خلفاء واثنتا عشرة زوجة. فلم يزل الملك يسأل ويبحث عن «نراشنس» هذا حتى عرف أنه ظهر بمكة والمدينة. فرجع إلى أهل بيته وأخبرهم جميعًا أنه اختار دين نراشنس (محمد) فاستشاطوا غضبًا، وسلبوه ملكه، وأجلّوه مع ملكته ـ زوجته ـ إلى الصحاري والغابات. فقضى بقية حياته فيها، يذكر نراشنس (محمداً) ويعبد ربه(١).

---

(١) ذكر هذه القصة الدكتور «كملا كانت، تيواري» من سكان بنارس/ الهند، في كتابه: كل يك كـ أنتم رشي (خاتم النبيين للعالم الأخير) ص٥، باللغة الهندية، طبع بنارس، الهند، وقد أخذ هذا التفصيل من كتاب: «أنتم إيشور دُت» (آخر رسل الله) ص٩٧، تأليف: بندت دهرم وير، أبادهياي، طبع: برنتنك بريس، دريا كنج/ دهلي، سنة ١٩٢٧م.

ثم يقول صاحب المكاشفة في تراتيل من عشر إلى ثلاث عشرة:

स्लेच्छैस्सुदूपिता भूमिबीहीका नाम विश्रुता ।
आर्य्यधर्मों हि नैवात्र वाहीके देशदारुणों ।। १० ।।
वभूवात्र महामायी योऽसौ दग्धी मया पुरा ।
त्रिपुरी वलिदैत्येन प्रेपित: पुनरागत: ।। ११ ।।
अयोनि: स वरो मत: प्राप्तवान्दैत्यवर्द्धन: ।
महामद इति ख्यात: पैशाचकृतितत्पर: ।। १२ ।।,
नागन्तन्यं त्वया भूप पैशाचे देशघूर्तके ।
मत्प्रसादेन भूपाल तव शुद्धि प्रजायते ।। १३ ।।

المعنى:

* إن الأنجاس قد أفسدوا الأرض المعروفة باسم العرب، فلا يوجد في بلاد العرب دين الآريين.

* قد كان فيها من قبل شيطان مضل فأهلكته، وقد جاء مبعوث ذلك العدو القوي مرة أخرى.

* إن الذي حصل مني على لقب «برهما» واشتهر بـ «محمد» مشتغل بإصلاح أولئك الأعداء الكفار، وهدايتهم وفلاحهم.

* أيها الملك، لا تذهب إلى بلاد الكفار الحمقى، إنك ستزكى ههنا بفضلي.

ثم يقول في أواخر هذا البيان:

रात्रौ स देवरूपश्च बहुमायाविशारद:।
पैशाचं देहमास्थाय भजराजं हि सोऽब्रवीत् ।। २३ ।।
आर्य्यधर्मो हि ते राजन्सर्वधर्मत्तिम: स्मृत: ।
ईशाज्ञया करिय्यामि पैशार्च धर्मदारुणाम् ।। २४ ।।
लि ङ्गच्छेदी शिखाहीन: शम्श्रु धारी स दूपक: ।
उच्चालापी सर्वभक्षी भविष्यति जनो मम ।। २५ ।।
र्विना कौलं च पशवस्तेपां भक्षया मता मम ।
सुसलेनैव संस्कार: कुशैरिव भविष्यति ।। २६ ।।
तस्मान्मुसलवन्ती हि जातयो धर्मदूपका: ।
इति पैशाचधर्मश्च भविष्यति मया कृत: ।। २७ ।।

المعنى :

* إن ذلك الحكيم، صاحب السيرة الملكوتية، وصاحب لبسة غير لبسة الآريين، قال للملك بهوج ليلاً .

* أيها الملك! إن دين الآريين أعلى من جميع الأديان، ولكنني بإذن الله العظيم أنفذ الدين القيم الذي هو دين أكلة اللحوم .

* إن متبوعى مختون، ليس له زر من الشعر(١) وهو ذو لحية، وصاحب انقلاب، وصاحب صوت رفيع ـ صوت الآذان ـ يأكل من كل ما هو حلال .

* يأكل من جميع بهيمة الأنعام، ولا يأكل الخنزير، وتزكية أصحابه بالحروب، بدل النبات المقدس .

* وهم لأجل قتالهم ضد قوات الكفار والملحدين يسمون بالمسلمين . وإن دين هؤلاء القوم أكلة اللحوم، إنما يكون من قبلي .

ومع وضوح معاني هذه التراتيل ومصداقيتها نسجل النقاط مرة أخرى مع إيضاح بعض الجوانب :

أ ـ فالرسول المصلح المبشر به، اسمه « محمد » .

ب ـ ومقره بلاد العرب .

ج ـ ودينه غير دين الآريين ـ أي غير الدين الهندوسي ـ ولكنه دين الله القيم .

د ـ وهو مختون، والهندوس لا يختتنون .

هـ ـ ولا يكون في رأسه زر من الشعر، بينما هذا من شعار الهندوس .

---

(١) من شعار دين الهندوس الخاص بهم أنهم يتركون في وسط الرأس مجموعة من الشعر، لا يحلقونها ولا يقطعونها، فتمتد وتطول عن بقية الشعر، وتصير مثل زر الطربوش، وهم يسمونها « شوتي » و« شركي » بضم الأول وسكون الثاني في اللفظين.

و ـ ويرفع صوته بالآذان، وليس في غير دين محمد ﷺ أذان أو شعار يرفع له الصوت مثل الأذان، فالهندوس شعارهم البوق مثل اليهود، والنصارى لهم الناقوس، والمجوس وبعض الفرق من الهندوس شعارهم النار.

ز ـ وهو يكون من أكلة اللحوم، يأكل من جميع البهائم، ويأكل من كل ما هو حلال، ولا يأكل الخنزير.

والهندوس لا يأكلون اللحم إطلاقًا، بل يرون أكله من فساد الدين. وبعضهم يأكلون، ولكن لا يأكلون من جميع البهائم، بل يأكلون من بعضها ويقدسون بعضها الآخر، مثل البقر. فإنهم جعلوها إلهًا لهم، وكذلك رهبانهم لا يأكلون من جميع ما هو حلال، ولو كان من جنس غير الحيوان، مثل الحبوب والبقول والفواكه، فإنهم لا يأكلون كثيراً منها، ويرون ذلك من لوازم الدين، أما اليهود فقد حرم عليهم كثير من الطيبات، وأما النصارى فقد أحلوا أخبث الموجودات، فإذن هذا الرسول بهذه الصفة ليس إلا محمداً ﷺ.

ح ـ وهو يدعو الكفار والملحدين إلى الحق ويقاتلهم على ذلك، ويكون هذا القتال هو تزكية لأصحابه.

ط ـ وأصحابه يسمون بالمسلمين.

واختصاص هذه الخصائص والصفات والميزات بمحمد ﷺ من بديهيات السيرة والتاريخ، ومعلوم لكل من له أدنى إلمام بذلك، لا يحتاج إلى تفصيل ولا تعليق، فقد وجد في النبي ﷺ كل ما سبق، فهو الذي وردت فيه هذه البشارة قطعاً. وذلك قبل مولده. فالحمد لله رب العالمين.

البشارة بمحمد ﷺ

في كتاب كوسوامي تلسي داس

معروف أن « رام » اسم لأحد رجال الهندوس المقدسين، وهم يعدونه أحد كبار آلهتهم المزعومة. وله قصة غرامية حربية سجلها عدد من الهندوس، ودونوا حولها كتباً ضخمة، ومن أوائل هذه الكتب وأشهرها كتاب « رامائنش لرجل يعرف باسم « والميكى » أو « بالميكى » وكان هذا الرجل قبل ميلاد المسيح عليه السلام بزمان، حسب ما يقولون، فلما طال الزمان، وتغيرت اللغة، وصعب على الدارسين فهم الكتابه نقله أحد شعرائهم: « كوسوامي تلسي داس » إلى اللغة الهندية السائدة في زمانه، والمعروفة باللغة الشرقية فيما بين الهنود، وقد استفاد في تدوين القصة من مصادر أخرى، وزاد على الأصل زيادات، وضمن الكتاب مباحث قيمة وجدوها في كتب أخرى معترف بها عند الهندوس، ومن ذلك أنه تناول بشارة وردت في الفصل السادس من الباب الثاني عشر من كتاب « سنغرام بوران » فسجل تلك البشارة في لغته وأخلد ذكرها عند الهندوس، و« سنغرام بوران » كتاب يعد من تأليف « ويد وياس » مؤلف كتب الويدات.

ويعرف كتاب « تلسي داس » هذا باسم « رام شرت مانس » وهو كتاب يمتاز بالدقة والأناقة في التعبير، يقول فيه تلسي داس عن البشارة المشار إليها، والتي بشر الله بها حبيبه « شنمك » عن الرسول القادم والدين القادم. حسب ما يقوله مؤلف الكتاب:

यहां न पक्षपात कछु राखहूं ।
वेद पुराण संत मत भखहूं ।।

संवत् विक्रम दोउ अनङ्गा ।
महांकोक नस चतुर्पतङ्ग ।।

राजनीति भव प्रीति दिखावै
आपन मत सबका समझावै

सुरन चतुसुदर शतचारी
तिनको वंश भयो अतिभारी

तव तक सुंदरमाद्दिकोंया
बिना महामद पारन होए।

तबसे मानहु जन्तु भिखारी
समतथ नाम एहि व्रत धारी

हरः सुंदर निर्माण क होई
तुलसी वचन सत्य सच सोई

المعنى:

* هنا لا أنحاز إلى أحد، وإنما أقول ما قاله الأحبار والرهبان في ضوء الويد والبوران.

* إنه يولد في القرن السابع البكرمي، ويطلع - أو يشرق - في ظلام دامس مع أنوار شموسه الأربع.

* ويبين دينه لكل أحد بالحكمة والسياسة، فيبشر وينذر حسب ما تقتضيه الظروف.

* ويكون له أربعة خلفاء قدوسيين، وبتأييدهم ونصرتهم يكثر جداً عدد المؤمنين.

* ومنذ يظهر دينه وكلامه فلا نجاة لأحد بدون محمد.

* إن الإنسان والحيوان والحشرات كلهم يقتربون إلى الله باسم ذلك الرسول سيد العالم.

* ثم لا يولد له مثيل ولا نظير، وإن ما يقوله تلسي داس لحق صادق.

هذا، وقد اختلفت النسخ ببعض الفوارق البسيطة حول بعض الكلمات بدون تغيير للمعنى، بينما وجد في بعض النسخ ثلاثة أبيات زائدة، بعد البيت الأول. وهي:

देश अरब में भरकता सुहाई ।
सो थल भूमि गत्-सुनो-खकराई ।।

वर्ष सहस्त्र दस सुन्द्रम होई ।
तेहू के बाद न पाये कोई।।

शम्भु समत ताकर होई ।
सुन्द्रम देश थमत सोई।।

इन का अनुवाद यह है:

وترجمة هذه الأبيات الثلاثة كما يلى:

*إلى عشرة آلاف سنة تكتمل مرتبة الرسالة فلا يحظى بها أحد بعدها.

* يتألق نجم في بلاد العرب، ويكون لهذه الأرض شأن مغتبط.

* تظهر منه الخوارق والمعجزات، ويقال له إنه ولي الله.

ومعانى ودلالات هذه الأبيات السابقة كلها واضحة جداً، ولكن لا بأس أن نشير إلى بعض النقاط إشارة عابرة لمزيد الإيضاح. فنقول:

أ - إن هذه البشارة تخبر بولادة المبشر به في القرن السابع البكرمي، وقد ولد محمد ﷺ سنة ٦٢٨ بكرمية، وهو تقويم معروف عند الهندوس، يعملون به إلى هذا اليوم، فمولده ﷺ مطابق تماماً لما ورد في هذه البشارة.

ب - طلوعه أو شروقه في ظلام دامس يعني ظهوره حين تشتد ظلمات الجاهلية، وقد كان ظهور محمد ﷺ في مثل هذه الظروف.

ج - شموسه الأربع هم خلفاؤه الأربعة: (١) أبو بكر (٢) وعمر (٣) وعثمان (٤) وعلى رضي الله عنهم أجمعين. وهم الذين عبر عنهم في البيت الرابع بأربعة

قدوسيين. وقد كان كل منهم منار الرشد وعلم الهداية والنور، وبفضل تأييدهم ونصرتهم وقيامهم بأمر الإسلام بعده ﷺ كثر عدد المسلمين كثرة لاتعد ولاتحصى.

د - هو يدعو إلى دينه بالتبشير والإنذار. وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾**.

ه - كونه سيد العالم، لا نظير له. معروف.

و - وفوق كل هذه النقاط التصريح باسمه: محمد ﷺ، وباسم بلاده: العرب.

فهذه بشارة من البشائر الواضحة جداً بنبينا محمد ﷺ، ولا تزال تحتفظ بها كتب الهندوس المعترف لديهم دينيًّا وعلميًّا، فلله الحمد.

مكة المكرمة والكعبة المشرفة

مع قصة ذبيح الله في كتاب اتهرووید

للكعبة المشرفة ومكة المكرمة بيان لطيف ووصف غريب في كتاب اتهرو ويد، أحد الكتب المقدسة عند الهندوس، ففيه سوكت (فصل) طويل، موضوعه قصة «برش ميدهـ» أي ذبح الإنسان على وجه التقرب إلى الله، يخبر الفصل عن إنسان عظيم قدم ليذبح لله سبحانه وتعالى، وهذا الفصل يقرأ ويتلى في مناسبات شتى لذكر هذا الحادث الجليل.

وقد ذكروا أن اسم هذا الذبيح «أتهروا» واسم والده «برهما» وأن أتهروا كان بكر أبيه، ثم كان له أخ آخر أصغر منه، اسمه «أنكر»، أو «انكرسي».

وهذه الصفات تصدق تمامًا على إسماعيل عليه السلام، فاسم والده إبراهيم، (عليه السلام). ولفظ برهما قريب جدًّا من لفظ إبراهيم، وليس بينهما إلا فرق اللهجتين، ومعلوم أن إسماعيل كان بكر أبيه، ثم كان له أخ صغير ولد بعده بأعوام،وهو إسحاق عليه السلام.

ومن الطرائف أن كلمة «أتهروا» معناها: منبع الماء العذب. و«أنكر» أو «أنكرسي» معناه منبع الماء الأجاج، فهما اسمان وصفيان يشيران إشارة لطيفة إلى خصائص الشعبين: بني إسماعيل، وبني إسرائيل، فبنو إسماعيل هم العذب الفرات لما اتصفوا به من المروءة والتقوى، والجود والكرم والشجاعة والشهامة والشرف والنبل، والسماحة وسعة الصدر، والقيام بكل ما هو من عمل الخير، مع إيمانهم بالله وبأعظم رسول لله، مع قيامهم بالدعوة إلى الله، وبذلهم كل غال ورخيص في سبيل الله، أما بنو إسرائيل فلا شك أنهم هم الماء الأجاج، لما اتصفوا به

من الخبث والدهاء، والمكر والحسد، والجبن والخور، والشح والبخل، وضيق الصدر والانغماس في الشر، والقيام بالمؤامرات السرية والجهرية ضد المجتمع البشري بجانب تحريفهم لكتاب الله، وصدهم عن سبيل الله، وقتلهم الأنبياء والرسل.

بعد هذا القدر من الإيضاح نقدم ما جاء حول هذا الموضوع، فأولاً صورة ما جاء في أتهرو ويد: كاند (باب) ١٠، سوكت (فصل) ٢، تراتيل ٢٦ - ٣٢:

मूर्धानमस्य संसीव्याथर्वा हृदयं च यत् ।
मस्तिष्कादूर्ध्वः प्रैरयत् पवमानोधि शीर्षतः ।। २६ ।।

तद् वा अथर्वणाः शिरो देवकोशः समुब्जितः ।
तत् प्राणी अभि रक्षति शिरो अन्नमथे मनः ।। २७ ।।

ऊर्ध्वो नु सृष्टा ३ स्तिर्यङ् नु सृष्टाः सर्व दिशः पुरुष आ
बभूवा ३।
पुरं यो ब्रह्मणों वेद यस्याः पुरुष उच्यते ।। २८ ।।

यो वै तां ब्रह्मणो वेदामृतेनावृतां पुरम् ।
तस्मै ब्रह्म च ब्राह्माश्च चक्षुः प्राणं प्रजां ददुः ।। 29 ।।

न वै। तं चक्षुर्जहाति न प्राणी ज़रसः पुरः ।
पुरं यो ब्राह्मणो वेद यस्याः पुरुष उच्यते ।। 30 ।।

अष्टाचक्रा नवद्वारा देवानां पूर्योध्या ।
तस्यां हिरण्ययः कोशः स्वर्गोज्योतिषावृतः ।। 31 ।।

तस्मिन् हिरण्यये कोशे त्र् यरे त्रिप्रतिष्टिते।
तस्मिन् यद् यक्षामात्यमन्वत् तद् वै ब्रह्मविदी बिदुः ।।32।।

प्रभ्राजमानां हरिणीं यशसा संपरीवृताम् ।
पुरं हिरण्ययीं ब्रह्मा विशेशापराजिताम् ।।33।।

अथर्व-वेद काँड १० । २ । २६-३३

والمعنى:

* إن أتهروا خاط رأسه بقلبه.

والقداسة كانت تفوح أو تتحرك من فوق رأسه وجبهته. (٢٦)

* وإن موضع رأس أتهروا مهبط للملائكة ومغلق بإحكام. تحفظه الملائكة والرأس والحبوب والقلب. (٢٧)

* إنه وإن كان قد بنى مرتفعًا، وبنى معوجًا، ولكن الله متجل في أطرافه.

وإن العارف يعرف أنه حرم الله، ولأجله يدعى الله. (٢٨)

* الذي يعرف حرم الله هذا، المعمور بالحياة.

فإن الله يعطيه البصيرة والحياة والأولاد. (٢٩)

* لا تتفارق البصيرة والحياة قبل الهرم.

الرجل الذي يعرف حرم الله هذا، لأن الله هو الذي يدعى هناك. (٣٠)

* هي مدينة الملائكة، غير محاربة ولا مغزوة، بها ثمانية حواجز أو جبال، وتسعة أبواب أو أنقاب.

فيها كنز للحياة الأبدية، وتحيط بها أنوار البركات النورانية. (٣١)

* إن ذلك البيت الذي هو كنز السعادة الأبدية، وذو العمود الثلاثة والثلاثة.

هناك الإله الذي هو روح الكل، ويعرف ذلك من يعرف الله. (٢٣)

* تحيط به أنوار البركات السماوية.

جاء برهما وأقام بهذه القرية التي لا تفتح. (٣٣)

الشرح والإيضاح:

ونستحسن في الشرح والإيضاح أن نأخذ هذه التراتيل واحدة واحدة، ونبين ما فيها من المعاني والإشارات.

فالترتيلة الأولى: (رقم: ٢٦)

تصف الذبيح وتبين تسليمه لأمر الله، وتمدح قداسته وتقواه، فمعنى «خاط رأسه» أنه رضي بأمر الله ظاهراً وباطناً، فرضي بقلبه وخضع رأسه ليذبح، فهو في معنى قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾** [٣٧، ١٠٣].

ومعنى «تحرك القداسة والتقوى من فوق الجبهة والرأس» أنه لم يكن يريد بذلك إلا مرضاة الله سبحانه وتعالى، وامتثال أمره، فهو يفيد المعنى المذكور في قول الله عز وجل حكاية عن إبراهيم عليه السلام أنه لما: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [٣٧: ١٠٢] وجوابه هذا يفيد أنه كان حليمًا، صالحًا، صادق الوعد، وكان عند ربه مرضيًّا. وبما جاء من عنده راضيًا، وكان ورعًا تقيًّا.

والترتيلة الثانية: (رقم: ٢٧)

تصف موضع هذا الذبيح، وقد وصفته بالأوصاف الآتية:

١ ـ أنه مهبط للروح أو الأرواح، والروح جبريل، والأرواح الملائكة، ونزول جبريل والملائكة بمكة المكرمة، وبتعبير آخر: كون مكة المكرمة مهبط جبريل والملائكة معلوم لا يحتاج إلى البيان. جاء ذلك في القرآن ووردت به الآحاديث الصحيحة الثابتة.

٢ ـ وأنه مغلق بإحكام، أي لا يصل إليه أعداء الدين، ولا يسيطرون عليه، وهذا وصف اختصت به مكة المكرمة، والكعبة المشرفة، فلم يقصده ـ ولن يقصده ـ جبار إلا قصمه الله، وهي بكة، تبك أعناق الجبابرة، ولم يحصل هذا الوصف أو الشرف لأي بيت أو قبيلة أو مدينة مقدسة سوى بيت الله الحرام ومكة والمكرمة.

٣ ـ أن هذا المكان يحفظه أربعة أنواع من الحفظة، وهي:

أ ـ الملائكة: ووجود الملائكة حول الكعبة وحرم مكة وحفظهم لها مذكورة في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ. كما أشرنا.

ب ـ الرأس: والمراد به يمكن أن يكون قصة الذبيح العظيم، ويكون المعنى أن الله تعالى ضمن حفظ هذا المكان إلى يوم القيامة لأجل هذه التضحية العظيمة التي وقعت في هذا المكان، وبلغت الغاية القصوى في طاعة الله وطلب مرضاته.

ويمكن أن يكون المراد بالرأس الركوع والسجود في الصلاة، لأن الرأس هو موضع تمثل العبادة والخضوع في الركوع والسجود، أي إن العبد يكون في حالة أقصى غاية التذلل والخضوع حين يخفض رأسه أمام الله، وحين يضعه ساجداً على الأرض، فيكون المعنى أن الله ضمن حفظ هذا المكان لدوام الركوع والسجود، والطاعة والعبادة فيه، وهذا هو حال المسجد الحرام بمكة المكرمة، لا تدخل فيه في أي ساعة من ليل أو نهار إلا وتجد الناس طائفين عاكفين، ركعًا سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا.

ج ـ **الحبوب**: وهو أيضًا يحتمل معنيين:

الأول: أن الرزق من الحبوب يصل إلى هذا المكان دائمًا، فلا يضطر أهلها إلى هجرته وتركه خاويًا مع أنه واد غير ذي زرع، لا ماء فيه ولا نبات، وقد أدام الله لأهل مكة الرزق طوال آلاف السنين بحيث لم يضطروا إلى الهجرة لأجل الجوع والفقر، مع كونها منطقة جافة، لا زرع فيها ولا نبات.

الثاني: أن تكون الحبوب إشارة إلى الصدقة، والمعنى أن الموجودين في هذا المكان يلتزمون بالصدقة والإنفاق في سبيل الله، وبذلك يحل عليهم رضوان الله، فهو يحفظهم من كل مكروه ويصونهم من كل عدو.

وهذه هي أحوال أهل مكة والنازلين فيها، فإنهم لم يزالوا ملتزمين بالصدقة والإنفاق في سبيل الله ـ مهما كانت الظروف ـ من غابر الزمان إلى هذه الأيام. وبصورة قلما يوجد لها نظير في العالم.

د ـ **القلب**: وواضح أن المراد به الإيمان والإخلاص، أي إن الناس يتجهون ويتوجهون إلى هذا المكان بقلوب مؤمنة مخلصة خاشعة لله، فالله يحفظ هذا المكان لأجل ذلك.

وهذا أيضًا لا ينطبق انطباقًا حقيقيًّا إلا على مكة والكعبة، فالمصلون في الدنيا كلها يتوجهون إلى هذا المكان كل يوم في صلواتهم، ولا يريدون بذلك إلا الله،

وملايين الناس يتجهون إلى هذا المكان في كل عام للحج والعمرة والزيارة ولا يريدون بها إلا الله.

ملاحظة:

فسر بعض الباحثين الرأس بإسماعيل، والقلب بإبراهيم عليهما السلام، وعلل ذلك بأن إسماعيل عليه السلام خضع برأسه للتضحية والذبح، وإبراهيم عليه السلام خضع بتضحية قلبه في سبيل رضى الله، وفسر الحبوب بدعاء إبراهيم عليه السلام لأهل هذا المكان بقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ...﴾.

أما الترتيلة الثالثة: (رقم: ٢٨)

فتصف مركز العبادة الذي بناه صاحبا قصة هذا الذبح: إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهو الكعبة المشرفة، وقد ذكرت من أوصافها الظاهرة أنها مرتفعة ومعوجة، ومن أوصافها الباطنة أنها حرم الله، وأن الله متجل في أطرافه. وهذا بيان جامع لأوصاف الكعبة المشرفة:

لأن بناءها مرتفع بأضعاف ما يكون الارتفاع لمثل هذه البنايات.

لأن هذا البناء معوج من الداخل والخارج، غير متساوي الأضلاع، فجداره الشامي أقل من أربعة عشر ذراعًا، في حين أن جداره المقابل ـ وهو الجدار اليماني ـ أكثر من أربعة عشر ذراعًا بنحو ثلثي ذراع. وكذلك طول الجدار الشرقي نحو ثمانية عشر ذراعًا وسدس ذراع، بينما الجدار الغربي ثمانية عشر ذراعًا وثلث ذراع ومثل هذا الاعوجاج موجود في ارتفاع السقف بين جهة وجهة(١).

هذا من ناحية مقارنة جدران البيت نفسه بعضها ببعض، وهناك اعوجاج آخر من ناحية مقارنة البيت بالجهات الأربع المعروفة، فإنه ليس على خط مستقيم نظرًا إلى هذه الجهات، بينما جرت العادة في البنايات بمراعاة الاستقامة من هذه الناحية،

(١) لينظر العقد الثمين ١/٥٣ – ٥٥.

ثم هو معوج أيضًا نظرًا إلى اتجاه وادى إبراهيم الذي يقع فيه بيت الله. ونظراً إلى اتجاه المساكن المبنية في مكة من قديم الزمان.

وكأن القائل يريد أن يقول بعد إشارته إلى اعوجاج بناء بيت الله: إن هذا البناء وإن كانت لا توجد فيه دقة فنية، ولكنه في مكان مقدس لأجل صفاته المعنوية، وهي أن الله متجل في أطرافه ولا يدعى في هذا المكان إلا الله، لا صنم ولا تمثال، ولا جن ولا ملك، ولا أي خرافة أخرى. ولأجل ذلك تكفل الله بحفظ هذا المكان، وعرف بين الناس بحرم الله. ولعل هنا إشارة إلى كون إبراهيم حنيفا أي معوجا عن المعوج فصار مستقيما.

أما الترتيلة الرابعة: (رقم: ٢٩)

والترتيلة الخامسة: (رقم: ٣٠)

فتصفان العارفين لحرمة هذا الحرم - وهم المؤمنون المخلصون - بأنهم فائزون بالبصيرة، وحائزون لسعادة الدنيا والأخرة. ويمكن أن تكون معرفة هذا الحرم إشارة إلى حجه، أى إن الذي يحج هذا الحرم، وهو يؤمن بأنه حرم الله، أي يحج إيمانًا واحتسابًا فهو يحوز السعادة والخير طول حياته وبعد وفاته، ويبقى على بصيرة لأنه متمسك بتوحيد الله.

والترتيلة السادسة: (رقم: ٣١)

تصف مكة المكرمة وصفًا دقيقًا يميزها من بقية مدن العالم، فقد تناولت من أوصافها أنها:

١- مدينة الملائكة، وهذا وصف لا يعرف إلا بالوحي وإخبار الأنبياء، وقد عرف هذا الوصف بهذا الطريق لمكة المكرمة.

٢- غير مغزوة ولا محاربة. وهذا وصف انفردت به مكة المكرمة، فإن مكة لم يغزها ولم يحاربها أحد، بل لم يقصدها من جبار إلا قصمه الله، وقصة أصحاب

الفيل معروفة. أرادوا غزوها فأهلكهم الله قبل أن يدخلوا حدود مكة، ولا يعرف في الدنيا كلها أي مدينة مقدسة أخرى إلا وقد تسيطر عليها أعداؤها.

٣ ـ بها ثمانية حواجز وتسعة أنقاب. وهذا هو وضع مكة المكرمة تمامًا، تحيط بها ثمانية أجبل وينفذ إليها تسعة طرق. فأما الجبال الثمانية فهي:

١ ـ جبل أبي قبيس.

٢ ـ جبل الخندمة.

٣ ـ جبل أذاخر.

٤ ـ جبل قعيقعان.

٥ ـ جبل الكعبة.

٦ ـ جبل العافر وله أسماء أخرى وهي: ثبير، ذو أعاصير، جبل عمر، جبل الناقة وجبل الزنج.

٧ ـ جبل أجياد ويعرف أيضًا بجبل القلعة.

٨ ـ جبل المصافي ويعرف جزؤه الشمالي بسبع بنات.

هذه الجبال الثمانية هي التي تحيط بوادي الكعبة وبمكة المكرمة القديمة. (انظر الخريطة).

أما منافذ مكة ومداخلها الطبيعة فهي تسعة من قديم الزمان، وفيما يلي بيانها:

١ ـ طريق أجياد الصغير، بين جبل أبي قبيس وجبل سبع بنات.

٢ ـ طريق بئر بليلة بين جبل المصافي وجبل أجياد القلعة، يخرج إلى جبل ثور.

٣ ـ طريق المسفلة، بين جبل أجياد القلعة وجبل عمر (جبل العافر).

٤ ـ طريق جبل الكعبة، بين جبل عمر وجبل الكعبة.

٥ ـ طريق جدة من جهة الشبيكة وجرول، بين جبل الكعبة وجبل قعيقعان.

٦ ـ طريق ريع الكحل، جنوب جبل الكحل.

٧ ـ طريق حي العتيبية الغربي، شمال جبل الكحل.

٨ ـ طريق أذاخر، غرب جبل أذاخر.

٩ ـ طريق المعابدة، بين جبل الخندمة وشرقي جبل أذاخر، وهو الطريق الرئيسي إلى منى وعرفات من قديم الزمان.

والحاصل أن الصفات المذكورة في هذه الترتيلة كلها تنطبق على مكة المكرمة انطباقًا كاملاً، ولا توجد أي مدينة في الدنيا كلها تنطبق عليها هذه الصفات.

أما الترتيلة السابعة: (رقم: ٣٢)

فتصف بيت الله الكعبة بنوعين من الصفات، الأول أنه كنز السعادة الأبدية، وبيت الإله الحق، وعبر عن الإله الحق بروح الكل، لأنه خالق كل شيء وهذه صفات معنوية لبيت الله، ومن خصائصه المعروفة بالضرورة ..... والثاني أن هذا البيت ذو الأعمدة الثلاثة والثلاثة، أي أنه ذوستة أعمدة، وهذا وصف مادي لبيت الله، وهو في الواقع ذو ستة أعمدة، ثلاثة في صف وثلاثة في صف آخر.

وأما الترتيلة الأخيرة: (رقم: ٣٣)

فهي بعد وصف بيت الله بأنه محاط بأنوار البركات السماوية ذكر وصفين مهمين له، وهما:

١ ـ إقامة برهما بهذه القرية.

٢ ـ وكون هذه القرية غير مفتوحة.

وبرهما اسم أطلق في اصطلاح الويدات أحيانًا على الله سبحانه وتعالى، وأحيانًا على بعض عباده المقربين، ولم يستبعد عدد من الباحثين أن يكون هو هنا اسم إبراهيم عليه السلام.

فإن أردنا المعنى الأول، أي الله، فالمراد بإقامته في هذه القرية أن هذا البيت وهذه القرية مركز عبادته، ومهبط وحيه ودينه، ومنطلق دعوته ورسالته، وإن أردنا به إبراهيم عليه السلام فالأمر واضح، فإنه أسكن ابنه البكر إسماعيل عليه السلام بهذه القرية، وجعلها منطلق دعوته، حتى بنى بها بيت الله الحرام، وجعله المركز الرئيسي لعبادة الله في الأرض، وطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود. وأذن في الناس بالحج فطفقوا من ذلك الوقت يأتون إليه رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق.

أما كون هذه القرية غير مفتوحة فمعلوم أن مكة المكرمة هي القرية الوحيدة التي لم يسيطر - ولن يسيطر - عليها الأعداء، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ملاحظة:

مما يلفت نظر الباحثين من أهل العلم والفضل أن معابد وهياكل الهندوس الأصلية والكبيرة كلها مبنية في اتجاه الكعبة المشرفة، وهم يتوجهون إليها أثناء العبادة، ولا يعرفون سر هذا الاتجاه والتوجه، بل يعدونه من الأسرار التي لم تكشف بعد.

* * *

أسماء أخرى لمكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الهندوس

للهندوس مدن وأماكن مقدسة يزورنها للتبرك والتعبد، ويقيمون بها أعياداً واحتفالات في كل عام مرة أو مرتين، يؤدون فيها طقوساً وعبادات هي من صميم دينهم، وسبب لغفران آثامهم وذنوبهم، حسب إيمانهم وعقيدتهم. وقد ورد في كتبهم المقدسة من الويدات والبورانات وغيرها ذكر مكان من تلك الأماكن المقدسة، لم يعرفوا حتى الآن موقعه بالضبط، بينما هو أقدس مكان في نظرهم. ولزيارته عندهم فضل لا تبلغه زيارة أي مكان آخر، وقد صرحوا بأن هذا المكان المقدس ليس في داخل الهند. وذكروا له عدة أسماء تدل على عدد من الصفات الموجودة فيه. وتلك الأسماء هي:

١ ـ إلاسبد أو إلاياسبد.	१- इलास्पद या इलायास्पद
٢ ـ نابها برتهويا.	२- नाभा प्रथिव्या
٣ ـ نابهي كمل.	३- नाभी कमल
٤ ـ آدي بشكر تيرتهـ.	४- आदि पुष्कर तीर्थ
٥ ـ داور كابن.	५- दारू कावन
٦ ـ مكتيشور.	६- मक्तेश्वर

وإذا دققنا النظر في هذه الأسماء يتبين لنا كثير مما يحتار فيه الهندوس. ففيما يلي نشرح هذه الكلمات، ونبين معانيها الحق حتى تستبين السبيل.

إلاسبد أو إلاياسبد:

هي كلمة سنسكرتية مركبة من لفظين: أحدهما «إلا» أو «إلايا» بكسر الهمزة وتخفيف اللام، وكلاهما بمعنى «الله». وإلا، وإلايا، وإيل، وإيليا، وإيليه كلها كلمات سنسكرتية يطلق على الله سبحانه وتعالى، كما أن الألفاظ الثلاثة الأخيرة وكذلك إله، وإلواه، وإلوهيم، وإلهيا، تطلق عليه سبحانه وتعالى في العبرية، وعدد منها في العربية أيضًا.

وأما «سبد» فالسين فيه زائدة للرابطة، و«بد» معناه البيت والمكان، فمعنى «إلاسبد» بيت الله أو بلد الله.

نابها برتهويا:

هذا الاسم مركب من كلمتين: أولاهما: نابها، ومعناها: السرة التي تكون في البطن، وثانيتهما: برتهيويا: ومعناها الأرض، ولا تزال هذه الكلمة تطلق على هذا المعنى في عامة لغة أهل الهند. فمعنى مجموع الكلمتين: سرة الأرض.

يقول رك ويد ٤ / ٢٩ / ٣ ـ وقد جمع بين الاسمين: إلاسبد، ونابها برتهيويا ـ:

أي إن بيت إلهنا في سرة الأرض.

ومزيد التفصيل في الاسم التالي. وهو:

نابهي كمل:

وهذا الاسم أيضًا مكون من كلمتين: إحداهما «نابهي» بمعنى السرة مثل «نابها» وثانيتهما: «كمل»، وهي نيلوفر، ونيلوفر اسم زهرة بيضاء جميلة معروفة، وتكثر في الهند في الترع ومناقع المياه، وللهندوس علاقة خاصة بهذه الزهرة تنبئ عن إعجابهم بها، وتقديرهم ـ بل تقديسهم ـ لها، فمعنى «نابهى كمل» زهرة السرة أو سرة الزهرة.

وقد ذكر في بدم بوران أن هذا هو المكان المقدس الذي بدأ منه خلق الكون. وقد جاء في «هري ونش بوران» لبندت «شري رام شرما» ٢/ ٤٩٩ ـ ٥٠١ بعض التفاصيل لهذا المعنى، يقول:

«إن الله لما أراد أن يخلق هذا الخلق خلق زهرة نيلوفر هذه، وفيها صفات كل الأرض، ثم صار ما خرج من رحمها من الأوراق جبالاً، وفي وسط هذه الجبال جمبوديب، (جزيرة ماء الحياة) وهو مركز العبادات العظيمة والأعمال الصالحة، وإن أوراق هذه الزهرة كأنها هي ما في داخل الأرض من الجبال والمعادن، ومن الصعب جداً معرفة هذا المكان، وهو مليء من غير الآريين، وفي أسفل مكان تحت هذه الزهرة مكان الشياطين، وأسفل منه جهنم، والذي في جنب نيلوفر من الشعرات المتينة يقال لها مركز الوحدة، والذي يوجد في أرجائه الأربعة من المياه يقال لها البحور الأربعة. هكذا أخبر الأنبياء السابقون أصحاب العلوم العظيمة، وإن زهرة السرة هذه هي أصل بداية العالم، منها خرجت الجبال والأنهار، ودحيت بلاد الأرض»(١).

وهذا البيان لا يحتاج إلى تعليق كبير أو توضيح كثير، فمكة المكرمة هي المعروفة باسم «سرة الأرض» من قديم الزمان. وقد ثبت علميًّا وجغرافيًّا وطبوغرافيًّا أنها هي سرة الأرض في الواقع. فإذن الكعبة المشرفة هي زهرة سرة الأرض، وهو بيت الله الذي عبر عنه بـ«إلاسبد» ومعلوم أن موقعه في وسط الجبال، وقد أحاطت البحور بهذا البلد من جوانبه الأربعة. أما الشعرات المتينة في جنبه فهي المسجد الحرام وحرم مكة ومشاعر الحج، ولا شك أنها مركز الوحدة، فكل صنف من الناس يتوجهون إليها من كل بقعة في العالم، وهم كلهم في لباس واحد، مرددين كلمات وشعارات موحدة، فيجتمعون ويقيمون في مكان واحد، ويمسون

(١) من كتاب «اكر اب بهى نه جاكــ تو» لشمس نويد عثماني، ص١٥٦، مع شيء من التلخيص.

ويصبحون في حالة واحدة، ويقومون في صف واحد، سواء العاكف فيه والباد، فلا تجد في العالم كله من مظاهر الوحدة ما يدانيه، فضلاً عن أن يساويه.

ثم إن هذا المكان هو الذي نودي منه بالمساواة بين الأسود والأحمر من الناس، وبالتخلي عما يخالف الوحدة البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ومن هذا المكان نودي بكلمة التوحيد التي هي أساس توحيد الكلمة، فهذا المكان هو مركز الوحدة في العالم.

هذا، وقد ورد من بعض الصحابة والتابعين ومن بعدهم بعض ما يدل على بداية خلق هذه الدنيا من مكة المكرمة، ومن تحت الكعبة المشرفة، وأن الكعبة المشرفة كانت في صورة تقارب صورة الزهرة المذكورة، فقد روي عن عبد الله بن عباس(١) وعبد الله بن عمر(٢) وكعب الأحبار(٣) ومجاهد(٤) وعطاء(٥) وابراهيم النخعي(٦) ما يفيد أن الله خلق الكعبة المشرفة قبل الأرض بزمان ثم دحا الأرض من مكة من تحت الكعبة المشرفة. وأفادت رواية كعب الأحبار أن الكعبة كانت غثاء على الماء قبل خلق السموات والأرض(٧). بينما نجد رواية ابن عباس أكثر أيضاحًا منها. تقول هذه الرواية: إنه لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض بعث الله تعالى ريحًا هفافة، فصفقت الماء فأبرزت عن خشفة في موضع هذا البيت كأنها قبة. فدحا الله الأرضين من تحتها، فمادت ثم مادت،

(١) رواه الطبراني في تاريخه ١/٤٩ وذكره القرطبي في تفسيره ١٩/٢٠٥.

(٢) أيضا رواه الطبراني في تاريخه ١/٤٩.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ١/٣١.

(٤) نفس المصدر السابق ١/٣٢.

(٥) الدر المنثور ٨/٤١٢.

(٦) نفس المصدر ٨/٤١٢.

(٧) أخبار مكة للأزرقي ١/٣١.

فأوتدها الله تعالى بالجبال، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس. فلذلك سميت مكة أم القرى(١).

والخشفة (بفتحتين) حجارة تنبت في الأرض نباتًا، وتروى: «خشعة» (بضم فسكون) وهي أكمة لاطئة بالأرض، وقيل: ما غلبت عليه السهولة، أي ليس بحجر ولا طين(٢).

أقول: فما أشبه التعبيرات الثلاثة عن أصل الكعبة: زهرة نيلوفر، والغثاء، والخشفة أو الخشعة، فإنها كلها تشير إلى شكل واحد، وهو أنها كانت بيضاء جميلة ناعمة رخوة، فالأمر كما قال القائل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير

آدي بشكر تيرتهـ:

هي مجموعة مكونة من ثلاث كلمات سنسكرتية: إحداها: آد، أو آدي، ومعناها: الأول والأقدم، والثانية: «بشكر»، ومعناها: الرب، والثالثة: «تيرتهـ»، معناها: المكان المقدس الذي يزار للتعبد فيه والتبرك به، فيكون حاصل معنى هذه المجموعة: آدي بشكر تيرتهـ: أول بيت الرب الذي وضع للعبادة والزيارة.

وهذه صفة بيت الله الكعبة، قال الله تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾** [آل عمران: ٩٦].

وقد جاء في «بدم بوران» في فضل هذا البيت:

«إن الذي يتمنى في قلبه أن يخدم هذا البيت فإنه يتطهر من الذنوب جميعًا.... والذي يزور هذا البيت فإنه يستحق ثوابًا لا نهاية له،..... وإنه أول

(١) نفس المصدر ١/٣٢.

(٢) النهاية لابن الأثير ملخا ٢/٣٤، ٣٥.

وأقدم بيت من بيوت الزيارة والعبادة، وبزيارة بيت الرب القديم هذا، وبالاغتسال هناك تحصل النجاة»(١).

«وإن هذا البيت سر من أسرار الأنبياء»(٢).

داروكابن:

تردد المحققون في تعيين معنى هذا الاسم، والأغلب أنه مركب من ثلاثة ألفاظ، أولها: «دار» أو «دارو»، وهو يطلق على المرأة، وآخرها: «بن» ومعناه: الصحراء، واللفظ الذي في الوسط يفيد معنى الربط، فيكون المعنى مقاربًا لـ «أم القرى» أو مطابقًا له، وهو في عقيدة الهندوس مكان مقدس وضع للعبادة والزيارة، يقول «رك ويد» ٣/١٥٥/١٠:

«أيها العابد، إن داروكابن الواقع في بلد بعيد، قريبًا من ساحل البحر، ليس من صنع البشر، فاعبد ربك فيه، وتدخل الجنة برحمته».

ودلالة هذا الكلام واضحة جدًا، فإن مكة هي أم القرى، وهي تقع بين الصحاري والجبال، بعيدة عن الهند، قريبًا من ساحل البحر الأحمر، واتفقت المصادر الإسلامية أن تحريمها وتقديسها ليس من صنع البشر، بل هو من صنع الله، فقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه فقال وهو يدعو: **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾** [إبراهيم: ٣٥] وأمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: **﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** [البقرة: ١٢٥ ومثله في سورة الحج: ٢٦] وقال النبي ﷺ في خطبة الوداع: إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس(٣).

---

(١) مجلة «كليان» الصادرة من غور كفور، عدد أكتوبر ١٩٤٤م ص٩٦.

(٢) نفس المجلة ص٩٥ (بواسطة كتاب شمس نويد عثماني ص١٥٧).

(٣) صحيح البخاري: كتاب العلم ح١٠٤.

مكتيشور:

هذا الاسم مجموع كلمتين: مكة، وإيشور.

أما كلمة مكة فكان من الطبيعي أن يحتار حولها الباحثون إذا جهلوا البلد الأمين، أو إذا لم يعترفوا بالحقيقة، وهي مكة المكرمة المعروفة في العالم أجمع. ولا يوجد مكان آخر سمي بهذا الاسم في العالم كله، ولعل هذا هو السبب الذي اضطر العالم الإنجليزي «سير مونير وليمس» أن يقول باعتراف واضح في معجمه اللغوي: سنسكرت إنجليزي: The City of Macca , Yagya أي هذه بلدة مكة، موضع الهدي والأضاحي.

وأما كلمة «إيشور» فمعناها: الله، فصار مجموع الكلمتين: مكتيشور: مكة الله، أو موضع تقديم الهدي والأضاحي لله.

والدلالة واضحة على كلا المعنيين، ومما لا يحتاج إلى البيان أن مكة المكرمة هي أكثر موضع في العالم لتقديم الهدي والأضاحي إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد صرحت مجلة «كليان» الهندوسية بأن هذا المكان ليس في بلاد الهند(١).

(١) عدد يناير عام ١٩٨٠م ص٢٢٥ (من كتاب العثماني ص١٥٨).

أسماء محمد ﷺ وألقابه

في كتب الهندوس

وفي الأخير نرى أن نسجل تلك الأسماء والألقاب التي وردت في كتب الهندوس أثناء الأخبار والتبشير عن النبي ﷺ، وتلك الأسماء إما سنسكرتية يطابق معناها تمامًا للأسماء العربية، كأنها ترجمة حرفية لها، وإما عربية، ولا تختلف في التلفظ عن لهجاتها العربية إلا بقدر ما يوجد من الفوارق بين اللهجات أو أقل منها، وإليكم تلك الأسماء والألقاب.

أ-اسم محمد وما يرادفه (ﷺ)

١ ـ موحمد، محامد، محمد

ورد هذا الاسم العربي الصريح في بهوشيه بران قسم ٣، باب ٣، فصل ٣، منتر ٥، ١٢، ١٤، ١٨، وفي شريمد بها كود: مهاتم بران ٢ : ٧٦، وفي ألله أبنشد، وفي سنغرام بران: سكند ١٢، كاند ٦، من ترجمة تلسي داس.

٢ ـ مامح

ورد هذا الاسم في أتهرو ويد: باب ٢٠، فصل ١٢٧، منتر ٣، وفي رك ويد: باب ٥، سوكت ٢٧، منتر ١ . وقد تقدم، وتقدم الكلام فيه.

٣ ـ نراشنس

هذا الاسم أكثر أسمائه ﷺ ورودًا في بشارات الهندوس، وقد ورد حوله من المدح والثناء مع ذكر الصفات وبيان الخصائص والميزات ما لا يترك مجالاً لأدنى

شك في كون المراد به محمداً ﷺ، وقد تقدم ذكر هذه الصفات والخصائص والميزات. وهناك بَيَّنّا معناه اللغوي وأن هذا اللفظ ترجمة حرفية للفظ «محمد» ﷺ.

وقد حاول أهل العلم من الهندوس وغيرهم استقراء هذا الاسم في كتبهم المقدسة فذكروا أنهم وجدوه في واحد وثلاثين موضعاً.

٤ ـ سشروا

ورد هذا الاسم في أتهرووید، كاند ٢٠، سوكت ٢١، منتر ٩، وفي رك وید، مندل ١، سوكت ٥٣، منتر ٩ .

ومعنى هذا اللفظ في السنسكرتية: من يحمد ويثنى عليه كثيراً، فهو مرادف وترجمة حرفية للفظ «محمد» ﷺ.

٥ ـ سرو أنما

هذا اللفظ أيضاً. بمعنى محمد، وقد تقدم في ذكر كلكي أوتار.

ب ـ أحمد وما يراد فه (ﷺ)

٦ ـ أحمد، أيمد، أحمت

ورد هذا الاسم العربي الصريح في رك ويد ٨/٦/١٠، وفي سام ويد /٦/٨ ٢، وفي أتهرو ويد ٢٠/١٢٦/١٤ .

وورد في يجرويد ٣١/١٨ بلفظ «أحمت» بالتاء بدل الدال، وإبدال التاء بالدال كثير في اللهجة السنسكرتية وفي اللهجات الهندية إلى هذا اليوم.

٧ ـ ريبهـ

ورد هذا الاسم في أتهرو ويد ٢٠/١٢٧/٦، ٤ وهي كلمة سنسكرتية، ومعناها الحرفي: «أحمد». وقد تقدم.

٨ ـ كارو، وكارم، وكيري

ورد الاسم الأول في أتهرو ويد ٢٠ / ٢١ / ٦، وورد الاسم الثاني أيضًا في أتهرو ويد ٢٠ / ١٢٧ / ١١ وكلاهما بضم الراء، أم الاسم الثالث فقد ورد في رك ويد ٢ / ٢١ / ٦، وهو بالياء الخفيفة بعد الراء تقرأ بمثل الإمالة.

والأسماء الثلاثة كلها مشتقة من مادة واحدة، وتدل على معنى واحد، وهو من يكثر الحمد والثناء على ربه، فهو بمعنى «أحمد» تمامًا.

ج ـ الألقاب التي صارت علماً لمحمد ﷺ

٩ ـ أكنـ ويشوانر

ورد هذا اللقب في رك ويد ٥ / ٢٧ / ١، ومعناه «رحمة للعالمين» وقد وصف به «رك ويد» الرسول «مامح»، ومامح هو محمد ﷺ، كما تقدم وكونه رحمة للعالمين أمر معروف مسلم لا مجال للجدال فيه.

١٠ ـ أنتم أوتار

ورد هذا اللقب في بهاكوت بوران: برتهم اسكند، أدهياى ٣، شلوك ٢٥، وفي مواضع أخرى.

وهذا اللقب مجموع كلمتين: «أنتم»، ومعناه الأخير. و«أوتار» وهو يطلق على الأنبياء والرسل، فمعنى مجموع الكلمتين: آخر الرسل أو النبين. ومعلوم أن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين الذي لا نبي بعده.

١١ ـ جكت بتي

ورد هذا اللقب في بهاكوت بران ٢١ / ٢ / ١٩ . وهو أيضًا مجموع كلمتين: «جكت»، ومعناه العالم، و«وبتي»، ومعناه السيد والرئيس. أي سيد العالم

ورئيسه، ومعلوم أن النبي ﷺ هو سيد البشر وسيد ولد آدم وقد مضى هذا المعنى.

١٢ ـ ورت دهاري

ورد هذا اللقب في «رام شرت مانس» ترجمة تلسي داس لرامائن. وهو أيضًا مجموع كلمتين: «ورت» ومعناه؛ العالم، و«دهاري» ومعناه؛ السيد المحافظ، فهو بمعنى اللقب السابق.

١٣ ـ سمد رادوت عربن

ورد هذا اللقب في رك ويد ١/١٦٣/١ في وصف آخر الأنبياء، ومعناه؛ الرسول العربي صاحب ختم النبوة، وصدق هذا على محمد ﷺ معلوم ومن بديهيات السيرة، فهو رسول عربي، وآخر الأنبياء، وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده ﷺ، وكان عند غضروف كتفه اليسرى.

١٤ ـ السراج المنير

ورد هذا اللقب في رك ويد ٧/٩/٢، وورد معناه في يجر ويد ٣١/١٨، وفي سام ويد ٢/٦/٨، وفي شري مد بهكوت، مهاتم بوران ٢/٧٦ .

* * *

أبيات متفرقة ورد فيها أحد هذه الأسماء أو الألقاب

وفيما يلي نورد تلك الأبيات أو التراتيل المتفرقة التي ورد فيها أحد أسمائه ﷺ أو ألقابه، فأولاً نقدم ماورد فيها اسمه أحمد (ﷺ).

أحمد

ورد هذا الاسم المبارك في سام ويد ٢/٦/٨، وصورته كما يلي:

अहमद और सिराज मुनीर:

सामवेद प्रपाठक २, वश्ती ६, मंत्र ८ इस प्रकार है

अहमिधि पितु: परिमेधामृतस्य जग्रह। अहं सूर्य इवाजनि।।

सामवेद । प्र0 2 । द0 ६ मं0 ८ ।।

المعنى:

إن أحمد نال من ربه شريعة مملؤة بالحكمة، وأنا أستنير بها مثل الشمس.

وقد ترجم بعضهم: إن أحمد أول من قدم الهدي أو الضحية، وصار مثل الشمس البازغة المنيرة، ومهما كان فإن اسم أحمد موجود في هذه الترتيلة، وعلى سبيل العَلَم. وفيه لقبه السراج المنير أيضاً.

ملاحظة:

لفظ أحمد صريح في المنتر الأول، مطابق تماماً للهجته العربية، سوى علامة الكسرة على الميم بدل الفتحة، وفي المنتر الثاني تبدلت الحاء ياء، وهذه اللهجة -

وهي تبديل الحاء ياء في التلفظ أو الكتابة أو كليهما - عامة في كثير من مناطق شبه القارة الهندية.

ورد في يجر ويد ١٨/٣١ ما يلي:

यजुर्वेद सूक्त ३१, मंत्र १८ इस प्रकार है

वदाहमेत पुरुष महान्तमादित्यवण तग

प्रस्तात.....यनाय

والمعني:

إن أحمد عظيم، منبع لجميع العلوم، يكشف الظلمات كالشمس البازغة. وإنما تحصل الغالبة على الموت بعد معرفة هذا السراج المنير، ولاسبيل للنجاة إلا هو.

وهذا المنتر ورد فيه لفظ «أحمت» على سبيل العلم، وقد بدلت الدال فيه تاء، وهذا أيضًا عام في اللهجات الهندية حتى إلى هذا الزمان. وفيه لقبه السراج المنير أيضًا.

محمد

جاء في شري مد بهاكوت، مهاتم بوران ٢/ ٧٦:

अज्ञान हेतु कृत मोहमदान्धकार नांश

विधायं हि तदो दयत्ते विवेक:

والمعنى:

إذا جاء موعد فيضان الحق على الإنسان بطلوع الخير الاجتماعي في عهود الحياة التي لا نهاية لها فإن الظلمات تكشف بمحمد، ويشرق نور الفهم والحكمة.

السراج المنير

وقد اتضح من المناتر السابقة أن وصف النبي ﷺ بالحكمة والنور، وتشبيهه بالشمس البازغة التي عبر عنها في القرآن الكريم بالسراج المنير، وصف معروف له في الويدات والكتب الهندوسية الأخرى. حتى إنها استغنت أحيانًا بذكر هذا الوصف عن ذكر اسمه ﷺ. ومن ذلك ما ورد في رك ويد ٧/٩/٢، يقول هذا المنتر:

स सुक्रतुर्यो वि दुरः पणोनां पनानो अर्क पुरुभोजसंनः।
होता मन्द्रो विशां ममुनास्तिरस्तमो दृदशे राम्याणाम् ।।

والمعنى:

ما أعظم حكمة الحكيم الذي كسر أبواب المطففين، وأظهر لنا سراجًا منيرًا، يطعم أناسًا لا يحصون.

وهو عظيم وهدى للناس. يريد لهم الخير، وهو ولي مخلص لهم، إنه أشرق وكان الليل في ظلامه.

«المطففين» في هذا المنتر ترجمة لكلمة «بنينون» وهي في الحقيقة تطلق على لئيم شحيح جشع محتكر، يأكل الربا، ولا يهمه إلا نفع نفسه، وواضح أن الإشارة بهذا كله إلى اليهود، لأنهم هم الذين يتصفون بهذه الصفات الذميمة الخسيسة. ومعلوم عن اليهود أنهم كانوا قد بذلوا كل جهدهم ليحبسوا وحي الله ورسالته داخل بيوتهم، وأغلقوا عليها الباب إغلاقًا محكمًا، حتى لا تنتقل النبوة والرسالة من بيوتهم إلى بيت آخر، ولا يظهر رسول ولا نبي من سلالة غير سلالة بني إسرائيل. فأبى الله إلا أن يكسر أبوابهم المغلقة، وينقل الوحي والرسالة منها إلى محمد ﷺ، وهو من بني إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

أما وصفه بأنه يطعم أناسًا لا يحصون، فالظاهر أن المراد بالطعام غذاء الروح، وهو الوحي والدين، وهو سبب حياة الروح، كما أن الطعام سبب الحياة المادية، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾.

وأما قوله «أناس لا يحصون» ففيه إشارة إلى كثرة أمته، وأنها لا تحصى كثرة، وأما وصفه بالعظمة فإن هذه صفة معترف بها للنبي ﷺ عند العدو والصديق. وأما كونه «هدى للناس..» ففيه بيان وتنبيه على عموم رسالته لجميع الناس.

وأما «شروق هذا السراج المنير وكان الليل في ظلامه» فهو يحتمل معنيين: الأول بيان ما حصل عند بداية الوحي والرسالة، فإن الوحي جاء إلى النبي ﷺ في أواخر أوقات الليل قبل طلوع الفجر. فكان الليل في بقية ظلامه.

الثاني أنه بعث على فترة من الرسل حين كان الظلام والضلال منتشراً بل سائداً على العالم كله، كان الناس يتخبطون في دياجير الكفر والشرك والعصيان، والظلم والبغي والفساد والعدوان، ولم يكن من ينقذهم عن ذلك، ويخرجهم إلى نور الحق والعلم واليقين، والعدل والصلاح.

هذا، وبذلك انتهى ما أردت تسطيره في هذا الفصل، وبالله التوفيق.

اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. آمين.

* * * * *



الرسول محمد ﷺ

الجزء الأول

فهرس
الموضوعات

الفهـــرس